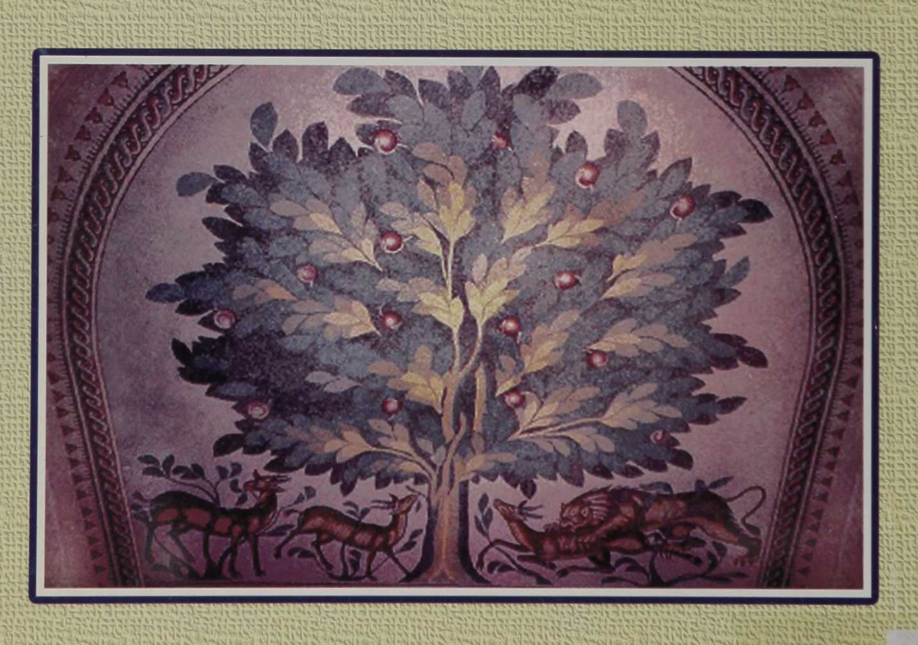
نشأت جعفر

الحرية فى الإسلام

الضرورة المحظورة



بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

اللسان للإنسان هو عضو النطق، أو أداة التواصل. واللغة للإنسان هى وعاء الفكر، والفكر للإنسان هو نتاج عقله خلال عمره. وإذا كان الإنسان وليد التاريخ، وإن الفرد على حد تعبير شاندل[١] «لم يتكون فى فترة عمره فحسب، بل فى فترة تاريخه»، أى أن العمر الحقيقى لكل إنسان هو تاريخه، وليس عدد سنوات حياته. الفكر يرتكز إذن على التاريخ والجغرافيا والثقافة واللغة، وينتج عنه التصور الاعتقادى والفن والإبداع والإيمان والوعى والذهنية المشتركة والقيم والآراء التاريخية والاجتماعية والنظام الطبقى والاتجاهات الجماعية والآلام والآمال لجماعة ما. إذا كان الفكر كذلك، وكانت مفردات اللغة هى الأوعية لكل ذلك، يصبح اللسان الذى تخرج منه اللغة هو أداة التوصيل والاتصال، بالنظر إليه كوسيلة للنطق، ويصبح أيضًا أداة التواصل والتعارف بالنظر إليه كوسيلة لنقل الفكر. لذلك يطلق على الحديث الذى تنقل من خلاله الأفكار، أى تبادل مفردات اللغة المحملة بشحنات الفكر، وبدلالات إرث التجربة التاريخية والوجدانية المشتركة، إنه «حديث ذو شجون»، فما يحدث هنا هو تواصل وليس اتصالاً لغويًا فحسب. فى اللغات الجرمانية أيضًا يطلق على اللغة الأولى التى يتعلم شخص ما التحدث بها منذ مولده بأنها «لسان» الأم «Mother Tongue» وهى اللغة التى يستطيع الشخص التواصل بها فكريًا، ولا تسمى لغة الأم «Mother Language» لذلك يقال – على سبيل المثال – عن شخص ألمانى الجنسية يستطيع الحديث بالإنجليزية He Speaks English, But His Mother Tongue is German.

حين يقول القرآن:

---

(١) العودة إلى الذات على شريعتى، ترجمة د. إبراهيم الدسوقى شتا – الزهراء للإعلام العربى، ط١، صـ١١٥.

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ ﴾[1].

فإن ذلك لا يعنى فقط بديهية أن الرسول إلى قرية من الصين - مثلاً - لن يتحدث إليهم باللغة الفرنسية، بل يعنى أيضًا أنه يبين مضمون رسالته لهم، بما يفهمونه من خلال إرثهم المشترك عبر التاريخ الخاص بهم، والموقع الجغرافى الذى يقطنون فيه، ومن خلال مفاهيم ثقافتهم وفنهم وحضارتهم وإبداعهم وقيمهم وآمالهم وآلامهم وثوابتهم التى تعارفوا عليها.

المفكرون فى كل قوم، والذين هم مهمومون بتناقضات مجتمعاتهم، والذين يكملون رسالة التنوير لأهلهم، عليهم السير على منهج الرسل، لقيادة القافلة، وتحديد الوجهة لها، واختيار المسلك للوصول بأهلهم إلى ما ينشدونه من آمال ورفعة وسعادة وقوة وتكامل، وأول بديهيات هذه المهمة الهائلة، هى أن يتحدث المفكرون لقومهم «بلسانهم» حتى يتيسر الفهم، ويحدث التواصل، ولا ينقطع الاتصال.

فى مصر لسان الاتصال هو اللغة العربية، فماذا عن لسان التواصل؟ تعالوا نفتش فى ثنايا فكر المصريين عبر تاريخهم الذى لا يضاهيه فى طوله تاريخ، للوصول إلى «لسانهم» والذى يكفل لنا التواصل معهم، وليس فقط الاتصال بهم.

يتحدث المصرى فى العصر الفرعونى، فيما درج على تسميته (كتاب الموتى)، فى معرض الدفاع عن نفسه عند الحساب قائلاً[2]:

لم أرتكب ما يغضب الإله
لم أتسبب فى بكاء أحد
ولم أتسبب فى حرمان إنسان من حق لـــه
ولم أنقص المقياس
ولم أطفف فى الميزان
لم أختطف اللبن من فم الرضيع
ولم أطرد الماشية من مراعيها

---

(١) الآية (٤) سورة إبراهيم.
(٢) شخصية مصر، د. نعمات أحمد فؤاد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٨، صـــ٨٥

ولم أصد الماء فى موسم جريانه

ولم أقم سدًا فى مجراه

ولم أطفئ شعلة فى وقت الحاجة إليها

ولم اعترض على إرادة الله.

وقبل ميلاد المسيح بحوالى اثنى عشر قرنًا، يقول كاتب أحد المخازن فى جبانة طيبة، يدعو آمون[١]:

الذى يأتى إلى الصامت

الذى ينجى الفقير

ويعطى النفس لكل إنسان يحبه

أمدد إلىَ يدك

نجنى، اسطع على

لأنك تخلق قوتى

أنت الإله الأحد لا إله غيرك

فأنت نفس رع الذى يشرق فى السماء

وآتوم خالق البشر

الذى يسمع دعاء من يدعوه

والذى ينجى الإنسان من المتكبر

والهادى لجميع الأنام

والذى يمنح النفس ما فى البيضة

والذى يجعل البشر والطيور تعيش

وعلى شاهد قبر لمصرى عاش حوالى القرن الثانى والعشرين قبل ميلاد المسيح كتب[٢]:

---

(١) فجر الضمير، هنرى بريستد، ترجمة د. سليم حسن، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القراءة للجميع، ١٩٩٩م، صـ٣٣٦

(٢) فجر الضمير، مرجع سابق، الصفحة التى قبل الفهرس.

«إن فضيلة الرجل هى أثره، ولكن الرجل السيء الذكر منسى».

وعن تفكير أخناتون فى التوحيد، فإن بريستد يعد ذلك (الإصلاح الذى أدخله أخناتون فى أيامه انقلابًا بعيد المدى، لا يقل عن الانتقال من الوثنية إلى المسيحية، وأبعد مدى من الانتقال بعدها من المسيحية إلى الإسلام)[١].

ولقد زار إبراهيم الخليل مصر، وتزوج من هاجر المصرية التى أنجبت لــه إسماعيل - عليهم جميعًا السلام - وبذلك فإن المصريين هم أخوال إسماعيل (أبى العرب)، وجد الرسول - عليه الصلاة والسلام -.

وموسى عليه السلام تربى فى قصر فرعون مصر، وأوحى إليه على أرض سيناء فى مصر، ومن مصر خرج بأتباعه من بنى إسرائيل، وكانوا قد حضروا إليها قبل ذلك حين استضافت يوسف وأباه يعقوب (إسرائيل) وأسرته - عليهم السلام - نشأت اليهودية، وتربى الرسول الذى بشر بها على أرض مصر.

استضافت مصر أيضًا السيدة مريم العذراء البتول وطفلها المسيح، وعن مصر والمسيحية تقول د. نعمات فؤاد «يقول: ج. م. كريد J.M. Creed: ما من بلد أثر فى انتشار الدين المسيحى أعمق مما فعلت مصر»[٢]. وعلى يد مصر وصل التبشير بالمسيحية إلى الجزر البريطانية «فقد ذكر بتلر: أنه يوجد إلى يومنا هذا ببلدة أرليدة ويزرت بأيرلنده قبور سبعة من الرهبان المصريين، لا تزال تذكر أسماؤهم فى الصلاة بكنيسة تلك الجهة»[٣]. بل إن «أقباط مصر هم الذين نشروا المسيحية فى فرنسا الجنوبية»[٤].

مصر المسيحية هى المصدر الأول لعلم اللاهوت بما خطه فيه أثناسيوس الذى تألق فى مجمع نيقية، وفى أوروبــا قول سائر فى ذلك الحين: (إذا وجدت عبارة من أقوال أثناسيوس، ولم تجد ورقة لتكتبها، فاكتبها على قميصك فى الحال)[٥].

وإلى مصر «ينسب نظام الحياة الديرية فى الرهبنة المسيحية، كما ينسب إليها

---

(١) شخصية مصر، مرجع سابق، صـ٧٩.
(٢) المرجع السابق، صـ١٠٩.
(٣) المرجع السابق، صـ١٠٨
(٤) المرجع السابق، صـ١٠٨.
(٥) المرجع السابق، صـ١٢٩

نظام التوحد فيها، وهما من عمل باخوميوس وأنطونيوس، بما أعانت عليه صحراء مصر»[١]. ومصر هي «التي وضعت النظام الرعوى الذى يبدأ من الأسقف وينتهي إلى الشماس، وعن مصر أخذته بقية الكراسى الرسولية»[٢].

مصر في الإسلام قدمت إلى الرسول إحدى زوجاته وهى التى آوت إليها أهل بيت النبى ﷺ ، وفيها يرقد الحسين[٣] بن على بن أبى طالب ، وعلى أرضها عاشت ودفنت فيها السيدة زينب شقيقته، وأيضًا على زين العابدين بن الحسين، وعدد آخر من العترة النبوية.

من مصر خرجت الجيوش التى دمرت الحملات الصليبية (الإفرنج)، وأخرجت الفرنجة من بيت المقدس ومن الشرق كله، وهى التى قضت على التتار الذين إن قدر لهم آنذاك الانتصار عليها لدمروا الإسلام، ودمروا الحضارة الإنسانية كلها.

فرضت مصر شخصيتها على الفقه الإسلامى «حين كيفت آراء الشافعي وحورت وبدلت فيها، حتى اضطر أن يكتب رسالته من جديد فيها متأثرًا بالبيئة المصرية، وبما سمع تلاميذ الليث بن سعد (فقيه مصرى) ينقلون عنه»[٤].

أعطت مصر للتصوف الإسلامى ذا النون المصرى[٥]، وابن الفارض «ومصر هى صاحبة فن (الحقيقة المحمدية) فى الأدب الصوفى»[٦].

أهرام مصر التى هى مقابر لآلهة المصريين فى العصور الفرعونية، أصبحت فى العصور الحديثة هى (الأهرام) آلهة تعبد من لدن بعض الغربيين والأمريكيين؟!!

---

(١) المرجع السابق، صـ١٠٧

(٢) المرجع السابق، صـ ١١٢

(٣) الحسين بن على بن أبي طالب: قال عبد الله بن عبيد بن عمير: حج الحسين خمسًا وعشرين حجة ماشيًا. وقال فيه النبي ﷺ وفى أخيه الإمام الحسن: «هما ريحانتاى من الدنيا»، «الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة». قتل يوم عاشوراء يوم الجمعة سنة (٦١هـ). صفة الصفوة جـ١ ص ٢٥١-٢٥٢.

(٤) المرجع السابق، صـ١٢٨

(٥) ذو النون المصرى: ثوبان بن إبراهيم، كان من قرية من قرى صعيد مصر، يقال لها: إخميم، كان رأسًا فى الزهد والورع. من أقواله: بصحبة الصالحين تطيب الحياة، والخير مجموع فى القرين الصالح، إن نسيت ذكرك، وإن ذكرت أعانك. مات سنة (٢٤٦هـ). صفة الصفوة ج٢ ص٨٧٩-٨٨٢.

(٦) المرجع السابق، صـ١٢٣

والآن هل تعرفنا على (لسان) المصريين الذى يمكننا التواصل به معهم؟ تقول كارين أرمسترونج، وهى راهبة كاثوليكية سابقة، وتعمل الآن أستاذ الأديان المقارنة بجامعة أكسفورد: «إن الناس فى مصر، مازالوا يريدون أن يكونوا متدينين رغم التوجهات العلمانية»[1].

أقول لكل المهمومين بأهلنا فى مصر – أيًا كان موقفهم العقيدى – أقولها للمؤمنين بأنواعهم، وللعلمانى المتدين، والعلمانى غير المتدين، والملحد، واللاأدرى، أقول لهم جميعًا: إذا أردنا التواصل مع أهلنا والتحدث إليهم (بلسانهم)، والوصول إلى نقل تناقضات مجتمعنا إلى وعيهم، فلا سبيل إلا سبيل الدين. هذا هو الطريق إلى الطَرق على وعى المصريين، حتى تحدث اليقظة. علينا أن نقدم كل ما هو قيمة بناءة خلاقة منيرة محركة وموقظة للشعور، وباعثة على النهوض، ومضادة للركود والانحطاط والخمول، وذلك من خلال الدين، وهنا فقط سوف يسمع المصريون وينصتون، ويفهمون ويتحركون. وأنت يا من لك موقف من الدين والإيمان، عليك أيضًا أن تتقدم لتضىء شمعتك، وكلنا فى حاجة ماسة إليها، وسوف يسمع لك الناس، ويتواصلون معك، وينفعلون بإبداعك، على ألا تبدأ بالتحرش بالله أو بالدين أو الحياء العام بأى شكل من الأشكال. عليك أن تُبعد الدين أو تبتعد عنه فى اقترابك من أهلنا، وإلا سوف يستبعدك الناس فى الحال، وهذه مشكلة التعالى والإصرار التى يعانى منها معظم من يتصدون للهم العام من خلال منابر المعرفة أو أنواع الإبداع. عندما لا تتحدث إلى قومك (بلسانهم) فلا تتوقع منهم أن يستمعوا لك.

عندما كنا صغارًا، كان أهلنا يحذروننا عند الخروج معهم لزيارة صديق أو قريب، من أن نطلب دخول دورة المياه فى بيت المضيف، وكان ذلك مشكلة المشاكل فى حالة حدوثه، وهذا نوع من الحياء واحترام خصوصية الآخرين إلى حد قد يكون غير مفهوم أو معقول أو حتى محتمل!!. فلا محل إذن تحت أية مسميات لخدش حياء أهلنا الزائد، ناهيك عن تسفيه معتقداتهم، أو أديانهم، أو مهاجمة كتبهم المقدسة، عندها ينقطع التواصل فى الحال.

---

(١) معارك فى سبيل الإله. د. كارين أرمسترونج، ترجمة د. فاطمة نصر/ د. محمد عنانى، دار سطور، ط١، عام ٢٠٠٠م، صـ٥٤١.

ما لا يريد، ممن يفعلون ذلك، تصديقه لوقت طويل، إن الناس لا تسمع لهم، ولا تتواصل معهم، بل وترفضهم؛ لأنهم بكل بساطة لا يخاطبونهم (بلسانهم).

أقول تعالوا إلى كلمة سواء، أن نخاطب أهلنا (بلسانهم)، وأنا أبدأ هذا المشروع، بمحاولة لإزالة الصدأ والغبار، اللذين علقا بأفهامنا، عن أحد أهم القيم الأساسية، وهى (الحرية)، وعلاقتها بالدين (الإسلامى)، وما ذلك إلا اجتهاد دينى - أسأل الله فيه التوفيق - لبيان موقف الإسلام من الحرية، أرجو فيه أن أكون قد نجحت فى مخاطبة أهلنا (بلسانهم)، وأن يكتب لى النجاح فى التواصل معهم.

والله من وراء القصد

نشأت جعفر

مصر الجديدة

٢٦/٧/٢٠٠١م

الفصل الأول

تمهيد وتنظير

التكليف هو أساس الخلق

يقوم التصور الاعتقادى للمسلم على أن الله الواحد الأحد هو خالق كل شىء ﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾[1].

وأن الله الذى خلق الكون، أى أن للكون بداية، وأن للكون أيضًا نهاية، يحددها قيام الساعة التى علمها عند الله وحده

﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴾[2].

والكون فى هذا التصور قد جاء لغاية حيث يقول الله – سبحانه :

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَـٰعِبِينَ ﴾[3]،

فلا مكان للهو أو لعب أو عبث، فالأمر جد لا هزل فيه.

الإنسان فى هذا الكون، مخلوق أيضًا لغاية، وله فيه دور محورى حيث يقول الله – تعالى:

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾[4]،

فكل شىء فى حياة هذا المخلوق بمقدار ولغاية وبحساب، وهو سائر فى رحلته؛ ليوفى أجره، ويؤتى حسابه، ويحقق الغاية من وجوده. ويزيد القرآن الغاية من خلق الإنسان وضوحًا حين يقول الله – تعالى:

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[5]

---

(١) الآية (٢) سورة الفرقان.

(٢) الآية (١٥) سورة طه.

(٣) الآية (٣٨) سورة الدخان.

(٤) الآية (١١٥) سورة المؤمنون.

(٥) الآية (٥٦) سورة الذاريات.

ويقول جل وعلا فى آية أخرى

﴿ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾[1]،

واستعمركم تعنى (طلب منكم الإعمار والتنمية). إذن الإنسان مخلوق للعبادة وللإعمار وللتنمية فى الأرض. أو يمكن القول إن المطلوب من الإنسان، أو أن التكليف للإنسان جاء بالعبادة وطلب العمل أى:

- العبادة بشعائر ونسك وفرائض وأوامر ونواه.
- العمل التنموى الإعمارى لرفع مستوى حياته على الأرض، وللحصول على السعادة والقوة والرفاه.

وعن الآية

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾

يقول سيد قطب: «وأول جانب من جوانب هذه الحقيقة (التى تنطوى عليها الآية) أن هنالك غاية معينة لوجود الجن والإنس، تتمثل فى وظيفة من قام بها وأداها فقد حقق غاية وجوده، ومن قصر فيها فقد أبطل غاية وجوده، وباتت حياته خاوية من معناها الأصيل، التى تستمد منه قيمته الأولى... هذه الوظيفة المعينة هى العبادة لله أو هى العبودية لله. إن مدلول العبادة لابد أن يكون أوسع وأشمل من مجرد إقامة الشعائر، فالخلق لا يقضون حياتهم فى إقامة الشعائر، والله لا يكلفهم هذا، وهو يكلفهم ألوانًا أخرى من النشاط يستغرق معظم حياتهم. ونحن نعرف حدود النشاط المطلوب من الإنسان من قول الله – تعالى –:

﴿ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ ﴾

فالخلافة فى الأرض إذن هى عمل هذا الكائن الإنسانى. وهى تقتضى ألوانًا من النشاط الحيوى فى عمارة الأرض، والتعرف إلى قواها وطاقاتها، وتحقق إرادة الله فى استخدامها وتنميتها وترقية الحياة فيها. كما تقتضى الخلافة القيام على شريعة الله فى الأرض؛ لتحقيق المنهج الإلهى الذى يتناسق مع الناموس الكونى العام.

---

(١) الآية (٦١) سورة هود.

معنى العبادة أوسع وأشمل من مجرد الشعائر، هو استقرار معنى العبودية في النفس، والتوجه إلى الله بكل حركة في الضمير، وهنا يصبح العمل كالشعائر، والشعائر كعمارة الأرض، وعمارة الأرض كالجهاد في سبيل الله. وهنا يستمتع العبد براحة الضمير، وطمأنينة النفس، وصلاح البال في جميع الأحوال سواء رأى ثمرة عمله أم لم يرها، تحققت كما قدرها أم على عكس ما قدرها...» [١].

وفي الواقع فقد كفانا التفسير السابق معنى الآيتين (٥٦) من سورة الذاريات، (٦١) من سورة هود، أي معنى التكليف بشقيه العبادة والعمل التنموي الإعماري.

الإنسان المكلف

الإنسان في التصور الاعتقادي للمسلم، هو إنسان مكلف ذو مسئولية. وهناك تعريفات عدة للإنسان في العلوم المختلفة، فهو تارة يعرف كحيوان ناطق، أو حيوان اجتماعي، أو حيوان ذي ذاكرة، أو حيوان ذي تاريخ، ولكن القرآن لا يطلق على الإنسان وصف الحيوان، ولكن يشبهه بالحيوان في المواقف التي تسلب منه فيها حريته برضائه، نتيجة رضوخه - على سبيل المثال - لسلطان هوى النفس، على الرغم مما أوتي من العلم

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ۝ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَـٰهُ بِهَا وَلَـٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ﴾[٢]،

أو الإنسان الذي تقوده شهواته دون أية مقاومة أو مجاهدة منه، فلا يحيا إلا تلبية لرغباتها

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَـٰمُ ﴾[٣]،

لذلك لا نصف الإنسان، طالما كان مسئولاً وواعيًا، إلا بأنه الإنسان المكلف.

وعن وصف الإنسان بالكائن المكلف يقول الأستاذ العقاد: «مكان الإنسان في

---

(١) في ظلال القرآن، دار الشروق، جـ٦، ط شرعية ١٣، ١٩٨٧، صـ ٣٣٨٦-٣٣٨٩ بتصرف.
(٢) الآيتان (١٧٥-١٧٦) سورة الأعراف.
(٣) الآية (١٢) سورة محمد.

القرآن الكريم هو أشرف مكان لـــه فى ميزان العقيدة، وفى ميزان الفكـــر، وفـــى ميزان الخليقة الذى توزن به طبائع الكائن بين عامة الكائنات.

هو الكائن المكلف....

هو كائن أصوب فى التعريف من قول القائلين (الكائن الناطق)، وأشرف فـــى التقدير.

هو كائن أصوب فى التعريف من المَلَك الهابط ومن الحيوان الصاعد، وأشرف فى التقدير من هذا وذاك.

ليس الكائن الناطق بشىء، إن لم يكن هذا النطق أهلاً لأمانة التكليـــف، ولـــيس الملك الهابط منزلة تهدى إلى طريق الصعود أو طريق الهبوط، ولـــيس الحيـــوان الصاعد بمنزلة الفصل بين ما كان عليه وما صار إليه، ولا بمنزلة التمييز بين حال وحال فى طريق الارتقاء.

إنما الكائن المكلف شىء محدود بين الخلائق بكل حد من حدود العقيدة أو العلم أو الحكمة...» [١].

العهد والتعاقد

التكليف للإنسان هو أساس خلق الإنسان، وأساس التعاقد الذى تعاقـــده الله مـــع الإنسان، وتعهد الإنسان بالقيام بهذا التكليف، حيث يسجل القرآن على الإنسان هـــذا العهد وهذا التعهد بقولـــه:

﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۝ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ۝ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾[٢].

العبادة هنا بمعناها الشامل الذى أسلفنا وصفه فالله عهد إلى الإنسان عهداً، ترتب عليه التعاقد الذى استوجب التكليف للإنسان بالعبادة، وبالعمل الإعمارى التنمـــوى

---

(١) الإنسان فى القرآن، عباس العقاد، الهيئة المصرية العامـــة للكتاب (مهرجان القراءة للجميع ٩٧) ص٢٣.

(٢) الآيات (٦٠-٦٤) سورة يس.

الذى هو أساس التعاقد ولهذا التكليف بالضرورة شروط، كما أن لكل تعاقد شروطا. العقد أيَ عقد لــه أساس (التكليف)، ولــه شروط أولها ضرورة تنفيذ بنود التكليف فى زمن محدد أى ضرورة (الطاعة) لمتطلبات التكليف، وهناك شــروط جزائيــة توضع للتطبيق فى حالة عدم التنفيذ أى عدم الطاعة، وهذا يعنى بالتبعية أن المتعاقد لــه (الحرية) فى التنفيذ من عدمه، لمعرفته أنه سوف يثاب إذا تم التنفيذ، ويعاقــب عند التخلف عن الإنجاز، فأنت حر فى تنفيذ أساس العقد أو عدم التنفيــذ، فهنــاك الشرط الجزائى. ومن نافلة القول: إن الاستطاعة هى من المؤهلات الأولية عنــد التعاقد، فلا ينبغى أصلاً التعاقد مع من لا يملك إمكانات التنفيــذ أو لا يســتطيعه. التكليف للإنسان يقتضى بداهة الطاعة والحرية والوُسع.

الحرية أحد شروط التكليف

إذا انتهينا إلى أن الكون خلق لغاية وليس عبثًا، وأن الإنسان كائن مكلــف، وأن التكليف هو الأساس، ومن شــروط هــذا التكليــف للإنســان الطاعــة والحريــة والاستطاعة، فلا يعنى شرط الحرية هنا أن للإنسان من حيث المبــدأ أن يــرفض التكليف أو يقبله؛ لأن الإنسان قد سبق ووافق على ذلك حــين رأى الله، وشــهد لله بالربوبية بنص الآية

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾[١].

فليست الحرية هنا والتى هى شرط للتكليف، تمارس فــى قبــول التكليــف أو رفضه؛ لأن التكليف ليس موضوعًا للمساومة، وإنما مجال الحرية للإنسان هو فى العمل وفقًا لمتطلبات هذا التكليف أو ترك العمل بها. أمر التكليف للإنسان محسوم

---

(١) الآيتان (١٧٢-١٧٣) سورة الأعراف.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴾[1]،

إنما الإنسان المكلف العاقل السميع البصير حر فى العمل وفقا للتكليف، أو لـــه غير ذلك

﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾[2]،

وفى معنى آية : ﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾

يقول التفسير: (ألم نعرِّفه طريق الخير وطريق الشر، مبيَّنَيْن كتبيُن الطــريقين العاليتين)[3]، ويقول القرآن أيضًا:

﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾[4].

التكليف واقع، والحرية هى فى سلوك أحد الطريقين، طريق العمل، أو طريـــق الترك لهذا التكليف.

تكريم الإنسان بالخلافة فى الأرض بقبوله بالحرية

الآن إذا صح لديك الزعم أن الحرية هى شرط التكليف، وأن الكون لم يخلق لعبًا ولا عبثًا ولا لهوًا، إنما خلق بتدبير إلهى محكم، ولهدف وغاية ساميين، ولنهاية ومصير محتومين، وأنه لا غاية بغير تكليف، ولا تكليف بدون حرية، وإرادة مدركة مهتدية، فأصبحت الحرية هى الأساس الذى قام عليه البناء، وهى القاعدة للعلاقة بين الخالق والإنسان، وأن الإنسان حين ارتضى حملها، ولم يشفق من تحمل تبعاتها[*]، والقيام بواجبها، استحق أن يحوز شرف التكريم:

---

(١) الآية (٦) سورة الانشقاق.

(٢) الآيات (٨-١٠) سورة البلد

(٣) نفحة العبير من زبدة التفسير. د. محمد سليمان الأشقر، دار الفتح للنشر والتوزيع بدون تاريخ، صـــ١٤٨٦

(٤) الآيتان (٢-٣) سورة الإنسان.

( ) سنخصص التذييل لاجتهاد بأن لفظ الأمانة الوارد فى الآية (٧٢) من سورة الأحزاب ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ...... ﴾ يقصد به فى زعمى (الحرية).

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾[1]،

ووصل إلى أعلى الذرى فى ترتيب الكائنات، وأصبح خليفة عن الله فى أرضه:
﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾[2]

فالإنسان الحر الواعى هو خليفة الله فى الأرض ولا نزاع. ولا يفوتنا هنا أن ننوه أنه على الرغم من وصف القرآن لطبيعة الملائكة بأنهم
﴿ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۝ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴾[3]،

وأنهم: ﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾[4]،

فقد نالهم فى موقف تعيين الإنسان خليفة لله طلٌ من وابل الحرية التى حملها الإنسان، وتذوقوا نسمة من نسائم الحرية إكرامًا من الله لهم لكرامة خليفته عليه، فمارسوا حرية التعبير عن رأيهم، ثم فند الله رأيهم باختبار لم يجتازوه، وألزموا الحجة بأنهم ليسوا أهلاً لما أهل لـــه الإنسان فلا نزاع:

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۝ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾[5].

---

(١) الآية (٧٠) سورة الإسراء.
(٢) الآية (٣٠) سورة البقرة.
(٣) الآيتان (٢٦، ٢٧) سورة الأنبياء.
(٤) الآية (٦) سورة التحريم.
(٥) الآية (٣٠) وما بعدها سورة البقرة.

وعندما تحركت المشيئة بوقت خروج الإنسان لعالم الظهور، الإنسان الذى اختار الحرية فاختاره الله خليفة لـــه، ولم يكن ذلك «سوى إفصاح عن إرادة الذات العلية، بأن الإنسان ذو شأن تجاوز به كل ما عدا الإنسان من مخلوقات تحدث عنها الله فى كتبه السماوية»[1]، عندها رتب الحق - تبارك وتعالى - لهذا الخليفة الاستقبال الذى يليق بمنزلته:

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ۝ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾[2]

سجدت الملائكة كلهم إلا إبليس حيث لم يفطن إلى نفخة الحرية التى نفخت فى الإنسان من روح الله، ووقف إبليس بعنصريته عند ظاهر الإنسان وحقارة مادة صنعه، فالإنسان بدون الحرية ليس إلا بعض الطين والتراب، وقد طرد برفضه السجود من رحمة مولاه.

لابد أن تخضع مخلوقات وكائنات الكون لنائب الله وخليفته فى الأرض، وأن تأتمر بأمره، وتؤثر فيها إرادته، والعدل يكمن من وراء ذلك، حيث إنها رفضت مسئولية الاختيار، وطلبت الطاعة، وجبلت عليها، فكان لابد من أن تجرى عليها سنة التسخير والخدمة والانصياع للإنسان، حيث يقول الحق - تبارك وتعالى -:

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[3]،

ويقول:

---

(١) فلسفة التشريع الإسلامى، فتحى رضوان، صـــ ١٠١، مرجع سابق.

(٢) الآية (٣٨) سورة الحجر.

(٣) الآية (١٣) سورة الجاثية

﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَـٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَـٰبٍ مُّنِيرٍ ﴾[1]،

ويقول:

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَـٰرَ ۝ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۝ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ ﴾[2].

أخبرونى - أدام الله فضلكم - بعد كل هذا الاحتفاء من بديع السماوات والأرض، خالق كل شىء، بالإنسان الحر المختار، من يجرؤ تحت أية دعوى من الدعاوى، أو حجة من الحجج، أو فكرة من الأفكار، أو شعار من الشعارات، أو تقليد من التقاليد، أو موروث من الموروثات، أن يقترب أو يتغول أو يسلب أو يحرم فردًا كان أو جماعة أو دولة أو أمة من الحرية.

عواقب إسقاط التكليف أو التنازل عن الحرية

إن وجود غاية للكون، وغاية للإنسان داخل هذا الكون، وإن الإنسان مخلوق مكلف ذو مسئولية، يحمى الإنسان من الوقوع فى مهاوى اليأس والقنوط، ويباعد بينه وبين الدخول فى دوامة حلقات العبث الجهنمية، ويصور ذلك الموقف برتراند راسل (   ) الفيلسوف والرياضى الإنجليزى الشهير بما يتميز به من قوة ووضوح فيقول: «لأن يكون الإنسان نتاج أسباب لا تملك العدة اللازمة لما تحققه من غايات، ولأن يكون منشؤه ونموه وآماله ومخاوفه وصبواته ومعتقداته مجرد حصيلة ارتصاف ذرات عرضى، ولأن تعجز أية حماسة مشبوبة، أو بطولة، أو أية حدة فى التفكير أو الشعور، عن الإبقاء على حياة فرد واحد فيما وراء القبر،

---

(١) الآية (٢٠) سورة لقمان.

(٢) الآيات (٣٢-٣٤) سورة إبراهيم.

ولأن يكون الاندثار هو المصير المحتوم لكل عناء الأجيال، ولكل التفانى، ولكل عبقرية الإنسان المتألقة تألق الشمس فى رابعة النهار، كل هذه الأمور إن لم تكن حقًا غير قابلة للجدل، فإنها مع ذلك تقترب من اليقين إلى حد يستحيل معه على أية فلسفة ترفضه أن يكتب لها البقاء. وعلى ذلك لا يمكن بناء موطن الروح بأمان إلا فى إطار هذه الحقائق، وعلى أساس راسخ من القنوط المقيم»[1].

وأما القبول بثبوت التكليف، مع الزعم بنفى الحرية فى الحركة، وبأن الإنسان لا يملك إرادة حرة واعية مختارة، فإنه يدفع بالإنسان إلى براثن حتمية ظالمة عمياء، ويمهد لـــه بالهروب من مسئوليته كخليفة عن الله إلى أحضان جبرية مقعدة عن السعى الدؤوب، والترقى إلى أعلى مدارج الكمال، فالقول بالجبر وعدم الاختيار تجاهل لقوى وملكات الإنسان وكسل وعجز وقعود، ويعبر عن ذلك جلال الدين الرومى فى بصيرة شعرية نفاذة، بمناظرة رمزية بين حيوانات الغابة، والأسد الملك فيقول على لسان الحيوانات إلى الأسد:

- فالمرء يجب أن يكون ميتًا أمام الحق، وإلا جاءته الضربة من رب الفلق فكم يفر المرء من بلاء ليقع فى بلاء آخر، وكم يهرب المرء من الثعبان ليلقى التنين.

لقد احتال الإنسان فكانت حيلته شركًا وقع هو فيه، وكان موته فيما حسب أنه حياته.

فقد أوصد الباب والعدو فى منزله، وأن حيلة فرعون لم تكن إلا[*] قصة من هذا النوع.

فهذا الحقود قد قتل آلاف الأطفال، بينما الطفل الذى يبحث عنه فى منزله[*]

فأرواح البشر كانت، قبل أن تخلق الأيدى والأرجل - تحلق بوفائها فى جو الصفاء.

وعندما قيدت الأرواح بأمره - تعالى- ﴿ ٱهْبِطُواْ ﴾[**] صارت أسيرة

---

(١) العلم فـــى منظوره الجديد، روبرت م. اجروس / جورج ن. ستانسيو، عالم المعرفة ١٣٤، فبرايـــر ١٩٨٩، صـــ١٦، عن: «

( ) يشير إلى قصة فرعون وموسى - عليه السلام - حيث تربى موسى فى قصر فرعون.

( ) اشارة إلى الآيتين من سورة البقرة (٣٦)، (٣٨) <=

الغضب والحرص والرضى.

فأجابهم الأسد:

- نعم ، ولكن رب العباد وضع سلمًا أمام أقدامنا، فالواجب أن نصعد هذا السلم درجة درجة نحو القمة، وأما القول بالجبر فإنه طمع ساذج.

إن لك ساقين فكيف تجعل من نفسك إنسانا أعرج، وإن لك يدين فكيف تخفى أصابعك.

فالسيد عندما يضع الفأس في يد عبده، يتضح مراده دون الحاجة للقول

إن السعى لشكر نعمته لهو القدرة (والاختيار) وأما إنكار النعمة فهو الجبر.

فشكرك على النعمة يزيد من قدرتك (وحرية إرادتك) وأما الجبر فيخرج تلك النعمة من يديك.

إن (اعتقاد) الجبر كالنوم بين قطاع الطرق، وهل يجد الأمان طائر لم يكتمل جناحاه[1].

فى عهد الخليفة الثانى عمر بن الخطاب، أتاه فى المدينة قبطي (مصري) قد قدم من مصر شاكيا، أن ابن حاكم مصر عمرو بن العاص قد ضرب ابنه، وطلب القصاص، فأرسل ابن الخطاب فى طلب ابن العاص، وجلبه إلى المدينة، وعلى مشهد من أهل المدينة طلب من ابن المصرى أن يضرب ابن عمرو بن العاص قائلاً: (اضرب ابن الأكرمين) ففعل، ثم حسر ابن الخطاب غطاء رأس ابن العاص، - كان ابن العاص عظيم الهامة، ذا صلعة كبيرة - راجيًا المصرى أن يضرب ابن العاص على صلعته، متوجهًا إلى ابن العاص بالقول: (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا). رفض المصرى أن يفعل ذلك وقد اكتفى. لو أن القيمة التى يدافع عنها ابن الخطاب فى هذه الواقعة هى العدل أو المساواة، لما كان يحق لـــه أن يفعل ما فعل بابن العاص، بعد أن اقتص ابن المصرى من ولده، وما كان

=﴿ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

(١) المثنوى: جلال الدين الرومى، ترجمة د. عبد السلام كفافى، صـ١٦٠، ١٦٢، ك ١ ، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٦٦م.

لـــه أن يطلب حضور حاكم مصر إلى المدينة من الأساس، بل كان يمكنه تنفيذ القصاص فى مصر دون تحايل أو تهاون. لكن عمر بن الخطاب هنا كان يدافع عن القيمة العظمى، وعن أساس الدين، كان يدافع عن الحرية، كما أوضح فى قولـــه لابن العاص: (... ولدتهم أمهاتهم أحرارًا). لقد أحس أن الحرية قد انتهكت، فكان منه ما كان.

بدون الحرية لا يوجد إنسان، وبدون الإنسان لا محل للدين، وبدون الدين لا معنى للكون.

* * *

الفصل الثانى

تصنيف الحرية

تكليفات وليست حقوق

لم ترد كلمة الحرية قط فى القرآن الكريم. إنما الذى ورد هو مشتقات من كلمة الحرية. مثل كلمة (تحرير) فى الآية:

﴿ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَئًا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ﴾[1]

وأيضا كلمة (محررًا) التى تتحدث عن نذر أم السيدة مريم البتول حملها لله فى آية:

﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا ﴾[2]،

وكلمة (الحر) فى آية

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ﴾[3].

وعلى طريقة القرآن فى ضرب الأمثال للناس؛ لإيضاح المفاهيم الضرورية بإثارة وتحفيز أدوات الفكر، وإعمال العقل لقوله:

﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[4]،

فقد ضرب مثلاً فى سورة النحل، يعبر عن الأهمية القصوى لقيمة الحرية فى مسيرة الناس، فقال تعالى:

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا

---

(١) الآية (٩٢) سورة النساء.

(٢) الآية (٣٥) سورة آل عمران.

(٣) الآية (١٧٨) سورة البقرة.

(٤) الآية (٢١) سورة الحشر.

حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[1]،

فلا تساوى بين من يتمتع بالحرية ويعيش بها وبين من سلبت منه الحرية، وهذا من أساسيات العلم.

وهناك من يعزو عدم ورود كلمة الحرية فى القرآن، وورود مشتقاتها مثل كلمة (تحرير) والتى جاءت فى صدد تكليف الإنسان المخطئ بكفارة عن خطئه، تتمثل فى تحرير إنسان من عبودية الرق «بأن الإسلام كله لم يعرف للإنسان حقوقًا، بل فرض عليه واجبات، أو كلفه بتكليفات، هى فى حقيقة الأمر ما تواصينا اليوم على تسميته بحقوق الإنسان ... وكوْن الحقوق الفردية، أو حقوق الإنسان، أو الحريات العامة، كما يجرى الاصطلاح الحديث، واجبات فى الإسلام، ليس مرده أن الحقوق جميعًا هى ملك الله، كما يقول الاصطلاح الإسلامى، بل لأن الأخلاق هى الأساس فى التشريع الإسلامى، والأخلاق أصلاً، هى فروض وتكاليف. لذلك كان المجتمع الإسلامى مجتمع تكاليف أو التزامات، أو واجبات، والمسلمون هم المكلفون»[2].

ويتفق هذا المفهوم على أن الأخلاق هى الأساس فى التشريع الإسلامى مع قول رسول الله ﷺ « **إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق** »[3]، كما يتفق مع التعريف الذى سقناه فى الفصل الأول عن الإنسان فى التصور الاعتقادى للمسلم بأنه (الإنسان المكلَف). كما أن الارتفاع بالقيم الإنسانية الأساسية، وعلى رأسها الحرية – وهى التى تعنينا فى هذا المقام – من مستوى الحقوق للإنسان، إلى مستوى التكليف أو الالتزام أو الواجب على الإنسان المكلَف، يسلب الشرعية والمصداقية من أية دعاوى تروّج لسلب حرية الإنسان – أى إنسان – أو التغول عليها، أو تقييدها، أو التنازل عنها، أو حتى القعود عن سبيل تحصيلها، باعتبارها مجرد حق يمكن التنازل عنه.

---

(١) الآية (٧٥) سورة النحل.

(٢) من فلسفة التشريع الإسلامى، لفتحى رضوان، دار ثقيف للنشر والتأليف، ط١، ١٩٩٠ الرياض، صـ١٢١-١٢٠.

(٣) [صحيح] البخارى فى «الأدب المفرد» (٢٧٣)، وأحمد فى «مسنده» ج٢ صـ٣١٨.

ويبدو أن هذا المفهوم - رغم غياب كلمة الحرية من مفردات القرآن - كان غاية فى الوضوح فى ذهن الرعيل الأول من المسلمين، كما يظهر ذلك فى قصة عمر بن الخطاب مع عمرو بن العاص وابنه والتى سقناها سالفا، ويتضح الأمر بجلاء فى قولة ابن الخطاب: «متى استعبدتم الناس، وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا». كما نلمح ذات التوجه فى قصة ربعى بن عامر مع رستم محارب الفرس العظيم، حين سأله رستم عن دوافع مجئ العرب لقتال الفرس؟ فأجابه ربعى: «جئنا لنخرج الناس من عبادة العباد، إلى عبادة الله، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة» الحرية إذن هى واجب والتزام وتكليف قبل أن تكون حقًا، والمسئولية عن نشرها وتوفيرها وحمايتها يدخل ضمن هذا التكليف للإنسان المكلف، وقد مثّل ذلك سياج الحركة للمسلمين الأوائل.

ليس من واجب الإنسان المكلَف فقط السعى للحصول على الحرية، والمحافظة عليها، والدفاع عنها، وألا يسمح لنفسه أو لغيره بالافتئات عليها، بل إن عليه أيضًا التزامًا وواجبًا بالدفاع عن حق الآخر فى الحصول على الفرصة العادلة للتعرف على الحرية، وأن يوفر لـــه المناخ المناسب لممارستها، وتذوق نتائجها وآثارها. القفزة هائلة والبون شاسع بين مفهوم الحق، ومفهوم التكليف والواجب.

غياب مباحث الحرية فى فكر السلف

على الرغم من عدم ذكر الحرية بلفظها فى القرآن الكريم، فإن الباحث بين جنباته، ومن خلال آياته سوف يلحظ الكم المدهش، والحظ الوفير الذى أخذته الحرية بأصنافها المختلفة، وقدر العناية الفائقة التى أولاها القرآن للاحتفاء بها. وحتى يمكننا تعقب ذلك الحضور الأخاذ للحرية بمختلف معاييرها وعناصرها لابد أولاً من تصنيفها إلى أصنافها المختلفة، وأنواعها التى تعارف عليها الفكر الإنسانى. أى المقصود أنه لكى نتمكن من تتبع الآيات التى تحدد المفهوم القرآنى للحرية، والتى تشرح التوصيف الإلهى لها، يجب أن نحدد أولاً أصناف أو أنواع الحريات التى أجمعت الخبرة الإنسانية المتراكمة على أنها مطلوبة وضرورية للإنسان، فإذا وضعنا أمامنا أصناف الحرية وتقسيماتها التى انتهى إليها إعمال العقل البشرى، والتى تطورت كحصيلة للتجارب الإنسانية المتراكمة، أمكننا استخراج

الآيات التى تشير أو تدعّم أو توضح أو تضيف أو حتى تخالف هذه الأصناف من الحرية، من بين آيات القرآن الكريم.

ومن البديهى أن نتجه أولاً إلى حصيلة الفكر الإسلامى، وإلى المصادر الإسلامية لمعرفة ما انتهى إليه التنظير فى هذا المنحى. فهل يا ترى نجد بغيتنا فى الفكر الإسلامى؟ وهل اكتمل البناء على البداية الهائلة والواعدة والمفهوم الرفيع لمكانة الحرية - السابق الإشارة إليه - الذى تبناه المسلمون الأوائل؟ فى الواقع - ومع عظيم الأسف - فإن الفكر الوارد إلينا من خلال التاريخ الإسلامى قد شابه القصور الشديد فى اتجاه التنظير للحرية، نتيجة لأسباب لا يتسع المقام هنا لمناقشتها، والتحدث عن أسبابها، والتى على رأسها الاستبداد السياسى الطويل الذى بدأ بمقتل الخليفة على بن أبى طالب، وقد دفع هذا الاستبداد أمور الفكر إلى «أن معظم العلماء والمفكرين المسلمين تاريخيًا، بسبب الظروف السياسية، التى أدت إلى انفصالهم عن الواقع ومتطلباته، أو لأى سبب آخر، صرفوا جهودهم كلها فى استنباط الحكم التشريعى من الآيات، دون الوقوف عند الأهداف الكثيرة التى جاءت الآيات من أجلها، وأُنزلت للفت النظر إليها، وإدراك أبعادها، والتزامها فى الحياة، فجعلوا الآيات موضوع الدراسة هى آيات الأحكام التى وضعـوا لها أعدادًا متقاربة (٣٠٠ - ٥٠٠) *آية، أما ما وراء ذلك من آيات السنن والقوانين والشروط التى قد تكون أكثر أهمية وأولى بالنظر من حيث البناء الحضارى وشروط القيام بأعباء الاستخلاف الإنسانى، فلم يعيروها أدنى اهتمام، أو الاهتمام الكافى على الأقل. وبقيت آيات القرآن الأخرى (تربو على ٥٥٠٠ آية)(*) على أهميتها، تتلى للتبرك، إلى درجة وصلت عند بعضهم وكأن القرآن كله أصبح كتابًا لفقه آيات الأحكام فقط! حتى الآيات التى وردت لتبين أسباب سقوط الأمم وانهيار الحضارات ليأخذ المسلمون حذرهم، فلا تتسرب إليهم إصابات الأمم السابقة وعللها، جعلوها دليلاً لصحة القياس التشريعى(**)، بعيدًا عن سياقها الأصلى ! وتحضرنى بهذه المناسبة:

( ) بين القوسين أدخلت على النص.

( ) القياس: أحد مصادر التشريع غير النصية (المصادر النصية هى: القرآن والسنة النبوية). حيث الحوادث التى تقابل الناس لا نهاية لها، فلا يتصور أن يرد فى كل حادثة نص، اى أن النصوص متناهية، والحوادث والوقـائع غير متناهية لذلك كان الاجتهاد بالقياس واجب.

الآية التى عقب القرآن بها على غزوة بنى النضير، فقال تعالى بعد ذكر الأسباب التى كانت وراء هلاكهم:

﴿ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾(*)

فجعلوا الآية دليلاً على القياس التشريعى... أما أسباب قيام وسقوط الحضارة فلم يكن لها من المساحة الفكرية والاهتمام ما تتطلبه»[1].

وقد أنفق الرسول قرابة الثلاثة عشر عامًا وهى الفترة التى قضاها فى مكة، فى إرساء العقيدة والتوحيد والإيمان فى نفوس المسلمين، وكانت هى المرحلة التى يمكن أن تسمى مرحلة بناء الذات الحرة الواعية، وهى الذات الضرورية لتحمل تبعات القيام بأعباء تأسيس الأمة، ونشر الدعوة والدفاع عنها، لذلك نجد أن الآيات المكية من القرآن هى الآيات التى تخدم البناء العقيدى والإنسانى والحضارى، بينما تأخرت آيات الأحكام إلى المرحلة المدنية، وذلك لأن «المعروف أن الحكم التشريعى إنما يجىء ثمرة للوجود والبناء الإسلامى. بمعنى أن الحكم التشريعى لا ينشئ المسلم، ولا ينشئ المجتمع، وإنما ينظمه ويحميه، ولعل ذلك كان سبب تأخر الآيات التشريعية إلى الفترة المدنية؛ لتكون ثمرة لوجود فرد وجماعة وأمة وحضارة... أما أن يكون الحكم التشريعى هو الأول والآخر، فاعتقد أنه منهج

القياس هو إلحاق أمر لا نص فيه ولا إجماع، بآخر منصوص حكمه أو مُجمع عليه، وتطبيق حكمه عليه لاشتراكهما فى العلة التى شرع من أجلها، فالمراد بالقياس إظهار أن حكم الله فى الفرع، هو حكمه فى الأصل المقيس عليه.

قاس الإمام على حد الشرب على حد القذف، فالقرآن والسنة لم يبينا حد السكر. فلما استفتى عمر ابن الخطاب عليًا فى حد السكر قال: «من سكر هذى، ومن هذى قذف».

كذلك قاسوا المريض على الغضبان فحرموا على أولهما كما حرموا على ثانيهما أن يقضى (أى يجلس مجلس القاضى ليحكم) قياسًا على قول الرسول ﷺ: «لا يقضين حكم بين اثنين وهو غضبان» [صحيح] البخارى فى: الأحكام [٧١٥٨].

فالتفسير فى الآية ﴿ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ أُخذ كدليل على حجية القياس فى التشريع (حين طلب الحق - تبارك وتعالى - بالاعتبار من أسباب إهلاك بنى النضير والقياس على حالهم لتجنب نفس المصير).

( ) الآية (٢) سورة الحشر.

(١) كيف نتعامل مع القرآن. محمد الغزالى فى مدارسة أجراها أ/ عمر عبيد حسنة، المعهد العالمى للفكر الإسلامى. سلسلة قضايا الفكر الإسلامى (٥) - الوفاء للطباعة والنشر، ط١ (١٩٩٢) صـ٦٣

خاطئ فى النظر إلى القرآن والتعامل معه، على أهمية الفقه التشريعى، وأهمية معرفة الحلال والحرام»[1].

أصبح كل شىء يفسر من خلال الحكم التشريعى، وتقدم الحكم التشريعى وتضخم وتقزم ما عداه - على الرغم من أهميته الهائلة - حتى انقلبت الوسيلة إلى غاية. ولا شك أن الإسلام فى جملته بقى بين المسلمين، لكن الحكام تبنوا منه ما لايصادم مصالحهم، وعندها انفصل العلم عن الحكم، وتوارى بعيدا فى تجريدات ذهنية، مكتفيًا بالتعليق على الأمور من بعيد، حتى إن الحسن البصرى الذى حضر زمن سيدنا على بن أبى طالب قبل وفاته، وشاهد ما حدث للخوارج من تنكيل وبطش ومذابح «لما قيل لـــه: لص مأخوذ إلى الحاكم، قال: سبحان الله، سارق السر يسعى به إلى سارق العلانية»[2]، أنه يرى أن الحاكم لص مستغل فى العلن، وأن اللص الصغير يساق إلى اللص الكبير، لقد انكمش الاعتراض إلى تلميح، واستبدلت بالعبارة الإشارة، وذلك لانفصال العلم عن الحكم، كرد فعل للبطش القاسى من الحكام.

وحتى الأئمة الأربعة أبى حنيفة[3] ومالك[4] والشافعى[5] وابن حنبل[6]، وهم فقهاء، وقد التزموا جانب الفقه التشريعى، وحاولوا تجنب التصادم مع نظم الحكم فى أزمانهم، واستفاضوا فى شروح العبادات والمعاملات على النحو الذى وصل إلينا،

---

(١) المصدر السابق، صـــ٦٣

(٢) المصدر السابق، صـــ٦٦.

(٣) أبو حنيفة: النعمان بن ثابت، فقيه أهل العراق، وإمام أصحاب الرأى. قال مكى بن إبراهيم: كان أعلم أهل زمانه. مات سنة (١٥٠هـــ). طبقات الحفاظ ص [٨٠-٨١] ط دار الكتب العلمية.

(٤) مالك: ابن أنس، شيخ الأئمة، وإمـــام دار الهجـــرة، قـــال الشافعى: إذا جاء الأثر فمالك النجم. مات سنة (١٧٩هـــ) تذكرة الحفاظ ١/٢٠٧ ط دار الكتب العلمية.

(٥) الشافعى: محمد بن إدريس بن العباس، نزيل مصر، إمام الأئمة، وقدوة الأمة. قال الإمام أحمد: إن الله - تعالى - يقيض للناس فى رأس كل مائة سنة من يعلمهم السنن، وينفى عن رسول الله ﷺ الكذب، فنظرنا فـــإذا فى رأس المائة عمر بن عبد العزيز، وفى رأس المائتين الشافعى. مات سنة اربع ومـــائتين. طبقـــات الحفـــاظ ص (١٥٧-١٥٨) مرجع سابق.

(٦) ابن حنبل: أحمد بن محمد بن حنبل البغدادى، الإمام الشهير صاحب «المسند» و«الزهد»، وغير ذلك. قـــال الإمام الشافعى: خرجت مـــن بغـــداد فمـــا خلفـــت بهـــا أفقه ولا أزهد ولا أروع ولا أعلم منه. مـــات سنة (٢٤١هـــ).

لم يسلموا من بطش الحكام، وساءت علاقاتهم بالحكام على الرغم من محاولاتهم لتجنبهم، فقد مات أبو حنيفة - رحمه الله - فى السجن، وعذب ابن حنبل فى محنة خلق القرآن بطريقة مفزعة، وكسرت ذراع مالك فى فتوى سياسية حين أفتى بأنه لا قيمة لإيمان التواطؤ على البيعة، أما الشافعى فتصف د. نعمات فؤاد ما واجهه بقولها: «لقد سبق محمد بن إدريس الشافعى فى القيد مع تسعة من العلويين (رجلا رجيلاً فى الرابعة والثلاثين مضبوط الكلمات، وكما سيوصف لبعض ملوك الشام فيما بعد - مقتصدًا فى لباسه، طويلاً سائل الخدين، قليل لحم الوجه، اسمر، حسن السمت، عظيم العقل، حسن الوجه، حسن الخلق، مهيبًا فصيحًا)، وضربت الأعناق فى قسوة ضارية لم ترحم الحدث العلوى الذى لم يمهل حتى ولو دقائق ريثما يكتب إلى أمه. وفى أهوال الكرب، تقدم الشافعى فصار فى مواجهة الرشيد بعد كل ما رأى، فلم يفقد اتزانه فزعًا، أو غضبًا أو يأسًا، فلم يتخل عن رباطة جأشه، أو يغير رأيه، فبده قاضيه بردعة دفاعه، وهو عالى الرأس، هادئ النفس، والموت حائم يتخطف وينجو الشافعى بشهادة القاضى، فينجو بنجاته ذخر زاخر من اللغة والأدب والشعر فضلاً عن علوم الدين»[1].

قبول الأمر الواقع، دفع الفقهاء إلى مزيد من الانكباب والاستفاضة فى شروح العبادات والمعاملات على النحو الذى وصل إلينا، وتجمد الفقه السياسى والدستورى، وفقه العلاقات الاقتصادية والمالية، «وكان من الممكن أن ينكشف ضرر هذا المسلك لو أنه حدثت عودة إلى دولة الخلافة، لكن الذى حصل أنه جاءت الدولة العباسية بعد الدولة الأموية، فوقع فى نفوس الناس يأس من أن يحقق الإسلام بمفهومه الكامل مائة بالمائة، فاكتفوا بتحقيق الناحية الفرعية فى فقهه، والناحية العبادية الفردية، وتأثرت السياسة الإسلامية تأثرًا واضحًا، وانهزمت الشورى انهزامًا واضحًا، ووقع للأمة ما وقع»[2].

ويستطرد الشيخ الغزالى قائلاً: «وقد ترافق هذا العجز أيضًا - عند الفقهاء المتأخرين عن تعدية الرؤية حتى فى الإتيان بمثال غير ما أتى به الأقدمون»[3].

---

(١) من عبقرية الإسلام، د. نعمات أحمد فؤاد، دار المعارف، ١٩٨٣م، صـ٩٠.

(٢) كيف نتعامل مع القرآن، الغزالى، مرجع سابق، صـ٦٥.

(٣) المرجع السابق، صـ٦٣.

لا يعنى ما سبق، ولا يجب أن يعنى أو يتبادر إلى الذهن أن فى ذلك تقليلا أو محاولة للإقلال من تأثير الحضارة الإسلامية الهائلة على مسيرة البشرية، وعلى الغرب الذى تسيطر حضارته على العالم منذ ثلاثة قرون وإلى الآن، حيث تقول الألمانية «سيجريد هونكه» فى كتابها (شمس الله على الغرب): «لم يعد سرا أن مصر هى البلد الذى بزغ فيه فجر الضمير، ومنها أخذ اليهود ما أخذوا، وإن العرب ظلوا ثمانية قرون طوال يشعون على العالم علمًا وفنًا وأدبًا وحضارة، وأخرجوا أوروبـــا من الظلمات إلى النور»[1]، لكننا نركز فيما سبق على أسباب تضخم فقه العبادات، وانكماش ما عداه والذى لا يقل فى الأهمية لنشاط الإنسان كخليفة عن الله فى أرضه، لذلك تطورت مفاهيم الحرية، وعلاقات الحاكم والمحكوم فى الفكر الغربى - بعد أن تجمدت لدى المسلمين - خصوصًا بعد الثورات الديموقراطية الكبرى فى إنجلترا وفرنسا والولايات المتحدة الأمريكية، على أن ذلك لا ينفى حقيقة أننا «لسنا فى حاجة للخجل من هذا التاريخ، فقد كان هذا تاريخ الإنسانية بلا استثناء حتى مائتى عام أو ما يزيد قليلاً، يستوى فى ذلك الشرق والغرب، ومن هنا فلسنا فى حاجة إلى التبرير، ولا أن تأخذنا العزة بالإثم، فكما نحن متخلفون فى ميدان الصناعة، وفى ميدان العلم، فإننا كذلك متخلفون فى ميدان الحرية»[2]. لذلك لم يكتمل بناء تعريفات واضحة للحرية الفردية، وعلاقات الحرية بين السلطة والفرد فى التراث الإسلامى، أو يمكن القول بعدم وجود هذه التعريفات. وليس يعنى ذلك «أن المفكرين المسلمين لم ينشغلوا بعلاقة الحاكم والمحكوم، فالواقع أنها شغلتهم دائمًا، وإنما من خلال مفهوم آخر هو مفهوم العدالة، فالحاكم مخول بالحكم بشرط أن يكون عادلاً فى حكمه، ومن هنا شعار (العدل أساس الملك)» [3].

وعلى الرغم من إيمانى الشديد بأهمية تعارف الحضارات الإنسانية المختلفة، وحتمية تلاقح الأفكار وحوار الثقافات بين بنى البشر على اختلاف مشاربهم، ويقينى بأن الحكمة ضالة المؤمن، وأينما وجدها فهو أولى الناس بها، إلا أنه تولَّد

---

(١) من عبقرية الإسلام، د. نعمات فؤاد، صـــ١٤٧.

(٢) هل الحرية تراث للغرب وحده، د. حازم الببلاوى، جريدة الأهرام ٢٠٠١/٥/١٣م.

(٣) هل الحرية تراث للغرب وحده، المرجع السابق.

لدىَ نوع من الحساسية من كثرة ما نردد صارخين بأعلى صوت، كلما وصلت إلينا بعض الأفكار والتى هى بالضرورة والواقع من نتاج الغرب العقلى، بعد أن اعتصر فيه المفكرون الغربيون عصارة أرواحهم وقلوبهم «هذا كله لدينا، انظروا إنه فى تراثنا، إنها بضاعتنا ردت إلينا...!!»، فإذا كان الأمر كذلك – وهو دائما كذلك – ففيم انتظارنا حتى يقدمه الغرب إلينا؟ ولكن لابد مما ليس منه بد.

سوف أبدأ بالاستعانة بأصناف الحرية طبقًا لآراء وتقسيمات بعض المفكرين الغربيين – لغياب المثيل لدينا – ثم ننظر إلى صدى تلك التصنيفات داخل كتاب الله العزيز.

– قسَم (ايزمان)[١] الحرية إلى:

حرية فردية مادية وتشمل:

* سلامة البدن
* الأمن
* الملكية والصناعة والتجارة
* حرمة المسكن
* سرية المراسلات

حرية فردية معنوية وتشمل:

* حرية العقيدة
* حرية الآراء
* حرية الاجتماع
* حرية الصحافة
* التعليم
* تكوين الجمعيات

– أما (هوريو)[٢] فقد قسمها إلى:

حرية الحياة الخاصة

* حرية البدن
* حق الأمن
* حق التنقل
* حق العمل

حريات روحية

* حرية التعليم
* حرية الصحافة
* حرية الاجتماع

حريات أخرى

* حرية تأليف النقابات
* والجمعيات والشركات
* وتكوين الطوائف

(١) النظرية السياسية الإسلامية فى حقوق الإنسان الشرعية – دراسة مقارنة، د. محمد أحمد فضى، د. سامى صالح الوكيل. كتاب الأمة (٢٥) صـ٤٣.
عن حرية الرأى فى الميدان السياسى. د. أحمد جلال حماد. دار الوفاء. ١٩٨٧م، صـ٣٥-٣٨.
(٢) المرجع السابق.

– وقد فرق (دوجى)[1] بين:

حريات سالبة	**حريات ايجابية**
وهى التى تشكل قيودًا على الدولة	وتشمل خدمات الدولة للمواطنين

– وقد نحا (جلينك)[2] نفس المنحى:

*حقوق الأفراد ذات العنصر النشط	*حقوق الأفراد ذات العنصر السلبى
وهى حق المرء فى سؤال دولته تقديم خدمات إيجابية له	وهى الحريات الفردية المقيدة لسلطة الدولة

نخلص مما سبق إلى أن أصناف الحرية التى توصل إليها الفكر الغربى، هى لا على سبيل الحصر، فالفكر الإنسانى لا ينفك يأتى بالمزيد.

١ – حرية العقيدة والاعتقاد.

٢ – حرية الفكر.

٣ – حرية الاختلاف.

٤ – حرية السؤال، وحرية المجادلة، وحرية المناقشة، وحرية إبداء الرأى، وحرية الاجتهاد، وواجب الشورى.

٥ – حق العمل، وحق المرء فى سؤال دولته تقديم خدمات لـــه.

٦ – حق التنقل والانتقال.

٧ – حرية الاجتماع وتكوين الجمعيات والنقابات والشركات.

٨ – سلامة البدن وحق الأمن، وحرمة المسكن وسرية المراسلات.

وسنتحدث عن حريتين إضافيتين، أضافهما الإسلام إلى حريات الفرد والجماعة وهما:

٩ – حرية الدعاء وحق الاستجابة.

١٠ – حق الخطأ وحق المغفرة – واجب المحاولة.

---

(١) المرجع السابق.

(٢) المرجع السابق.

ما هو معنى العقيدة لغة ؟ (عقد) الحبل والبيع والعهد (فانعقد). و(اعتقد) كذا بقلبه، و(المعاقدة) المعاهدة[١]. وليس لـه (معقود) أى عقدُ رأى. وما معنى الدين لغة؟ (الدين) بالكسر: العادة والشأن، و(دانه) يدينه (دينا) بالكسر: أذلـه واستعبده (فدان)، وفى الحديث: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت»[٢] و(الدين) أيضًا: الجزاء والمكافأة يقال: (كما تدين تدان) أى كما تُجازى تجازى بفعلك وبحسب ما عملت. و(الدين) أيضًا: الطاعة تقول: (دان) لـه (يدين) (دينًا) أى أطاعة ومنه (الدين) والجمع (الأديان) ويقال (دان) بكذا (ديانةً) فهو (دينٌ) (وتدين) به فهو (متدين) (ودينه تديينا) وكَلَهُ إلى دينه[٣].

العقيدة إذن هى رأى أو عهد تعتقده وتتعهده قلبيًا، وتصبح دينًا عند الطاعة لمتطلبات العقيدة وتنتظر عليه الجزاء والمكافأة. الدين إذن هو عقيدة قلبية، والطاعة فى أداء الأعمال التى تتطلبها تلك العقيدة. ولهذا فإن العقيدة «هى الجانب النظرى الذى يطلب الإيمان (محله القلب) أولاً وقبل كل شيء .. وهى أول ما دعا إليه الرسول وطلب من الناس الإيمان به فى المرحلة الأولى من مراحل الدعوة»[٤]، أما الأعمال التى تتطلبها العقيدة والمطلوب الطاعة فى أدائها فهى الشريعة أى «النظم التى شرعها الله أو شرع أصولها ليأخذ الإنسان بها نفسه فى علاقته بربه، وعلاقته بأخيه المسلم، وعلاقته بأخيه الإنسان، وعلاقته بالكون وعلاقته بالحياة»[٥]. العقيدة محلها القلب، والعمل بالشريعة هو الدليل على صحة الاقتناع بالعقيدة. الدين هو عقيدة وشريعة، فالعقيدة فى الوضع الإسلامى هى «الأصل الذى تبنى عليه الشريعة، والشريعة أثر تستتبعه العقيدة»[٦]. الإسلام يحتم تعانق العقيدة والشريعة، «وقد عبر القرآن عن العقيدة (بالإيمان) وعن الشريعة (بالعمل الصالح)[٧]» مثل

(١) مختار الصحاح. المطبعة الأميرية، ١٩٢٢. صـ٤٤٤. ٤٤٥.
(٢) [ضعيف] ابن ماجه فى : الزهد [٤٢٦٠].
(٣) المرجع السابق، صـ٢١٨.
(٤) الإسلام عقيدة وشريعة. محمود شلتوت. دار الشروق. ط١٨ (٢٠٠١)، صـ١٠.
(٥) المرجع السابق. صـ١٠.
(٦) المرجع السابق. صـ١١.
(٧) المرجع السابق، صـ١٠.

قولـــه:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴾[1].

وقولـــه:

﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾[2].

فإذا صح لدينا الزعم أن الحرية هى الشرط الأساسى لخلق الإنسان والكون، وهى القاعدة للعلاقة بين الخالق ومخلوقاته، وإذا كان المعتقد هو القطب الذى تدور حولـــه حياة صاحبه، فمن المنطقى أن يقول الحق - تبارك وتعالى - فى شأن الدين: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ﴾.

لا سلطان لأحد على قلب الإنسان، فقد تستطيع قوة ما أن تكره الإنسان على أن يفعل ضد رغبته ما تريده منه، لكن لا توجد قوة على الأرض قادرة على أن تجبر الإنسان أن يحب أو يكره بدون رغبته. لا يمكن أن تكره إنسانًا على أن يعتقد شيئًا بقلبه، ما لم يكن راغبًا فى ذلك «والإسلام حينما يطلب من الناس أن يؤمنوا بتلك العقائد لا يحملهم عليها إكراهًا؛ لأن طبيعة الإيمان تأبى الإكراه، ولا يتحقق إيمان بإكراه»[3]. من غير المسموح بالإكراه، ولا مجال لـــه:

﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾[4].

انظروا معى إلى الآية السابقة، لو أراد الله لآمنت كل البشرية (كلهم جميعًا) انظر إلى كلمتى (كلهم جميعًا)، لكن الأصل هو الحرية بدون إكراه على الإيمان. والعكس أيضًا صحيح، لا يهم القول أو الفعل إذا صدر نتيجة إكراه، طالما أن القلب - وهو قدس الأقداس - عامرٌ بالعقيدة:

﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ

---

(١) الآية (١٠٧) سورة الكهف.

(٢) الآية (٩٧) سورة النحل.

(٣) الإسلام عقيدة وشريعة، مرجع سابق، صـــ١٨.

(٤) الآية (٩٩) سورة يونس.

﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[1]،

ووافق الرسول عمار بن ياسر[2] وهو تحت التعذيب عندما اضطر تحت وطأه الألم أن ينطق بالكفر، وقال لـــه: «إذا عادوا فعد»، أى إذا عادوا لتعذيبه، فلا ضير أن يعود إلى نطق ما يرغبون فلا حساب على المكره. حتى الغانيات اللائى كن يعملن بالبغاء تحت ضغوط وإكراه السادة زمن دعوة الرسول قال فيهن الحق - تبارك وتعالى -:

﴿وَلَا تُكْرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُواْ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[3]،

الكبائر الناتجة عن الإكراه لا تقابل إلا بالمغفرة والرحمة.

القلب محل النظر من الحق - تبارك وتعالى - لأنه هو المحرك لكل أعمال الإنسان الحر لذلك يقول الله - تبارك وتعالى -:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾[4]،

وحديث الرسول «**إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى**»[5] يدل على خطورة وأولوية الموقف القلبى. ولا يفوتنا هنا أن نذكر أن الإسلام لا يكتفى بالموقف القلبى وإن كان سليمًا فلابد من العمل فالإيمان «**ما وقر فى القلب وصدقه العمل**»[6] وذلك لتعانق العقيدة والشريعة. الحق - تبارك - يطلع على القلوب، والإنسان حر فى أن يتعهد بقلبه ما يشاء ويقول الله - عز وجل -:

---

(١) الآية (١٠٦) سورة النحل.

(٢) عمار بن ياسر. صحابى جليل، أسلم قديمًا، وكان من المستضعفين الذين يعذبون بمكة، ليرجعوا عن دينـــهم، شهد بدرًا وأحدًا، وجميع المشاهد مع رسول الله ﷺ وسماه الطيب المطيب. قتل مع على بـــ «صفين» سنة سبع وثلاثين. صفة الصفوة ج١ صـــ ١٣٩-١٤٠، ط دار ابن خلدون.

(٣) الآية (٣٣) سورة النور.

(٤) الآية (٢٠٤) سورة البقرة.

(٥) [صحيح] البخارى فى: بدء الوحى [١].

(٦) [صحيح] الكامل فى الضعفاء لابن عدى [٦ / ٢٢٩٠].

﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ ﴾[1]

ويقول الزمخشرى فى تفسير هذه الآية «وقيل معناه أنه يطلع على كل ما يخطره المرء بباله لا يخفى عليه شيء من ضمائره فكأنه بينه وبين قلبه»[2].

ولهذا لا محل أيضًا لأى سيطرة على المخلوق، دور الداعى يقف عند التذكره، ولا يتعدى ذلك إلى أى نوع من الوصايه أو السيطرة:

﴿ فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ۝ لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ ﴾[3].

المعجزات لا تكفى لحمل بعض الناس على التصديق

لابد للإرادة الحرة المختارة الواعية للإنسان أن تنفعل بالقبول والموافقة والاطمئنان، وبذلك يحدث الاقتناع، حيث لا ينفع الإكراه والضغط والسيطرة، وكانت المعجزات للأنبياء أداة للاقناع عن طريق خرق الناموس الطبيعى، حتى يشعر المشاهد أن النبى أو الرسول مؤيد من قوة عليا مريدة فاعلة ذات طلاقة للقدرة لا يحدها حدود، وقد أتت هذه المعجزات فى بعض الحالات بناء على طلب المعاندين، فقد طلبوا من صالح أن يخرج لهم ناقة من صخرة صماء ففعل، حيث يقول القرآن:

﴿ وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ ﴾[4].

وعلى الرغم من طلبهم للمعجزة ومن تحذيرهم من إيذاء الناقة إلا أنهم ...

﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖۖ ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ ﴾[5]

فحتى المعجزة لا تجدى مع من لا يريد التصديق، وفى ذلك دليل على المدى

---

(١) الآية (٢٤) سورة الأنفال.

(٢) كشاف الزمخشرى، ط٢، المطبعة الأميرية، بولاق ١٣١٨هـ، صـ١٠.

(٣) الآيتين (٢١، ٢٢) سورة الغاشية.

(٤) الآية (٦٤) سورة هود.

(٥) الآية (٦٥) سورة هود.

البعيد لحرية الإنسان فى الرفض والقبول. من لا يريد الاقتناع، فلن يعدم الوسيلة للتملص من الآية (المعجزة) بحجة أو برهان تبرر لـــه عدم الانقياد، يقول القرآن الكريم:

﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ۝ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾[1]

لذلك عندما طلبوا الآية (المعجزة) من الرسول ﷺ جاء الرد:

﴿ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْأَيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾[2]

وغالوا فى طلباتهم أيضًا:

﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ۝ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ۝ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلاً ۝ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولاً ﴾[3].

المعجزات التى أتت للإقناع عن طريق إدهاش العقل وتخطيه لم تُجْدِ مع من لا يريد، لذلك يقول القرآن لمحمد ﷺ :

﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْأَيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْأَيَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴾[4]

(١) الآيتين (١٤، ١٥) سورة الحجر.
(٢) الآية (٥٠) سورة العنكبوت.
(٣) الآيات (٩٠-٩٣) سورة الإسراء.
(٤) الآية (٥٩) سورة الإسراء.

الإيمان الاختيارى هو المطلوب

لقد بلغت البشرية الرشد، وبين يديك الآن القرآن وهو معجزة باقية، وأنت حر فى الاختيار، «لقد ألحوا فى طلب الآيات (المعجزات) المادية التى (تدهش) العقل وتذهبه وتوقف فعالياته؛ لأنهم كانوا على درب آبائهم وأممهم السابقة يسيرون، ولكن الإسلام لم يستجب لطلبهم هذا؛ لأنه كان إيذانا بطور جديد من أطوار ارتقاء الإنسانية بلغت فيه سن الرشاد»[1]. والله قادر على إنزال آية تصيب الإنسان بالاندهاش، وتجعله مشدوهًا لايملك التكذيب إلى قيام الساعة، حيث يقول:

﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَـٰقُهُمْ لَهَا خَـٰضِعِينَ﴾[2]

لكن الإسلام يأبى «أن يحملهم عليها (الإيمان بالعقائد) عن طريق الخوارق الحسية التى يدهش بها عقولهم ويلقى بهم فى حظيرة الاعتقاد دون نظر واختيار. والمعنى فى الآية السابقة: «إنا لانشاء ذلك، لأنا نريد منهم إيمانًا عن تقبل واختيار»[3]. لا يريد الله (أعناقًا خاضعة) بل يريد إرادة حرة واعية متقبلة عن طريق البرهان الذى يملأ القلب، ويشعل فيه شرارة العشق.
ما أجمل الحرية فى الاعتقاد.

حرية الاعتقاد تعلو على خصوصية العلاقات

يهتم الإسلام بالأسرة حيث إنها وحدة البناء للمجتمع، وحيث إن الزواج هو أصل الأسرة، فالإسلام يعتنى بالزواج عناية كبيرة، وينسحب ذلك أيضًا على كل الأديان السماوية. ارتفع القرآن بالعلاقة بين الزوجين من الحب المشتعل، والعاطفة المشبوبة، والولـــه المتأجج، والذى باختلاطه بعصارة الكفاح المشترك، ومسئولية الالتزام، وفرح الإنجاز، ومرارة الفشل والخلاف، وتقلبات الزمن، يتحول إلى حب عميق فى هدوء، ورحب فى سكون، وفياض بلا صخب، يرتفع الحب إلى مودة ورحمة:

---

(١) فى المنهج الإسلامى، د. محمد عمارة، سلسلة المنهجية الإسلامية (٤)، ط١، ١٩٩١م، صـــ٤٤.
(٢) الآية (٤) سورة الشعراء.
(٣) الإسلام عقيدة وشريعة، مرجع سابق، صـــ٢٠، ٢١.

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾[1]

الزوجة هى السكن والسكينة، هى الأم التى جُعلت الجنة تحت أقدامها[2]، هى محور الأسرة وروحها. وعندما تصل الأمور إلى حيث لا مناص إلا الافتراق، ولا حل إلا بفصم عرى هذه العلاقة المقدسة، فانظر معى، كيف وصف القرآن رابطة الزواج، وكيف نعت شكل الالتزام، وعمق التداخل فى العلاقة، وكيف ينعى على من يهبط بذلك حتى عند الفراق، إلى مستوى المقايضات المادية يقول:

﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ۝ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴾[3].

تأمل معى: ﴿ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ﴾، أيضًا: ﴿ مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴾ لتعرف عمق وحرمة علاقة الزواج.

فى هذه العلاقة التى لا تتجاوزها فى الخصوصية والحرمة علاقة أخرى من العلاقات الاجتماعية التى تعرفها الخبرة الإنسانية، يبيح الإسلام الارتباط بأهل الكتاب، أى بزوجة ذات معتقد مختلف عن اعتقاد الزوج، ويبيح الإسلام لهذه الزوجة «الحق الكامل، والحرية التامة فى البناء على عقيدتها، والقيام بفروض عبادتها، والذهاب إلى كنيستها لأداء طقوسها، مادامت مقتنعة من تلقاء نفسها»[4].

هل بعد ذلك من مزيد فى حرية الاعتقاد؟

---

(١) الآية (٢١) سورة الروم.

(٢) ففى الحديث عن معاوية بن جاهمة السَّلمىّ أن جاهمة جاء إلى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله أردت أن أغزو، وقد جئت أستشيرك، فقال: «هل لك من أم؟» قال: نعم. قال: «فالزمها فإن الجنة تحت رجليها» [حسن] النسائى فى: الجهاد ج ٦ صـ١١.

(٣) الآيتان (٢٠، ٢١) سورة النساء.

(٤) الإسلام عقيدة وشريعة، مرجع سابق، صـ٤٦.

حرية الاعتقاد تعلو حتى على العواطف الإنسانية

تتسع الحرية فى الاعتقاد أيضًا، إلى المدى الذى يصل بالداعى إلى دعوة ما، إلى أن يقبل حرية الآخر فى القبول أو الرفض، وأن تكون الحرية للطرفين من الرحابة والامتداد، حتى إن على الداعى ألا يحزن فى نفسه، ولا يتحسر ولا يغضب على أن الآخر قد فوت فرصة الاقتناع بما يعرضه الداعى وبما يرى الداعى أنه خير له، وكان القرآن يسرى عن الداعى - صلى الله عليه وسلم - قائلاً:

﴿ فَلَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾[1].

والبخع: هو قتل النفس غمًا، ويقول لـــه:

﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾[2]

واعتراف وإيمان المسلم بالأديان السماوية السابقة، وعلاقات المسلمين باليهود والنصارى، وشواهد التاريخ الإسلامى - باستثناءات تؤكد القاعدة - لا تحتاج إلى مزيد من القول على الحرية التامة التى يكفلها الإسلام فى العقيدة، وفى الاعتقاد. وإذا كانت هناك حرية فى الإيمان ﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن ﴾[3]

فهناك أيضًا حرية حتى فى الكفر

﴿ وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ ﴾[4].

عقوبة الردة فى الإسلام

إذا كان الأمر كما أسلفنا فلماذا عقوبة الردة فى الإسلام؟ فنبدأ بالآتى:

«مسلك الشريعة فى تقرير العقوبة الدنيوية[5]:

سلكت الشريعة فى تقرير العقوبة الدنيوية مسلكين بارزين:

---

(١) الآية (٦) سورة الكهف.

(٢) الآية (٨) سورة فاطر

(٣) الآية (٢٩) سورة الكهف

(٤) الآية (٢٩) سورة الكهف

(٥) الإسلام عقيدة وشريعة، مرجع سابق، صـــ٢٨٠.

المسلك الأول: العقوبة النصية

المسلك الثانى: العقوبة التفويضية (التعزير).

المسلك الأول: العقوبة النصية

نص فى القرآن أو السنة على عقوبات محددة لجرائم معينة، هى من عموم الجرائم بمنزلة الأمهات، نظرا على دلالتها على تأصل الشر فى نفس الجانى، وإلى شدة ضررها فى المجتمع، وإلى حرمة ما وقعت عليه فى الفطر البشرية. ومنها الجريمة الآتية:

عقوبة الاعتداء على الدين بالردة

الاعتداء على الدين بالردة يكون بإنكار ما علم من الدين بالضرورة[١]، أو ارتكاب ما يدل على الاستخفاف والتكذيب. والذى جاء فى القرآن عن هذه الجريمة هو قولـــه – تعالى:

﴿ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾[٢].

والآية كما ترى لا تتضمن أكثر من حكم بحبوط العمل، والجزاء الأخروى بالخلود فى النار.

أما العقاب الدنيوى لهذه الجناية وهو القتل فيثبته الفقهاء بحديث يروى عن ابن عباس – رضى الله عنهما – قال: قال رسول الله ﷺ «**من بدل دينه فاقتلوه**»[٣].

هناك من يقول إنه «ثبت بالسنة أن المرتد عن الإسلام متى ثبت فعله يقتل حدًا، وأن الدولة مسئولة عن استتابته وردعه عن ذلك، فقد روى البخارى: أن أبا موسى الأشعرى[٤]، قدم عليه معاذ بن جبل[٥] باليمن، وإذا برجل موثق فقال: ما هذا؟ قال:

---

(١) المعلوم من الدين بالضروة: هو الذى يتكرر ويكثر وقوعه مثل الصلوات الخمس.

(٢) الآية (٢١٧) سورة البقرة.

(٣) انتهى الاقتباس رقم (٥) الصفحة (٤١) والحديث [صحيح] رواه البخارى فى: استتابة المرتدين [٦٩٢٢].

(٤) أبو موسى الأشعرى: عبد الله بن قيس، صحابى جليل، وكان عالمًا صالحًا تالـــيًا لكتاب الله، وكان إليه المنتهى فى حسن الصوت. مات سنة (٤٤هـــ). تذكرة الحفاظ ج١ صـــ٢٣-٢٤، مرجع سابق.

(٥) معاذ بن جبل، العالم الربانى، شهد بدرًا والمشاهد. قال ابن مسعود كنا نشبه معاذا بإبراهيم عليه السلام. مات سنة (١٨هـــ). تذكرة الحفاظ ج١ صـــ١٩-٢٢، مرجع سابق.

كان يهوديًا فأسلم، ثم تهود، قال: لا أجلس حتى يُقتل، قضاء الله ورسوله (ثلاث مرات) فأمر به فقُتل»[1]. وعن أبى عمر الشيبانى قال: «أتى على بن أبى طالب[2] بشيخ كان نصرانيًا فأسلم، ثم ارتد عن الإسلام، قال فارجع إلى الإسلام قال لا فأمر على فضربت عنقه»[3].

وروى عن النبى عليه السلام قال: «**لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزانى، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة**»[4].

وروى عن ابن قدامه فى المغنى قال: «من ارتد عن الإسلام من الرجال أو النساء بالغًا عاقلاً دعى إليه .. فإن رجع وإلا قتل، لقوله عليه الصلاة والسلام «**من بدل دينه فاقتلوه**» رواه البخارى»[5].

«ويشترط لإقامة حد الردة التثبت من وقوع الردة، قال ابن تيمية رحمه الله: لا يجب أن يحكم على كل شخص بأنه كافر، حتى تثبت فى حقه شروط التكفير وتنتفى موانعه، مثل من قال: إن الخمر أو الربا حلال لقرب عهده بالإسلام، أو لنشوئه فى بادية بعيدة، أو سمع كلامًا أنكره، ولم يعتقد أنه من القرآن ولا أنه من أحاديث رسول الله ﷺ، فإن هؤلاء لا يكفرون حتى تقوم عليهم الحجة بالرسالة، وقد عفى الله لهذه الأمة عن الخطأ والنسيان..»[6].

كما أن إجراء حكم المرتد على من كان مسلمًا ثم ارتد عن الإسلام، بهدف تميز من نشأ على الكفر، أو ولد من أبوين مرتدين بعد ردتهم، فإن هؤلاء لا يعتبرون مرتدين.

ويقول آخر: «تعاقب الشريعة على الردة بالقتل؛ لأنها تقع ضد الدين الإسلامى، وعليه يقوم النظام الاجتماعى للجماعة، فالتساهل فى هذه الجريمة يؤدى إلى

---

(١) [صحيح] البخارى فى: استتابة المرتدين [٦٩٢٣].

(٢) على بن أبى طالب، أبو الحسن الهاشمى، قاضى الأمة، وفارس الإسلام، وختن المصطفى ﷺ، استشهد عام (٤٠هـ) تذكرة الحفاظ ج١ صـ١٠-١٣، مرجع سابق.

(٣) عن (النظرية السياسية الإسلامية فى حقوق ....) مرجع سابق، صـ١٠٤

(٤) [صحيح] البخارى فى: الديات [٦٨٧٨]، ومسلم فى: القسامة [١٦٧٦].

(٥) المرجع السابق.

(٦) فتاوى ابن تيمية جزء ٣٥ صـ١٦٦ - مرجع سابق، صـ١٠٥.

وفى كلامه إشارة إلى الحديث: «رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه». وسيأتى تخريجه.

زعزعة هذا النظام، ومن ثم عوقب عليها بأشد العقوبات استئصالاً وأكثر الدول اليوم تحمى نظامها الاجتماعى بأشد العقوبات، تفرضها على من يخرج عن هذا النظام، أو يحاول هدمه أو إضعافه، وأول العقوبات التى تفرضها القوانين الوضعية لحماية النظام الاجتماعى، هى عقوبة الإعدام أى القتل»(١).

هناك آراء أخرى فى عقوبة المرتد عن الدين نسرد بعضها فيما يلى:

.... وعن حديث «**من بدل دينه فاقتلوه**» (٢) يقول الإمام الأكبر محمود شلتوت:

«وقد تناول العلماء هذا الحديث بالبحث من جهات:

هل المراد من بدل دينه من المسلمين فقط، أو هو يشمل من تنصر بعد أن كان يهوديًا مثلاً؟

وهل يشمل هذا العموم الرجل والمرأة، فتقتل إذا ارتدت، كما يقتل إذا ارتد، أو هو خاص بالرجل، والمرأة لا تقتل بالردة؟

وهل يقتل المرتد فورًا أو يستتاب؟

وهل للاستتابة أجل، أو لا أجل لها فيستتاب أبدا ؟

ويستطرد الشيخ شلتوت قائلاً: وقد يتغير وجه النظر فى المسألة، إذا لوحظ أن كثيرًا من العلماء يرى أن الحدود لا تثبت بحديث الآحاد(*)، وأن الكفر بنفسه ليس مبيحًا للدم ، وإنما المبيح للدم هو محاربة المسلمين، والعدوان عليهم، ومحاولة فتنتهم عن دينهم، وأن ظواهر القرآن الكريم فى كثير من الآيات تأبى الإكراه على الدين»(٣).

ويقول الأستاذ فتحى رضوان(٤): «للشيخ عبد العزيز جاويش رأى فى عقوبة الارتداد عن الدين نورده هنا(**): (وظاهر من الآية الرابعة والخمسين فى سورة المائدة:

---

(١) التشريع الجنائى الإسلامى، عبد القادر عوده، صـ٦٦٣، عن فلسفة التشريع الإسلامى، فتحى رضوان، مرجع سابق، صـ٢٥٦.

(٢) سبق تخريجه.

( ) حديث الآحاد إذا روى الخبر واحد، أو عدد يسير لم يبلغ حد التواتر ولو فى بعض طبقاته.

(٣) الإسلام عقيدة وشريعة، لفضيلة الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت، مرجع سابق، صـ ٢٨١

(٤) من فلسفة التشريع الإسلامى، فتحى رضوان، مرجع سابق، صـ٢٥٧ وما بعدها.

( ) الإسلام دين الفطرة والحرية، صـ١٥٤.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ﴾.

الظاهر أن هذه الآية، لا تدل على معاملة أهل الردة، بما افتى به الفقهاء من القتل لمجرد الرجوع عن الدين، كما دلت على أن المرتدين مطرودون من رحمة الله – تعالى– ومعنى الردة هنا على ما يظهر من الآية ومن روح الكلمة أنه الارتداد عن الدين، أى الكف عن الجهاد فى سبيله، والارتداد عن منازلة الأعداء، الذين كانوا لا يفتأون يقاتلون الرسول واتباعه؛ ليفتنوهم عن دينهم، ويرجعوهم كفارًا بعد إذْ آمنوا، يدلك على هذا التأويل، ما جاء قبل ذلك من الآيات، قال – تعالى:

﴿ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ۝ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ قِتَالٖ فِيهِۖ قُلۡ قِتَالٞ فِيهِ كَبِيرٞۚ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفۡرُۢ بِهِۦ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَإِخۡرَاجُ أَهۡلِهِۦ مِنۡهُ أَكۡبَرُ عِندَ ٱللَّهِۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَكۡبَرُ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْۚ ﴾[1].

يستنبط من ظاهر هذه الكلمات الكريمة، أنها نزلت فى قوم من المسلمين، كانوا يهمون بالكف عن القتال، ويرغبون عن أن يدافعوا عن دينهم، وأن يبذلوا أموالهم وأرواحهم فى نصرته وتأييده بغضًا للقتال وضنًا بالأرواح، وما علموا لجهلهم أنه ليس وراء إخلادهم إلى العدو، وإعراضهم عن صده سوى أن يستذلهم ذلك العدو ويتعبدهم، وأن الموت الذى يفرون منه، ولا ريب ملاقيهم يشير إلى ذلك قوله – تعالى:

---

(١) الآيتين (٢١٦، ٢١٧) سورة البقرة.

﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا ......﴾ .

ثم قال: فالردة فى هذه الآية الكريمة ليست الفسوق عن العقائد الإسلامية لشبهة قامت بنفس المرتدين، لكنها ردتهم عن نصرة الإسلام، وتخلفهم بأنفسهم عن تأييده،....

ثم قال: وخلاصة رأينا فى ذلك أن القرآن الكريم، لم ينص فى آية ما على قتل المرتدين عن دين الإسلام، إلى دين آخر على النحو الذى شرحناه فى تفسير آيتى الارتداد السابقتى الذكر، وأما الأحاديث التى سردها البخارى واستدل بها على وجوب قتل المرتد فورًا، فليس شىء منها فيما نرى جاء نصًا فى القول بالقتل، ولا فى بيان حدود الردة وكنهها، والتعريف بها .. ويجمل بالباحث أن يتدبر المقدمات الآتية قبل استنباط حكم قاطع فى هذا الباب:

أولاً: القرآن ليس فيه نص قاطع على أن المرتد بالمعنى الذى يريده الفقهاء يقتل.

ثانيًا: أن لبدء ظهور الإسلام من الأحكام ما ليس لغيره، ذلك أن المرتدين عن الإسلام، يوم بدأ رسولنا الأكرم الدعوة إلى التوحيد كانوا يعودون إلى ما كانوا عليه من اليهودية أو النصرانية أو الوثنية، فكانوا إذ ذاك يلحقون بأقوامهم ويحاربون المسلمين فى صفوفهم، أو يظهرونهم على عوراتهم، فارتداد من كانوا يرتدون إذ ذاك عن الإسلام لم يكن لمجرد الخروج عن هذا الدين، ولكن كان دائمًا مشفوعًا بمظاهرة من يلحقون بهم من أقوامهم.

والمستقرئ لأحاديث المفسرين لا يكاد يجدها تخرج عما قلنا، بمعاملة رسولنا الأكرم وخلفائه من بعده للمرتدين، تلك المعاملة كانت فيما نرى لأنهم ينقلبون خائبين محاربين لله ورسوله وللمسلمين» انتهى كلام الشيخ جاويش.

وقد روى عن ابن عمر[1]، أن رجلاً جاء أثناء فتنة مقتل

---

(١) ابن عمر: عبد الله بن عمر بن الخطاب، أبو عبد الرحمن العدوى المدنى الفقيه، أحد الأعلام فى العلم والعمل، شهد الخندق، وهو من أهل بيعة الرضوان. مات سنة (٧٤هـ). تذكرة الحفاظ ج١ صـ٣٧-٤٠، مرجع سابق.

عثمان[1]، والحرب دائرة بين معاوية[2] وعلى كرم الله وجهه فقال له: يا أبا عبد الله ألا تصنع ما ذكر الله فى كتابه:

﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ﴾.

فقال ابن عبد الله: قد فعلنا على عهد رسول الله، إذا كان الإسلام ضعيفًا، وكان الرجل يفتن فى دينه، إما أن يقتلوه، وإما أن يوثقوه، حتى كثر الإسلام، فلم يكن فتنة. وجميع ما ورد من الأحاديث فى قتل الرسول لبعض النساء المرتدات فأسانيدها ضعيفة، بل قال ابن الطلاع فى الأحكام إنه لم ينقل عن الرسول أنه قتل مرتدة.

وخلاصة ما تقدم ولايزال القول للأستاذ/ فتحى رضوان:

١ – أن حد القتل فى الردة لم يرد فى القرآن.

٢ – أن حديث (من بدل دينه فاقتلوه) من أحاديث الآحاد، والحدود لا تثبت بأحاديث الآحاد[3].

٣ – أن المقصود بالردة، ليس مجرد تغيير الدين، والرجوع إلى الكفر، بل محاربة المسلمين ومحاولة فتنتهم.

٤ – أن الأحاديث المروية عن الرسول، وقتله نساء ارتددن، من الأحاديث المشكوك فيها.

٥ – أن قتل المرتد لا يتفق مع أحكام الإسلام وقواعده التى تأبى الإكراه، وتقيم عقيدتها على حرية الناس فى اختيار ما يأخذونه وما يدعون.

٦ – أنه إذا جاز حكم الإسلام فى أولى أيامه وهو بعد عقيدة جديدة، لم تظفر بأعدائها، ولم تستقر فى النفوس، ولم تتوافر لها القوة، وتجتمع لها المنعة، لم يجز بعد ذلك. انتهى.

---

(١) عثمان: ابن عفان، أبو عمرو الأموى، ذو النورين، ومن تستحى منه الملائكة، ومن جمع الأمة على مصحف واحد بعد الاختلاف، وكان من السابقين الصادقين، وممن شهد له رسول الله ﷺ بالجنة. قتل سنة (٣٥هـ) تذكرة الحفاظ ج١ صـ٨–١٠، مرجع سابق.

(٢) معاوية: ابن أبى سفيان صخر بن حرب القرشى الأموى، ولد قبل البعثة بخمس سنين، مات سنة (٦٠هـ) الإصابة ٦/ ١١٢–١١٤، ط دار الكتب العلمية، بيروت.

(٣) الحديث رواه ابن عباس وحده ولذلك فهو من أحاديث الآحاد

واستشهد الدكتور محمد سليم العوا فـي دراسـة (أصـول النظـام الجنـائى الإسلامى)[1]، بعدم وجوب قتل المرتد حدًا بما نقل عن بعض فقهاء السـلف مثـل إبراهيم النخعى[2] - بأن (المرتد يستتاب أبدًا) وقد رواه عنه سـفيان الثـورى[3]. واستشهد كذلك برواية عن عمر بن الخطاب[4]، أنه سئل عن قوم قتلوا بعد ردتهم، فقال: (كنت عارضًا عليهم الباب الذى خرجوا منه، أن يدخلوا، فإن فعلوا ذلك قبلت منهم، وإلا استودعتهم السجن). كذلك نقل عن عمر بن عبـد العزيـز[5] أن قومًـا أسلموا، ثم ارتدوا، فأمر برد الجزية عليهم، وتركهم. ومن ذلك يتوصل د. العـوا: «إن عقوبة المرتد هى عقوبة تفويضية (تعزيرية)، وليست عقوبة حد، وأنها عقوبة مفوضة إلى السلطة المختصة، تقرر بشأنها، ما تراه ملائمًا بين أنواع العقاب».

وننهى الكلام فى هذا المبحث برأى أخير يقول: «أما بخصوص الردة، فسينتهى الخلاف حول هذا الموضوع، إذا ما تبين للمسلم أنه لا عقاب للخروج عن الإسلام فى هذه الدنيا، وأنه لم يرد فى القرآن أو السنة ما يفيد ذلك. فالقرآن يذكر ١٣ حالة للخروج عن الإيمان، وفى كل هذه الحالات يشار إلى عقاب الآخـرة. فقـول الله تعالى: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾

يجب أن يحكم علاقة المسلم بالمسلم فى يومنا هذا!!![*]، ولا يقتصر وفق المفهوم القديم على علاقة المسلم بغير المسلم. ومن ينكر هذا يتجاهل أن

---

(١) أصول النظام الجنائى الإسلامى. دراسة مقارنة - القاهرة - دار المعارف (بدون تاريخ) صـ١٥٤. عـن النظرية السياسية ... الشرعية، مرجع سابق، كتاب الأمة. صـ١٠٧

(٢) إبراهيم النخعى: ابن يزيد بن قيس بن الأسود. أبو عمران. فقيه أهل الكوفة ومفتيها. مات سنة (٩٦هـ). طبقات الحفاظ صـ٣٦-٣٧. مرجع سابق.

(٣) سفيان الثورى: ابن سعيد بن مسروق، ابو عبد الله الكوفى، أحد الأئمة الأعلام. قال شعبة: سـفيان أمير المؤمنين فى الحديث. مات سنة (١٦١هـ). طبقات الحفاظ ص ٩٥-٩٦. مرجع سابق.

(٤) عمر بن الخطاب. أمير المؤمنين، أبو حفص العدوى. ومن أيد الله به الإسلام. وفتح به الأمصار، وهو الصادق المحدث الملهم. استشهد عام (٢٣هـ). تذكرة الحفاظ ج١ صـ٥-٨. مرجع سابق.

(٥) عمر بن عبد العزيز بن مـروان بن الحكم الأمـوى، أميـر المؤمنيـن، والإمام العادل، مات يوم الجمعـة سنة (١٠١هـ). طبقات الحفاظ صـ٥٣، مرجع سابق.

( ) علامات التعجب من عندى. وأنا أعنى الموافقة. وأتعجب من أن نضطر إلى التنظير لطلب مسـاواة معاملـة المسلم من المسلمين، بما يعاملوا به غير المسلمين.

﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾

تعنى أن ممارسة ضغوط وفرض أمور بعينها فى أمور تتعلق بالعقيدة، ما هى إلا محاولة فاشلة من الأصل.

فالقوة يمكن أن تجبر المسلمين فى بلد إسلامى على المحافظة علـــى القـــوانين كافة، إلا فى الأمور التى تتعلق حقًا بالنية. لقد تمت ملاحقة من خرج عن الإسلام فيما عرف بحروب الردة؛ لأن هؤلاء اقترفوا الخيانة العظمى ضد الدولة الإسلامية، برفضهم أداء الضريبة للدولة، وبمحاربتهم إياها ومقاومتهم الإسلام:

﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[١].

فحق قتالهم.

وعقوبة الخيانة العظمى، خاصة أثناء الحروب، بالإعدام أو القتل أمر متعارف عليه دوليًا، ولا يتعارض مع حقوق الإنسان» انتهى[٢].

والآن هل هناك شك فى كفالة الإسلام لحرية الاعتقاد وصيانتها بسياج محكم ضد الاعتداء على هذا الحق وعلى التكليف بهذه الحرية.

حرية الفكر

ف ك ر - (التَّفكر) التَّأمُّل[٣]، و(تأمَّل) الشىء نظر إليه مستبينا لـــه[٤]، والبيان أيضًا ما (يبين) به الشىء من الدلالة وغيرها، و(بان) الشىء يبين (بيانـــا) اتضـــح وكذا (أبان) الشىء فهو (مبين) و(أبنْتُهُ) أنا أى أوضحته[٥]. إذن الفكر هو متتابعـــة

---

(١) الآية (٣٣) سورة المائدة.

(٢) الإسلام فى الألفية الثالثة ديانة فى صعود. ط١، ٢٠٠١، تعريب عادل المعلم، د. مـــراد هوفمـــان، مكتبـــة الشروق الدولية، صـــ٩٩

(٣) مختار الصحاح - مرجع سابق، صـــ٥٠٩

(٤) مختار الصحاح - مرجع سابق، صـــ٢٥

(٥) مختار الصحاح - مرجع سابق، صـــ٧٢

من النظر ومحاولة الوصول إلى دلالة الشيء، ثم إيضاح واتضاح الدلالة، ثم الإفصاح والبيان حسب مقتضى الحال. وعندما نقول إن هذه المتابعة تبدأ بالنظر فنحن نعنى أن مسألة الفكر أو التفكير تبدأ بالإدراك الحسي. وذلك يعنى أن «الحواس الخارجية هى الأساس الأول لكل المعارف الإنسانية ومصدرها. ومن دون المعلومات الآتية من هذه الحواس لا يكون للذاكرة أى شيء تتذكره، ولا للخيال أى شيء يتصوره، ولا للعقل أى شيء يفهمه»[1]. السمع، والبصر، واللمس، والذوق، والشم هى حواس الإنسان وكل واحدة منها تدرك صفة محددة من صفات الأشياء المادية، الحواس هى مدخل المعلومات، وممر المعرفة لذلك أعتنى القرآن بضرورة استخدامها عناية فائقة؛ لأنها الخطوة الأولى فى عملية الإدراك والوصول إلى المعرفة والوعى، فلا غرو من ضرورة أن تسخر الحواس لذلك، ولذلك يحض القرآن ويحث الناس بشدة على ذلك التوجيه فيقول اللّه – تعالى:

﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴾[2]،

ويقول:

﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ۝ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴾[3]،

ويقول:

﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ۝ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ۝ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ۝ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۝ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ۝ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۝

---

(١) العلم فى منظوره الجديد روبرت م. أجروس، جورج ف. ستانسيو ترجمة د. كمال خلايلى عالم المعرفة ١٣٤ صـ٣١

(٢) الآيات (١٥-١٧) سورة الطارق.

(٣) الآيات (١٧-٢١) سورة الغاشية.

﴿وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ۝ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ۝ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾(١)،

ويقول أيضًا:

﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾(٢).

فيما سبق يوجب القرآن على الإنسان أن ينظر إلى عالم الطبيعة حوله، وإلى نفسه، وإلى الكون، والحيوان، والنبات، ويسمى النظر «حديث» لأنه مثل الحوار الجاد الذى يفضى إلى التأمل والمراجعة والتفكير، فالنظر من الإنسان المسئول يؤدى إلى الفكر الحر، الذى يؤدى إلى الاعتبار، وفى ذلك يقول الله - تبارك وتعالى - :

﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾(٣)،

والسمع أيضًا يلقى من العناية ما لا يحتاج إلى مزيد، وفى ذلك يقول القرآن:

﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾(٤)،

ويقول أيضًا:

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾(٥)،

ويقول:

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾(٦)،

وقد ضم فى الآية الأخيرة السمع والبصر. ويحب بعض الناس صنفًا من الطعام

---

(١) الآيات (٢٤-٣٢) سورة عبس.
(٢) الآية (١٨٥) سورة الأعراف.
(٣) الآية (٢) سورة الحشر.
(٤) الآية (١٢) سورة الحاقة.
(٥) الآية (٤٦) سورة الحج.
(٦) الآية (٣٧) سورة ق.

أو الشراب ويكره نفس الصنف آخرون، ويقبل بعضهم أصنافاً، ويفضلها آخرون، وذلك لاختلاف الذوق بين الناس، وحتى من تلك النقطة وهى نقطة التذوق واختلاف الناس فيها، يمسك بها القرآن من خلال متتابعة الفكر، لإثارة الفكر ( )، والوصول أيضًا إلى الجوهر والعبرة والقصد، انظر معى إلى أسلوب العرض، ومن أين يبدأ القرآن تسلسل الأحداث، لتجربة شخصية (التذوق) نمر بها آلاف المرات فى خبرتنا اليومية الحياتية، دون أن تستوقفنا للحظة واحدة، على ما فيها من دلالات تحتاج إلى أكثر من عمر الإنسان، للوصول إلى أعماقها، فيقول:

﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَـٰوِرَٰتٌ وَجَنَّـٰتٌ مِّنْ أَعْنَـٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[1]،

ولا مناص من أن تختم هذه الآية بكلمة يعقلون، فأنت تأكل أصناف الطعام، وبعضنا يفضل صنفاً منه والآخر لا يطيقه، وهذا يحب المانجو وذلك يفضل العنب، وكل ذلك ينبت من أراضٍ متجاورة، بل إن النخلتين تعطيان نوعين من البلح لكل منهما مذاق مختلف، والنخلتان لهما جذر واحد يخرج منه جذعان، وسقى بماء واحد، ولكل مذاق مختلف وشخصية متفردة فى الشكل والطعم.

والنظر مع الذوق يرتقى من مجرد التذوق للطعام والشراب، والحلو والمر، والبارد والساخن، إلى تذوق الجمال والتناسق والتماثل فى الطبيعة والمخلوقات بمختلف أصنافها. يحض القرآن على الذوق الجمالى فيقول عن الأنعام والحيوانات:

﴿ وَٱلْأَنْعَـٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَـٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَـٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[2]،

---

(١) الآية (٤) سورة الرعد.

(٢) الآيات ٥-٧) سورة النحل.

ونلاحظ هنا أن الجمال لا يأتى بمفرده، ولكن مع المنفعة، فالإسلام لا يعرف الجمال للجمال، والفن للفن، والعلم للعلم؛ لأن لكل شئ غاية. ويلفت القرآن أيضا النظر إلى الإحساس بالبهجة كانفعال بالجمال حين يقول:

﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ﴾[1].

يرتفع بالذوق إلى مستوى الإحساس بالجمال، وذلك مدخل من أهم وأخطر مداخل الفكر تأثيرًا، بل لقد وصل الجمال فى عصرنا هذا إلى درجة أنه أصبح «وسيلة من وسائل اكتشاف الحقيقة العلمية من ذلك مثلاً أن چيمس واتسون ( ) فى كتابه (اللولب المزدوج-) يذكر كيف أن الجمال هدى إلى اكتشاف التركيب الجزيئى لـــ (د ن أ) فيقول: كنا نتناول طعام الغداء، ويقول كل منا للآخر، إنه لابد من وجود تركيب على هذا الجمال وأقر جميع الحاضرين تقريبًا بأن تركيبًا فى مثل هذا الجمال لابد من أن يكون موجودًا»[2]. ويجمع أبرز علماء الفيزياء فى القرن العشرين على أن الجمال هو المقياس الأساسى للحقيقة العلمية. فالفيزيائى (ريتشارد فينمان) يرى «أن المرء يمكن أن يستبين الحقيقة بفضل جمالها وبساطتها» ويعلن هايزنبرج أن «الجمال فى العلوم الدقيقة وفى الفنون على السواء، هو أهم مصدر من مصادر الاستنارة والوضوح»[3]. بل إن الجمال يتحدى (الحقائق) ومن الأمثلة التوضيحية على ذلك، واللافتة للنظر ما نجده فى بحث علمى قدمه الفيزيائيان ريتشارد فينمان ومرى جيل مان عام ١٩٥٨ وعرضا فيه نظرية جديدة لتفسير التفاعلات الضعيفة. وكانت النظرية تناقض بشكل صارخ عددًا من التجارب. أما الجانب الرئيسى الجذاب فيها فكان الجمال. وقال العالمان: «إنها نظرية عالمية ومتناسقة وهى أبسط الإمكانات، مما يدل على أن تلك التجارب غير

---

(١) الآية (٦٠) سورة النمل.

(٢) العلم فى منظوره الجديد مرجع سابق صـــ٤٦ .

(٣) المرجع السابق عالم المعرفة ١٣٤ صـــ٤٦ عن:

صحيحة. لقد كانت هناك تسع تجارب تناقض النظرية وكلها بلا استثناء غير صحيحة. فإذا كانت لديك نظرية بسيطة تتفق مع سائر قوانين الفيزياء، ويبدو أنها تفسر فعلاً ما يحدث، فلا عليك إن وجدت كمية قليلة من البيانات التجريبية التى لا تؤيدها. فمن المؤكد تقريبًا أن تكون هذه البيانات غير صحيحة»[1]. ويعيب القرآن على الذى لا يستخدم حواسه، وينعى عليه ذلك؛ لأنه يسد الطريق على محفزات الفكر، ويغلق مجرى ومسارب الانفعال فيقول:

﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾[2]

الغفلة تهبط بخليفة الله إلى مرتبة دون الأنعام، ويقول أيضًا:

﴿ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾[3]

ويصف آخرين:

﴿ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴾[4]

ولا يقف الأمر عند الغفلة، فهناك صنف آخر من الناس يغلق الحواس متعمدًا لأنه لا يريد ولا يطيق أن تصل الأفكار إلى عقله، حتى لا يمارس ألم التفكير، وثقل الاختيار، وصعوبة البت والقرار، وفى ذلك اشتكى سيدنا نوح إلى ربه قائلاً:

﴿ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴾[5].

---

(١) المرجع السابق صـ٤٧ عن:

(٢) الآية (١٧٩) سورة الأعراف.
(٣) الآية (١٩٨) سورة الأعراف.
(٤) الآية (١٩٣) سورة الأعراف.
(٥) الآية (١٧) سورة نوح.

يسد أذنيه بأصابعه ويضع الثياب على عينيه فلا سبيل لوصــول الأفكــار، ولا مساحة للتواصل. وقد حدث ذلك مع الرسول ﷺ ، وفى ذلك يقول القرآن:

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ ﴾[1]،

ويقول أيضًا عن اليهود مع الرسول:

﴿ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ ﴾[2].

إن الذى يحول بين نفسه وبين التواصل والفكر والنقاش بإغلاق حواســه دون ذلك، فمن يستطيع أن يفعل أو يملك لــه شيئًا. الإنسان الذى تحمل أمانة الحريــة، إنسان مسئول، إنسان مكلف. وهذا الكائن المكلف المسئول، ينبغى لــه أن يتحــرك فى الحياة بأعلى درجات اليقظة، والتنبه، والملاحظــة، والامتصــاص، فالرســول يقول: «**الحكمة ضالة المؤمن**»[3] أى يظل يبحث عن الحكمة فى مظانها مادام حيًا، ومادام قلبه يدق داخل صدره، الحكمة ضالته هو، وعليه التماسها، وأينما وجــدها فهو أولى الناس بها، لذلك لابد أن تتفتح حواس الإنسان على أقصى وسعه، فيصبح كله أذنًا، وكله عينًا ...، وقد قال الله:

﴿ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ ﴾[4]،

لم يقل (ولكن الله ألف بين قلوبهم) ولكن قال: ﴿ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ﴾

فقد أصبحوا قلوبًا، أصبح كل واحد منهم قلبًا كبيرًا.

الكائن المكلف ذو حواس مرهفة، مستعدة للتلقى فى أية لحظة خوفًا من فــوات الفرصة؛ لذلك يقول الله تعالى:

---

(١) الآية (١٦) سورة محمد.

(٢) الآية (٤٦) سورة النساء.

(٣) كشف الخفاء ١/٤٣٥

(٤) الآية (٦٣) سورة الأنفال.

﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ ﴾[1]

لا يكفى الاستماع، المطلوب الإنصات أيضًا، ولذلك يوصف حالهم بأنهم:

﴿ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾[2]

أى عندما يتعرض لمحفزات الفكر، لا يسقط فى هوة الصمت المطبق، والظلام الحالك. الإنسان المكلف ذو الإرادة، يمشى بحواسٍ متحفزه، مستعدة للتلقى؛ لأن الحواس هى نقاط التماس مع الخارج. ولكن إضافة إلى تلك الحواس الخارجية هناك أيضًا «مجموعة كبيرة من ملكات الإحساس الداخلى نحن نملك القدرة على الإحساس باللون الأبيض، وبحلاوة الطعم والقدرة على إدراك الفرق بينهما. العين تدرك اللون الأبيض ولا تدرك الحلاوة، واللسان يدرك الحلاوة ولا يدرك اللون الأبيض. ويصدق القول على الفرق بين ارتفاع الصوت وارتفاع الحرارة؛ لذلك فإن لدينا حاسة داخلية تستطيع أن تدرك جميع الصفات التى تدركها الحواس الخارجية وأن تميز بينها»[3]. [لدينا أيضًا الذاكرة وهى القدرة على أن نستدعى أمورًا لم تعد حاضرة. التذكر شىء حاضر، على الرغم من أن الشىء الذى نتذكره ليس كذلك؛ إذ إن الإدراك الحسى قد زال على نحو ما، والذاكرة تستدعى الماضى، وتستطيع ترتيبه زمنيًا بشكل مدهش. أيضًا لدينا الخيال، حيث نستطيع أن نتصور الأشياء التى لا تدركها هذه الحواس كجبل من ذهب أو فيل بحجم البرغوث. الخيال بخلاف الذاكرة، يستخدم المعلومات الواردة من الحواس الخارجية بحرية وبطريقة إبداعية. لدينا أيضًا القدرة على الإحساس بالعواطف كالحب والغضب والفرح والخوف. والحيوانات تمارس معظم القدرات المذكورة حتى الآن. فما الفرق بينها وبين خليفة الله؟. فكما ذكرنا من قبل: النباتات تحرك نفسها، ولكنها لا تدرى إلى أين تمضى. والحيوانات تدرك إلى أين تمضى، ولكنها لا تعرف السبب. وخليفة الله لا يعرف

---

(١) الآية (٢٠٤) سورة الأعراف.

(٢) الآية (٧٣) سورة الفرقان.

(٣) عالم المعرفة ١٣٤، مرجع سابق، صـ٣١.

فقط إلى أين يمضى، ولكن يعرف لماذا يمضى أيضًا. والملكة التى تمكننا من فهم علل الأشياء تسمى العقل أو الفكر. وتسمى أيضًا: (سلطان العقل-)؛ لأننا بواسطتها نتعرف على علل الأشياء. وما من قوة حسية تستطيع أن تؤدى هذه الوظيفة. فاللسان، مثلاً يدلنا على أن البحر مالح، ولكنه لا يفسر لنا علة ملوحته[*]].

والعقل لغة هو الأمر والنهى، ويعنى المنع والربط. وفى ذلك يقول الأستاذ العقاد[1]: «العقل فى مدلول لفظه العام، ملكة يناط بها الوازع الأخلاقى أو المنع عن المحظور والمنكر، ومن هنا كان اشتقاقه من مادة (عقل) التى يؤخذ منها العقال. وتكاد شهرة العقل بهذه التسمية أن تتوارد فى اللغات الإنسانية الكبرى التى يتكلم بها مئات الملايين من البشر. فإن كلمة (مايند) وما خرج من مادتها فى اللغات الجرمانية تفيد معنى الاحتراس والمبالاة، وينادى بها على الغافل الذى يحتاج إلى التنبيه»[2]. وقد أوضحنا خصائص وملكات الإدراك فى العقل، ونضيف أن العقل فوق التصور وأعلى، وهو قوة إدراكية تفوق الخيال بكثير، فنظرية النسبية مثلاً تتحدث عن «الزمكان» أو متصل المكان والزمان وعن ذلك يقول وليم كوفمان عالم الفيزياء الفلكية ما نصه: «من المستحيل عمليًا أن نتصور متصل المكان والزمان الملتوى ذى الأبعاد الأربعة»[3].(وهو اندماج الزمان بالأبعاد الثلاثة للمكان وهى الطول والعرض والارتفاع) فحتى علماء الفيزياء لا يستطيعون تخيل المكان الرباعى الأبعاد، ولكن يمكن فهمه. لذلك يطلق على العقل أحيانًا اسم الفهم ( ) «لأن طبيعة الأشياء تكمن ( ) تحت صفاتها الظاهرية التى تفهمها الحواس. والفهم يستطيع لذلك أن ينفذ إلى العلة التى يرتكز

(*) ما بين العلامتين [ ] منقول من (عالم المعرفة ١٣٤) مرجع سابق، صـ٣١-٣٣ بتصرف.

(١) العقاد: عباس محمود، شاعر مجدد، ناقد، صحافى، ولد بأسوان، اشترك مع المازنى فى نقد أنصار الشعر القديم، وله سلسلة سير أعلام الإسلام. المنجد فى اللغة والأعلام صـ٣٧٦ ط دار المشرق، بيروت.

(٢) التفكير فريضة إسلامية، العقاد، مكتبة الأسرة، دار نهضة مصر، صـ١٠.

(٣) عالم المعرفة ١٣٤، مرجع سابق، صـ٣٤.

عليها الأثر الذى تدركه الحواس»[1]. توصل الحواس المحسوسات والأفكار والصفات إلى العقل الذى يملك كل ما تحدثنا عنه. هو السلطان، وهو الأعلى من كل الحواس الخارجية والداخلية، وهو الناقد، وهو الذى يرتب، ويصنف، ويبوب، ويختار، ويؤخر، ويعلل، ويقرب، ويستبعد، ويقبل، ويرفض. توجه الخطاب القرآنى إلى ذلك العقل بجميع أنواع الخطاب، والأمثلة، والنقاش... العقل هو الفكر وهو أداة التفكير. والعقل بالتفكير يرتقى من الإدراك كإدراك الوازع الأخلاقى وإدراك الأسباب والعواقب، إلى العقل الحكيم الذى امتلك ملكة (الحكم) واتصلت به ملكة (الحكمة)، حيث يعلم بما يحسن وما يقبح، وما ينبغى له أن يطلبه وما ينبغى له أن يأباه كما يقول الأستاذ العقاد. ويستطرد العقاد فى كتاب التفكير فريضة إسلامية قائلاً: «ومن أعلى خصائص العقل الإنسانى الرشد، ووظيفة الرشد فوق وظيفة العقل الوازع والمدرك والحكيم؛ لأنها استيفاء لجميع هذه الوظائف وعليها مزيد من النضج والتمام والتمييز بميزة الرشاد، حيث لا نقص ولا اختلال»[2]. يخاطب القرآن ذلك العقل قائلاً:

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[3].

ويقول:

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[4].

---

(١) المرجع السابق، صـ٣٤.

(٢) التفكير فريضة إسلامية، العقاد، صـ١٠.

(٣) الآية (١٦٤) سورة البقرة.

(٤) الآية (١٥١) سورة الأنعام.

ويقول أيضًا:

﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾[1]،

ويقول:

﴿ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[2].

فسمى العقل اللب. ويصف الحق - تبارك وتعالى - متتابعة الفكر فى هذه الآية:

﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[3].

من حاسة السمع إلى العقل الناقد، الذى يختار بين البدائل المختلفة، ويميز بين الخبيث والطيب، فيركم الخبيث بعيدًا، ويقبل الطيب، ثم يصنف الطيب ليصل إلى أحسنه، فيأخذ به ويتبعه، ولذلك سمى الله هذا الصنف من الناس أصحاب العقول أو أولى الألباب.

العبادات وسائل لغايات، فالقرآن يقول عن الصلاة:

﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ ﴾[4]

فالغاية القريبة للصلاة هى ردع الإنسان عن الفحشاء والمنكر، والغاية البعيدة هى قيام معنى دائم لوجود الله داخل ذاكرة الإنسان، يضبط كل أفعاله وأقواله، وحركاته وسكناته؛ لذلك يقول عنه الله إنه أكبر. عن الصلاة يقول الرسول ﷺ: «إنَّ

---

(١) الآية (٤٤) سورة البقرة.

(٢) الآية (٢٦٩) سورة البقرة.

(٣) الآية (١٨) سورة الزمر.

(٤) الآية (٤٥) سورة العنكبوت.

الرجل لينصرف، وما كتب لــه إلاَّ عشر صلاته، تسعها، ثمنها، سبعها، سدسها، خمسها، ربعها، ثلثها، نصفها»[1] فالصلاة يجب أن تؤدى بعقــل، دون غفلــة، أو شرود فالعقل يحكم أيضًا العبادات أداء وغاية، فيجب أن تعقل الغاية منها أيضًــا، وهى كما أسلفنا الابتعاد عن الفحشاء والمنكر، ولذلك قال الرسول: «**من لم تنهــه صلاته عن الفحشاء والمنكر، لم يزدد من الله إلاَّ بعدًا»**[2]. وكــذلك فــى الصــوم فغايته التقوى، وهى أيضًا غاية كل عبادة، يقول القرآن:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾[3]،

ويقول:

﴿ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾[4]،

فالعقل أيضًا لــه دور حيوى فى إحكام العبادات.

الآن نرى أن الإنسان مطلق الحرية فى استخدام الحواس الخارجية، وأن القرآن يشجعه بل يحضه على ذلك، وله مطلق الحرية فى استخدام عقله للإدراك والفهم والحكم والرشد، دون قيد أو شرط، فهل يكفى ذلك إلى أن نقول إن التفكير بعد ذلك يصبح حرًا؟. لكى يكون العقل حرًا، والحواس أيضًا حرة، لابد أن يتحرر الإنسان صاحب العقل والحواس أولاً. يجب أن يتحرر الإنسان من سجن ذاته، ومن سجن العادة والتقاليد، ومن سجن الخوف والخنوع، ومن سجن التقليد والاتباع.

يحمل الإنسان بين جنبيه نفسًا جبلت على حب المنفعة وكراهة المضرة. هذه النفس التى قال عنها الحق – تبارك وتعالى– :

---

(١) [صحيح] أبو داود فى: الصلاة (٧٩٦).
(٢) [ضعيف] الطبرانى فى «المعجم الكبير» ج١١ صـــ٥٤.
(٣) الآية (٢١) سورة البقرة.
(٤) الآية (١٨٣) سورة البقرة.

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾[1].

أطلق القرآن على الارتقاء بالنفس، اسم (التزكية). وأخبر القرآن أن الخشية من الله ليست وحدها كافية لنيل ثواب الآخرة، بل لابد أن تتواكب معها عملية تزكية النفس، أى زجرها عن هواها فيقول:

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴾[2].

لن يصبح الإنسان حرًا، إلا إذا تغلب على نفسه، وقمع هواه، فالهوى يدفع الإنسان إلى الظلم:

﴿ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ﴾[3]،

ويوقعه فى الضلال:

﴿ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾[4]،

الهوى ضديد الحق وضديد الهدى

﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ﴾[5].

حرية التفكير تتطلب عقلاً حرًا نزيها باردًا صارمًا لا تلعب به الأهواء. وسنزيد هذا الأمر تفصيلاً فى فصل تال مستقل. بعد أن يتخلص الإنسان من هواه، عليه ألا يتقيد بموروث، وقد هاجم القرآن هذا النوع من الخضوع بشدة حين قال:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾[6]

---

(١) الآيات (٧-١٠) سورة الشمس.
(٢) الآية (٤٠) سورة النازعات.
(٣) الآية (١٣٥) سورة النساء.
(٤) الآية (٢٦) سورة ص.
(٥) الآية (٥٠) سورة القصص.
(٦) الآية (١٧٠) سورة البقرة.

لقد ألفوا الموروث، واستنامت عقولهم لـــه، لذلك يحطم القرآن هذا الخلود إلى القديم قائلاً بوضوح:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾(١).

ولا تدفعهم عبادة الموروث، إلى رفض إعمال الفكر بحرية من خلال استكشاف الجديد، وسبر أغواره، بل يستخدم الموروث أيضًا تكأة لتبرير الأفعال فى كسل عقلىَ، وتخلى عن المسئولية فى الفعل والاختيار، لصالح جبرية جاهله وانتقائية ظالمة حيث يقول القرآن:

﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَـٰحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَآءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾(٢).

العقل الحر، والتفكير الحر، يمنع الإنسان من أن يجرى وراء إلف الموروث، كالمعتوه الذى يجرى دون هدف، وهو لا يدرك من أمره شيئًا، إلا بالجهد فى اقتفاء أثر القديم دونما شخصية مستقلة، أو اختيار مسئول، وانظر إلى هذه الصورة القرآنية:

﴿ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ۝ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴾(٣).

وبعد أن يفك الإنسان أساره من اتباع الموروث، عليه أن يتخلص من اتباع التقليد، وخاصة لمن يدعى أنه يملك أمر الدين، فيقول القرآن:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ النَّاسِ بِالْبَـٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾(٤)،

---

(١) الآية (١٠٤) سورة المائدة.

(٢) الآية (٢٨) سورة الأعراف.

(٣) الآيتين (٦٩، ٧٠) سورة الصافات.

(٤) الآية (٣٤) سورة التوبة.

وكان رجال الدين وقتها هم الأحبار والرهبان، ولا يعنى ذلك أن كل الأحبار والرهبان سيئون، فالقرآن نفسه يقول:

﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾[1]،

فالعقل الفاحص الناقد أيضًا لا يقبل التعميم، ولكن يبذل الجهد ليحكم على كل حالة بمفردها. العقل الحر والتفكير الحر ينهى أيضًا عن أن ينحنى الإنسان لجماعة الغوغاء، وأن ينقاد إلى سياسة القطيع، وفى ذلك تقول د.نعمات فؤاد بأسلوبها المتميز: «الإسلام موهبته أنه مضاد للعقلية الحشرية والحشدية، إن اعتماد الإنسان على الله يشد المرء إلى سلطة أخرى غير سلطة الدنيا، وبدون مسئولية الفرد أمام الله تصير الأخلاق أمورًا تواضعية، والإنسان الطفل هو الذى يعتمد على الحزب والزعيم والحكومة .. ومن هنا يكره الممتازون التبعية من أى لون، أما رجل الحشد فيتوهم أن القمة ممثلة فى الحزب، أو الحكومة تحقق لـــه كل شىء ... إنه الارتداد إلى جنة الرعاية الوالدية»[2]. وقد حذر القرآن من أن الحشد، والمجموع الكبير، لا يعنى إلا الضلال فى بعض الأحيان قائلاً:

﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾[3]

الأمر ليس بالكثرة أو بالقلة، لكن المسئولية شخصية، والحرية إرادة واعية مختارة تعلم أين تطأ قبل الخطو موضعها. وعلى الإنسان أن يجاهد لمحاربة الخوف داخله، والخوف من أقوى العواطف والأحاسيس الإنسانية، والحرية تتطلب أن نقلل من أثر الخوف على الفكر والعمل والتواصل، على أن يحكم ذلك قاعدة أن الله لا يكلف نفسًا إلا وسعها، دون أن يلقى الإنسان بيده إلى التهلكة حسب النص القرآنى:

---

(١) الآية (٨٢) سورة المائدة.

(٢) من عبقرية الإسلام، د. نعمات فؤاد، دار المعرفة، صـــ٢٤، بدون تاريخ.

(٣) الآية (١١٦) سورة الأنعام.

﴿ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾[1]،

فى ذلك الإطار يعمل الإنسان على التخلص من قيد الخوف، الخوف من كيد الكائدين، وتكذيب المعاندين، وطعنات الخائنين، من تطاول السفهاء، وهجمات الأعداء، وتقاعس الأصدقاء، من غوغائية الجماعات الحشدية، وتعدى تجمعات القطيع، ويسرى القرآن عن الخائف قائلاً:

﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا ﴾[2]،

ويحفز البعض عن طريق الاستنكار قائلاً:

﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ﴾[3]،

والمطلوب فى النهاية تحمل مسئولية الحرية من جهة الفكر ومن جهة التواصل، حيث يقول الله – سبحانه –:

﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَـٰلَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾[4]،

ويقول:

﴿ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ﴾[5].

إذا اجتاز الإنسان ما سبق أصبح حرًا، ذا عقل حر، وفكر حر، ولن يتم ذلك إلا بين الناس. قد يحتاج الإنسان إلى العزلة بعض الوقت، أو على فترات؛ ليستطيع استعادة صفائه، وأن يلم شعثه، ويصلح غايته، ويسترجع نشاطه، لكن المجاهدة والتزكية والتحرر، لا تكون إلا بين الناس وبالناس، ولأجل الناس. أمر القرآن الرسول أن يلتصق بالناس، ويصبر على تعاملهم

---

(١) الآية (١٩٥) سورة البقرة.

(٢) الآية (١٧٣) سورة آل عمران.

(٣) الآية (٧٧) سورة النساء.

(٤) الآية (٣٩) سورة الأحزاب.

(٥) الآية (٥٤) سورة المائدة.

﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾[1].

تزكية النفس فى جوهرها من خلال العلاقة بالآخر، فلا معنى ولا احتياج إلى تزكية النفس عندما يكون الإنسان وحيدًا بمفرده. أن تجاهد نفسك لتتخلى عن كل مذموم من الأخلاق من طمع، وغش، وحقد، وحسد، وتكبر، وظلم، وعدوان، وغيبة، ونميمة، وكذب، وكسل، وخيانة، وجبن، وبخل وشح، وغير ذلك، وأن تدربها على التحلى بكل جميل من إيثار، وأمانة، وتسامح، وبر، وعطاء، وصدق، وكرم، وإحسان، وعفو، وصلة، وأدب، وتواضع، ومروءة، وعدل، هذه المجاهدة هى معادلة بين طرفين، أنت أحدهما، والطرف الآخر هو الناس. بدون الناس يصبح الفكر منعزلاً، مجردًا، لا يعدو كونه أصداء لذهنيات فى محيط مغلق، ما يلبث مع طول الوقت أن تتأسن أفكاره فى الدائرة المغلقة. يقول فى ذلك على شريعتى بأسلوبه الفذ: «المفكر وهو جالس إلى مكتبه محاطًا بتلال الكتب، أو فى حوار ذهنى مع أصدقائه أو أضرابه، ويختار الحلول من بين الألفاظ والفرضيات والنصوص الأيديولوچية، يستطيع فحسب (من خلال الناس) أن يصحح أفكاره، كما يستطيع أن يشفى من مرض الألفاظ، كما يستطيع أن يجرب نفسه، ويقيّم ذكاءه ولياقته وقدرته على سرعة العمل وجرأته، ودرجة فدائيته وتضحيته بالنفس والمال، ونسبة إخلاصه ونقائه وتقواه، يقيم كل ذلك بدقة. وفى نفس الوقت يضعه ذلك فى مواجهة مشكلات، وفى تعامل مع واقعيات لم توجد قط فى المحيط الآمن المطمئن، الذى تتعامل معه الألفاظ والمصطلحات الفلسفية الفكرية، ثم إن (التعامل مع الناس) هو الذى يجعل المفكر عارفا (بنصوص الناس) ورغباتهم واحتياجاتهم ومثلهم وجوانب القوة، وجوانب الضعف فيهم، وفى نفس الوقت يبين أمامه إمكانات العمل، ويخلصه من مرض الجنوح عن الناس أو التعالى عليهم»[2].

---

(١) الآية (٢٨) سورة الكهف.

(٢) الثورة الإيرانية، الجذور الأيديولوچية، د. إبراهيم الدسوقي شتا، الزهراء للإعلام العربي، ط٢، ١٩٨٨م، صـ١٧٧ بتصرف طفيف. (بحث بناء الذات الثورية د. على شريعتى).

الآن وقد تحررت من سجن الذات، وسيطرة التقليد والموروث والخوف، أصبح العقل حرًا، والحواس حرة، فأصبح الفكر حرًا، واختبرنا الأفكار في تفاعل مع الناس، وقمنا بالتدقيق والانتقاء والرفض والقبول، ونحن نسبح في سماء الحرية الفكرية التي كفلها لنا المنهج الإسلامي، فهل آن لنا أن نركن إلى بعض الدعة بعد هذا الجهد الهائل؛ لنتمتع بقطف الثمار اللذيذة لهذه الأفكار الحرة. إن أمانة الحرية التي تحملتها في العرض الإلهي، والتي بذلت نتيجة تحمل مسئوليتها هذا الجهد العظيم الذي أسلفنا خطواته، وكونك حرًا مريدًا مختارًا تجعلك دائمًا باحثًا عن الحكمة والهدى، يتطلب ذلك منك أن تقف دائمًا موقف الشك والريبة وألا تأمن إلى أفكارك. هل يجتمع الشك والإيمان في قلب واحد؟ لقد قال القرآن:

﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[1]،

قد ينتاب المرء مثل هذه المواقف، وقد روى البخاري ومسلم أن النبي ﷺ قال: «**يأتي الشيطان أحدكم فيقول: من خلق كذا؟ حتى يقول: من خلق ربك؟ فإذا بلغ ذلك فليستعذ بالله ولينته**»[2]، وقال صلى الله عليه وسلم: «**لا يزال الناس يتساءلون: خلق الله الخلق فمن خلق الله؟ فمن وجد من ذلك شيئًا فليقل: آمنت بالله ورسله**»[3]. هذا النوع من الأفكار وارد، ولكني لست أتحدث عن ذلك. كما لا أقصد أن تقف موقف الريبة والشك من ثوابت الدين كالتوحيد وأركان الإسلام، فقد يعرض للإنسان المؤمن ذلك أيضًا، فمن الخطأ الشائع أن يظن البعض أن الإيمان ينفي ورود الشكوك على قلب المؤمن، وأن قلب المؤمن لا يسأل ولا يتشكك ولا يستفسر ولا يتقلب مثل قلوب الآخرين، فقد «جاء ناس من أصحاب النبي ﷺ فسألوه:

- إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به ؟!
- قال : وقد وجدتموه ؟
- قالوا : نعم.

---

(١) الآية (١٠) سورة إبراهيم.
(٢) [صحيح] البخاري في: بدء الخلق [٧٢٣٦]، ومسلم في: الإيمان [٢١٤].
(٣) [صحيح] مسلم في : الإيمان [٢١٢].

- قال : ذلك صريح الإيمان .. ذلك محض الإيمان»[1].

كل ما سبق وارد، ولكن ما أقصده أن الشك يجب أن يقع على أفكار الإنسان وتصوراته عن الدين والحياة. الشك المنهجي نوع من أنواع الحرية، لأن هناك فرقًا بين الدين وبين أفكارنا ورؤيتنا وتصوراتنا عن الدين، وهي نقطة دقيقة، كم جرت على الناس من ويلات. ونزيد الأمر إيضاحًا، فنقول مع القائل: «جوهر الدين أمر مقدس متعال، ولو جرد الدين من القداسة والسمو لخرج عن كونه دينًا. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن وجود القداسة والسمو إنما هو وجود للإطلاق ولانعدام الشروط والقيود. بيد أن لوجود الإنسان بعدين: إلهيًا وطبيعيًا. فالإنسان في هذا العالم موجود تاريخي وأسير الزمان والمكان وقابل للتحول والتغيّر، فلا جسمه يبقى على حال واحدة بمرور الزمن ولا عقله أيضًا. وبالطبع فإنني لا أعتقد فقط بأن معارف الإنسان وأفكاره وإدراكه أمور نسبية، وأنه لا ثابت في معرفته، بل إنها عامة وضئيلة ومتغيرة وقابلة للخطأ. وإذن فإن أعتى وأضخم مشكلات مجتمع المتدينين تظهر عندما تُضفي قداسة الدين ومطلقيته على تصورات الإنسان عن الدين مع أنها تصورات زمانية - مكانية محدودة ونسبية وقابلة للخطأ، بيد أن الإنسان إن كان يعي محدوديته وأساس التضاد القائم والمشكلة، فإن مشكلته الداخلية لن تفضي إلى الكارثة»[2].

ماذا يعني الكلام السابق؟ يعني أن:

١- جوهر الدين، أمر مقدس متعال مطلق بلا قيد ولا شرط، ولا يتغير بتغير المكان أو الزمان، فثوابت الدين لا تتغير في موريتانيا ولا ماليزيا، وهي ثابتة منذ القرن الأول الهجري، وحتى القرن الخامس عشر الهجري، وإلى أن يرث الله الأرض وما عليها.

٢- الإنسان محكوم بالعيش في هذا العالم، وفي صلب الطبيعة، وعالم الطبيعة لا يعرف الاستقرار، وبالتالي فإن وعي الإنسان ومعرفته نسبيان وقابلان للخطأ.

٣- الإنسان أسير الزمان والمكان، وقابل للتحول وللتغير خلالهما، فلا جسمه يبقى على حال واحدة بمرور الزمان، ولا عقله، ولا ينجو الإنسان أيضا من تأثير

---

(١) [صحيح] مسلم في: الإيمان [٢٠٩].

(٢) الإسلام والعالم، د. محمد خاتمي، مكتبة الشروق الدولية، ط٢، ١٩٩٩م، صـ٢٥، ٢٦ بتصرف.

المكان، وعليه فإن معارف الإنسان وأفكاره وإدراكه - وفى المجموع تصورات الإنسان - نسبية ومحدودة، وضئيلة، وقابلة للخطأ.

٤- الدين ثابت هذه حقيقة لا مراء فيها، ولكن أفكار الإنسان وإدراكه وفهمه ومعرفته أو تصوره عن الدين نسبية ومحدودة وقابلة للخطأ وهى ليست (الدين) بل هى فهمه أو (تصوره للدين).

٥- حرية الفكر تؤدى بالإنسان إلى (تصور للدين)، وهو نسبى ومحدود وقابل للخطأ، فهو بالتالى يحتاج دائمًا إلى حرية الاختلاف، وحرية المناقشة، وحرية السؤال حتى يستطيع الإنسان تصحيح مفاهيمه، ومعارفه، وفهمه، أو تصوراته عن الدين، وبذلك لا مناص من قبول الاختلاف والمناقشة والرأى والسؤال والاجتهاد من الآخر.

٦- لا مجال لأى كائن كان أن يسمى (تصوره للدين) بأنه (دين)، وأن نضيف على تصوره القداسة التى للدين، وبالتالى يرفع راية التكفير، والطرد من رحمة الله ضد مخالفيه.

٧- طالما أن إدراكنا، وفهمنا، وتصورنا نسبى، وعرضة للخطأ، فلابد من أن نكون على استعداد دائم للشك فيه ما حيينا؛ لتعديل المسار، وتصويب الخطأ، وزيادة الفهم، واستكمال الحقيقة.

٨- وطالما أن إدراكنا، وتصورنا للدين، نسبى ومحدود، فحتى فى حالة أنه صواب فهو يمثل جزءًا فقط من الحقيقة وعليه فلابد من قبول الاختلاف، ومن سماع الرأى الآخر، ومن المناقشة، فى سعينا الدءوب إلى محاولة استكمال الحقيقة. فلا احتكار للحقيقة.

وهنا أود أن أذكر بدون تردد أن ما أسلفت من القول لا ينسحب على أى محاولة للنيل، أو للاستهزاء، أو للهجوم، أو لزعزعة ثوابت الدين المقدسة والثابتة.

ونستطيع الآن أن نفهم عندما يقول القرآن:

﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ ﴾[1]،

---

(١) الآية (٨) سورة فاطر.

وعندما يقول:

﴿ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾[1]،

كان القرآن هنا يتحدث عن الكافرين، ولكن اللبيب يجب أن يضع أفكاره دائمًا على المحك حتى يحس مبكرًا بالخطأ، ويقوم بالتصحيح، بدلاً من الركون إلى حتمية صواب أفكاره.

وهناك سنة من السنن الكونية التى تحدث عنها القرآن، وتسمى بسنة التدافع والتى يقول عنها الحق - تبارك وتعالى -:

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾[2]،

التدافع من السنن الكونية، ولا أحسب أن التدافع يكون فقط بالمناكب والأيدى والأرجل، بل أيضًا يمكن أن يكون التدافع بالأفكار والاختلاف وتبادل الرأى والمناقشة والجدال والسؤال لمحاولة الوصول إلى الحقيقة. وتصرح الآية السابقة أنه بدون هذا التدافع العقلى (   ) فإن الدين نفسه، والذى عبرت عنه بأماكن العبادة للأديان السماوية كلها، سوف ينهدم ويذوى. ويصبح أيضًا مفهومًا قول سيدنا أبى بكر ﷺ - الذى قال الرسول ﷺ عن إيمانه إنـــه يعدل إيمان الأمة[3]-: «لا آمن مكر الله ولو كانت إحدى قدماى فى الجنة». الله - جل وعلا- لطيف بعباده، ووصف نفسه بأنه بيده الخير، فالله لا يتربص بعباده الدوائر، ولكن أبا بكر هنا يتحدث عن الشك المنهجى داخل الإنسان المؤمن الحر الواعى عن مفاهيمه وتصوراته عن الدين، الرجل لن يطمئن حتى يضع قدمه الثانية فى الجنة. وكان عمر بن الخطاب يمر كل يوم على حذيفة بن اليمان[4]، ليسأله «يا حذيفة

(١) الآية (١٠٤) سورة الكهف.

(٢) الآية (٤٠) سورة الحج.

(٣) المغنى عن حمل الأسفار، عراقى، ج١ صـــ٥٢.

(٤) حذيفة بن اليمان، شهد مع رسول الله ﷺ أحدا هو وأبوه، وقتل أبوه يومئذ، قتله المسلمون خطأ. وكانا أرادا أن يشهدا بدرا، فاستحلفهما المشركون أن لا يشهدا مع النبى ﷺ فحلفا لهم، ثم سألا النبى ﷺ، فقال: «نفـــى لهم بعهدهم». مات سنة (٣٦هـــ) تهذيب الكمال ٢/١١٣٢-١١٣٣.

شمنى، ماذا ترى فىّ من النفاق؟»، عمر بن الخطاب يقيس كل صباح مقدار النفاق الذى يحتويه قلبه ؟!!!

الإنسان الحر الواعى المختار، من اليقظة والتنبه بمكان، حتى أنه لا يطمئن إلى صحة أفكاره الخاصة، مادام قلبه ينبض بين جنبيه، فهو فى حالة فوارة متطلعة، ذو حواس مستنفرة، وعقل ووجدان مُستَفَز، لمطاردة الحكمة والإدراك والرشد، والتماسهم أين كانوا، ومتى كانوا.

حرية الفكر إذن تمهد وتستتبع وتستوجب حرية الاختلاف، وحرية الرأى، وحرية المناقشة، وحرية الاجتهاد، وحرية وسائل التعبير عن الرأى وحرية السؤال.

وقبل أن أختم هذا الباب عن حرية الفكر، أورد السياق التالى:

«ولقد نقول دون الحاجة إلى الإسهاب فى التفاصيل، إن نهضة القرن الثانى عشر فى أوروبـــا، أرست أسس برنامج البحث العلمى (الذى تحوّر وتطور فيما بعد). وقد طورت هذا البرنامج النخبة الدينية التى هيمنت على الحياة الفكرية، وهو برنامج تضمن المسلمات التالية فى رأى «تينا ستيفل» مؤلفة كتاب «الثورة العقلانية»:

١- إن دراسة الطبيعة دراسة عقلانية موضوعية؛ لفهم كيفية عملها أمر ممكن ومرغوب فيه.

٢- إن دراسة كهذه قد تستخدم أساليب الرياضيات والاستدلال المنطقى.

٣- إن عليها أن تسلك المنهج الإمبريقى (التجريبى) «   »، أى تلجأ إلى الأدلة المستقاة من الحواس حيثما أمكن ذلك.

٤- إن الباحث عن المعرفة الخاصة بعمل الطبيعة (أى «العالم») يجب أن يتابع عمله بمنهجية وحذر.

٥- إن العالم يجب ألا يصغى للأصوات المرجعية، والتراث. ورأى العامة، حول الأمور المتعلقة بكيفية عمل الطبيعة، إلا فى حدود كون المعلومات المستقاة من هذه الأصوات قابلة للتحقق من صحتها.

٦- إن العالم يجب أن يمارس الشك المنظم، وأن يحتمل أحياناً فترات طويلة من عدم اليقين فى سعيه المنظم لفهم ظواهر الطبيعة.

ولذا فقد نقول مع «تينا ستيفل»: إن هذا المنطلق الفكرى شكل ثورة علمية من حيث أن وضع برنامجًا بحثيًا ضمن سياق ميتافيزيقى، افترض أن أحداث الطبيعة قابلة للتفسير على يد بشر يستخدمون وسائل المنطق والملكة التى وهبهم الله إياها، ألا وهى العقل الإنسانى»[١].

كم خسر الإسلام، وخسرت البشرية حين وأدت حرية المسلمين. ومن لا يفهم هذا التعليق، فليقرأ هذا الباب من جديد.

حرية الاختلاف

الكون قائم على التكليف، والتكليف يقتضى الطاعة والحرية. الحرية تعنى القبول أو الاختلاف، والحرية تعنى الاختيار بين البدائل، والبدائل تستلزم التنوع الذى يفضى إلى الاختلاف. الاختلاف من مقتضيات ونتائج الحرية، بل هو من ضرورات الحرية، ومن سنن الوجود. تختلف السماوات عن الأرض، وتختلف أجرام السماوات، فالنجوم غير الكواكب، والمذنبات غير السدم، وكل واحد من الأصناف السابقة له أنواع مختلفة، فكوكب الأرض غير كوكب المشترى وهكذا. وعلى الأرض هناك المياه وهناك اليابسة، وفى اليابسة هناك الجماد والنبات والحيوان والإنسان. الجماد أيضًا مختلف. لكل موجود أنواع، ولكل نوع فصائل، وتحت الفصيلة أصناف، اختلاف يبعث على الدهشة والتأمل والانبهار. يلفت الحق - تبارك وتعالى - النظر إلى ذلك التنوع الكونى قائلاً:

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ(*) بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ(**) سُودٌ ۝ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا ۗ ﴾[٢].

---

(١) فجر العلم الحديث (الإسلام - الصين - الغرب) عالم المعرفة ٢٦٠، صـ١٢٣، تأليف : نوبى أ. هف، ترجمة: د. محمد عصفور، عن:

( ) جدد: طرائق وخطوط تكون فى الجبال كالعروق.

( ) غرابيب: الغربيب شديد السواد كلون الغراب.

(٢) الآيتين (٢٧، ٢٨) سورة فاطر.

وتأمل ختام الآيتين تجد أن هذا الاختلاف يؤدى بمن لـه بصر وبصيرة إلى خشية الخالق وإلى مزيد العلم. ويتحدث عن النبات فى موضع آخر فيقول:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّـٰتٍ مَّعْرُوشَـٰتٍ(*) وَغَيْرَ مَعْرُوشَـٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَـٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَـٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾[1]،

يلفت النظر إلى التنوع الهائل والاختلاف، وكدأب القرآن دائمًا يدلف من العبرة إلى التكليف بأداء زكاة الزروع ساعة الحصاد وأنت لاتزال بالحقل، كما ينهى عن الإسراف فى المتعة. الاختلاف عبرة وعظة، وتنوع للاختيار، وليس للتخمة والإسراف.

ويستخدم الحق - تبارك وتعالى - سنة الاختلاف هذه بعد أن تحدث إثرها فى الإنسان، ليلفت نظره بعدها إلى النهاية المحتومة، فلا يجب أن يتلهى الإنسان حتى بآيات الاعتبار، عن تخطى الأسباب والدلوف إلى سبب الأسباب فيقول:

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَـٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَـٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾[2]،

الاختلاف رحابة وحرية واتساع فى مجال الاختيار وآية على القدرة والإبداع، ولا يغنى ذلك كله عن المآل لكل حياة.

لا وجود للصورة طبق الأصل (تماثل لا تطابق)

وحتى داخل المتشابه فهناك من الفروق الدقيقة التى يلاحظها الإنسان بين

(*) معروشات: مرفوعات على الأعمدة وقيل ما انبسط على وجه الأرض مثل البطيخ وغير المعروشات ما قام على ساق مثل النخل وباقى الأشجار.

(1) الآية (141) سورة الأنعام.

(2) الآية (21) سورة الزمر.

أصناف الفاكهة الواحدة (المانجو الهندى - العويسى - فونس) بل أيضًا داخل حبات الصنف الواحد فى الشكل والتذوق. ويشير القرآن على هذه الحقيقة فى قولـــه:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّـٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَـٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[1].

ترسم هذه الآية لوحة تشكيلية ذات موسيقى داخلية، وجمـــال يأســـر النفـــوس، وبهجة تدير الرءوس، وتأملوا قولـــه:

﴿ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَـٰبِهٍ ۗ ﴾

لم يقل هنا «متشابه وغير متشابه» بل استخدم «مشتبها» بدلاً مـــن «متشـــابه»، هناك من الفروق الدقيقة ما يجعله يختلف اختلافًا يستدعى التدقيق، أو هـــو متشـــابه فى الحجم واللون، وغير متشابه فى الطعم، فقد يشتبه عليك أنه متشابه.

ماذا عن الناس؟ يؤكد القرآن أن القاعدة هى الاختلاف. ففى آيـــة سابقة (٢٨ سورة فاطر) تحدث عن اختلاف ألوان الناس، ثم يؤكد الاختلاف، وفى ذلك يقول القرآن:

﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ ﴾[2].

الناس مختلفون، ولذلك خلقوا. الخلق عيال الله، ومن يريد الله، عليـــه أن يســـع خلقه، الله مع الناس؛ لأنه رب الناس، ملك الناس، وإله الناس فمن يرد الله، عليه أن يقبل الناس، ولا يكفى أن يقبل الناس على الرغم من اختلافهم، بل عليه أن يقـــبلهم لاختلافهم، فكذلك خلقوا. ويؤكد القرآن على تلك الحقيقة مرارًا فيقول فـــى موضـــع آخر:

---

(١) الآية (٩٩) سورة الأنعام

(٢) الآيتين (١١٨، ١١٩) سورة هود

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ ﴾[1]،

تختلف الناس فى اللغة، وتختلف فى اللون، وتختلف فى الإمكانات فهناك الأبيض والأحمر والأصفر والأسود وما بين هذه الألوان. وهناك القوى والضعيف، والطويل والقصير، والذكى والمتواضع الذكاء، والكيس والبليد، والفطن والغافل، والمتعلم والجاهل، والحر والعبد لغيره أو لشهواته أو لغرض من الأغراض ... الاختلاف يؤدى إلى التدافع الذى يقول عنه الحق - تبارك وتعالى -:

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ ﴾[2]،

فالتدافع يؤدى إلى الحركة، والحركة تؤدى إلى التطور؛ ليتسع أو ليضيق الاختلاف، ولتستمر الجدلية الاختلاف - التدافع. لقد طلب الله من الإنسان أن يعمر الأرض؛ ليعيش فيها، عندما قال له:

﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾[3]،

أى خلقكم من الأرض وطلب أن تعمروها، فالاختلاف والتدافع يؤديان إلى العمل والإعمار. الكون يسمح بالتشابه والتماثل ولكن لن تجد ما حييت مخلوقين طبق الأصل. التماثل يسمح به الكون فى الطبيعة، حيث يؤكد ويلر أن: «كل قانون من قوانين الفيزياء مرده إلى شىء من التماثل فى الطبيعة»[4].

ويقول هايزنبرغ إن «خواص التماثل تشكل على الدوام أهم سمات النظرية، وقانون نيوتن الثالث مثال معروف على التماثل فى الفيزياء: لكل فعل دائمًا رد فعل معاكس ومساوٍ له»[5]، هو مساوٍ لرد الفعل أى مشابه له، لكنه فى اتجاه معاكس، فلن تجد صورة طبق الأصل. اليوم الواحد فى حياة الإنسان، يختلف أيضًا باختلاف الليل والنهار، ويشير القرآن فى مواضع عديدة إلى هذه الحقيقة، ولك أن

---

(١) الآية (٢٢) سورة الروم.

(٢) الآية (٢٥١) سورة البقرة.

(٣) الآية (٦١) سورة هود.

(٤) عالم المعرفة (١٣٤) مرجع سابق، صـ ٤٩

(٥) المرجع السابق، صـ ٤٩.

تتصور إذا كانت الأيام كلها نهارًا مضيئًا، أو كلها ليلاً مظلمًا حالك السـواد، كيـف يكون شكل الحياة؟ وما هى الحالة النفسية التى تكون عليها، وقد أشار القرآن إلـى ذلك الاحتمال قائلاً:

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[1].

الاختلاف دعوة للتعارف

الاختلاف يدعو إلى الحركة؛ لأن الإنسان يتحرك لمعرفة المختلف عنه، لكنـه ليس فى حاجة إلى التحرك لمشاهدة ما هو طبق الأصل. لهذا فإن الاخـتلاف هـو الذى يؤدى إلى التعارف، والتعارف يؤدى إلى معرفة جديدة، ويتيح تبادل وتلاقـح الأفكار، التى تفتح آفاقًا جديدًا من انكشاف الحقيقة. وكما سبق وأسلفنا فإن الاختلاف فى القدرات، مع نسبية معرفة الإنسان، تجعل اكتمال أجزاء الحقيقة الناقصـة لـدى طرف، موقوفًا على اقترابه من الآخر، ويبين القرآن هذه الجزئية قائلاً:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ ﴾[2].

فاختلاف الناس بين شعوب، وقبائل، أى فى تصنيفات سياسية أو اجتماعيـة أو حتى عرقية، هو الذى يؤدى إلى الحركة للتعارف، سعيًا وراء استكمال النظر إلـى الحقيقة، عن طريق التواصل والفكر والنقاش وتبادل الأفكار. وقد تصـدرت الآيـة الإشارة إلى وحدة الأصل الإنسانى، حيث الخلق من ذكر وأنثى، لصد أية محاولـة

---

(١) الآيات (٧١-٧٣) سورة القصص.

(٢) الآية (١٣) سورة الحجرات.

لتصنيف الناس فى طبقات أو درجات لأسباب عرقية أو عنصرية، كما أوضحت الآية أن معيار التفاضل عند الله هو التقوى ولا شىء آخر. وفى آية أخرى يقطع الله الطريق على من يدعى لنفسه التقوى بزعمه، رغبة فى أن ينسب إلى نفسه تفوقا على أخيه الإنسان فيقول:

﴿ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾[1]

فلا عنصرية، ولا رقى عرقيًا، ولا دم أزرق ملكيًا، إنما هو اختلاف لصالح التلاقى والتكامل والتزكية واجتلاء الحقيقة، والحقيقة هى أن: «**كلكم لآدم وآدم من تراب**» كما قال رسول الله ﷺ [2].

الاختلاف وقود الحركة

الاختلاف من سنن الكون، وهى حقيقة يقرها القرآن، وبها تحدث الحركة والعمران، والاختلاف يؤدى إلى التفاوت بين الناس، وهو تفاوت اختلاف فى القدرات والإمكانات

﴿ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗاۗ ﴾[3]

التفاوت والاختلاف يؤدى إلى تسخير البعض للبعض؛ لتتحرك الحياة فهناك الوزير والخفير، والرئيس والمرءوس، والقائد والجندى، والعالم والمتعلم، والمدرس والتلميذ، وليست تلك طبقية بغيضة، أو ارستقراطية متحكمة، لكنها تنظيم للحياة. التفاضل كما قلنا بالتقوى؛ ولذلك نهى القرآن عن السخرية والاستهزاء بمن هم دوننا فى الإمكانات، أو الذين جعلت حقيقة الاختلاف مواقعهم أدنى فى سلم التنظيم فيقول:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ

(١) الآية (٣٢) سورة النجم.
(٢) [حسن] الطبقات الكبرى ج١ صـ١ ح٥، ط التحرير.
(٣) الآية (٣٢) سورة الزخرف.

بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[1].

الاختلاف يؤدى إلى زيادة المعرفة، وإلى تحريك الحياة، وإلى إعمار الكون، وإلى تبادل الأدوار، واستمرار التقدم، وتأكيد التطور ... إنه يؤدى إلى مزيد من الحرية، وجلاء الحقائق.

ليست الحاجة وحدها هى التى تؤدى إلى الحركة والاختراع، بل أيضًا الاختلاف.

أدب الاختلاف

والإسلام يدعو إلى الأدب عند الاختلاف فيقول

﴿ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ ﴾[2]،

أى أنه لم ينه عن الجدل وإنما نهى عن الجدل الذى لا طائل منه، والذى يؤدى إلى الشقاق والمنازعة فيقول:

﴿ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ ﴾[3]

لأنه يؤدى إلى الفشل والضعف. ويقول الرسول ﷺ «من ترك المراء وهو مبطل، بنى الله له بيتًا فى ربض الجنة، ومن ترك المراء وهو محق، بنى الله له بيتًا فى أعلى الجنة» رواه ابن ماجه والترمذى[4]. وقال أيضًا: «ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه، إلا أوتوا الجدل ثم قرأ:

﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾[5]»

رواه الترمذى وقال: حديث حسن صحيح[6]. إن الجدل الذى تعتريه الخصومة،

---

(١) الآية (١١) سورة الحجرات.
(٢) الآية (١٢٥) سورة النحل.
(٣) الآية (٤٦) سورة الأنفال.
(٤) [ضعيف] الترمذى فى: البر والصلة [١٩٩٣]، وابن ماجه فى: المقدمة [٥١].
(٥) الآية (٥٨) سورة الزخرف.
(٦) [حسن] الترمذى فى: تفسير القرآن [٣٢٥٣]، وابن ماجه فى: المقدمة [٤٨].

ويدخله المراء هو الجدل المنهى عنه. وعندما يستفحل الجدل ماذا يكون الرد على المخالفين يقول القرآن:

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾(١)،

فلم ينسب الهدى إلى نفسه والضلال إلى المخالف، بل المسألة لاتزال معلقة للحكم فيما يستجد من أيام. وأنظر إلى الآية التى تليها:

﴿ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾(٢)

نسب هنا الجرم إلى نفسه، ولم يذم عمل المخالف بأية صفة. فهل يجرؤ من يدعى الإسلام أن يشتم أو يذم، أو يهدد، أو يرفع راية التكفير فى وجه مخالفيه؟

اختلاف التناقض التام

الإسلام يعترف أيضًا، ويسمح بالتناقض غير القابل للحل، أى يسمح بالاختلاف الذى لا اتفاق معه، ولا يأنف من التعايش مع هذه الحقيقة، فيقول القائل: «لا يعنى هذا أن الإسلام ليس على استعداد لتقبل الديانات الأخرى، والتسامح فى وجودها، خاصة أن هذا التنوع والتعدد فى الديانات مشيئة الله، وشأن من شئونه فى خلقه، كما ورد فى الآية من سورة المائدة:

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾(٣).

---

(١) الآية (٢٤) سورة سبأ.

(٢) الآية (٢٥) سورة سبأ.

(٣) الآية (٤٨) سورة المائدة.

ويتضمن القرآن مبدأ يصلح لأن يحكم العالم، وهو الوارد فى سورة الحج:

﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ۖ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي ٱلْأَمْرِ ۚ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴾[1]

ويقول الله فى آخر آيات هذه السورة:

﴿ وَجَـٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَـٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾[2][3].

يقر الإسلام بل ويتعايش مع وجود تناقض واختلاف لا سبيل للتغلب عليهما.

من مظاهر الاختلافات بين الصحابة[4]

من الخطأ البين أن يظن الإنسان أنه لم يحدث اختلاف بين الصحابة، فقد اختلفوا فى كثير من مسائل الفقه ... ولكن مؤرخى الأديان بعد أن يؤكدوا أن الاتفاق كان تامًا فى مسائل الأصول، أعنى العقيدة – يذكرون اختلافات معينة،... وهى اختلافات اجتهادية – كما قيل – كان غرضهم منها: إقامة مراسم الشرع، وإدامة مناهج الدين.

١ – أول تنازع فيما رواه البخارى بإسناده عن ابن عباس – رضى الله عنهما– قال: لما اشتد بالنبى ﷺ مرضه الذى مات فيه، قال: « إيتونى بدواة وقرطاس، اكتب لكم كتابًا، لا تضلوا بعدى».

فقال عمر: إن رسول الله قد غلبه الوجع، حسبنا كتاب الله. وكثر اللغط فقال

(١) الآية (٦٧) سورة الحج.
(٢) الآية (٧٨) سورة الحج
(٣) الإسلام فى الألفية الثالثة، د. مراد هوفمان، مرجع سابق، ط١، صـ١٨٣.
(٤) التفكير الفلسفى فى الإسلام، د. عبد الحليم محمود، دار المعارف، ١٩٨٣م، صـ١١٢ومابعدها.

النبى: «قوموا عنى، لا ينبغى عندى التنازع». قال ابن عباس: الرزية كل الرزيـة، ما حال بيننا وبين كتاب رسول الله[١].

٢ – الخلاف الثانى فى مرضه: أنه قال: «جهزوا جيش أسامة، لعن الله من تخلف عنه». فقال قوم: يجب علينا امتثال أمره، وأسامة قد برز من المدينة.

وقال قوم: قد اشتد مرض النبى – عليه الصلاة والسلام – فلا تسع قلوبنا مفارقته. والحالة هذه، فنصبر حتى نبصر، أى شىء يكون أمره؟[٢].

٣ – فى موته – عليه الصلاة والسلام – قال عمر بن الخطاب ﷺ: «من قال إن محمدًا قد مات قتلته بسيفى هذا، وإنما رفع إلى السماء كما رفع عيسى عليه السلام»، وقال أبو بكر بن أبى قحافة ﷺ : «من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد إله محمد، فإن إله محمد ﷺ لم يمت ولا يموت وقرأ قول الله – سبحانه وتعالى –:

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾[٣].

فرجع القوم إلى قوله، وقال (عمر): «كأنى ما سمعت هذه الآية حتى قرأها أبوبكر»[٤].

٤ – الخلاف فى موضع دفنه – عليه الصلاة والسلام –: «أراد المهاجرون رده إلى مكة، وأراد أهل المدينة من الأنصار، دفنه بالمدينة، وأرادت جماعة نقله إلى بيت المقدس؛ لأنه موضع دفن الأنبياء ثم اتفقوا على دفنه بالمدينة، لما روى عنه – عليه الصلاة والسلام – : «لم يقبر نبى إلاّ حيث يموت»[٥].

٥ – وهناك الخلاف على الإمامة: عندما قال الأنصار: (منا أمير ومنكم أمير) وانتهت إلى أبى بكر.

---

(١) [صحيح] البخارى فى: العلم [١١٤].
(٢) تاريخ ابن عساكر ج٣ صـ٢١٨، ط بيروت.
(٣) الآية (١٤٤) سورة آل عمران.
(٤) صفة الصفوة ج١ صـ٦٨، ط دار ابن خلدون.
(٥) [صحيح] أحمد فى «مسنده» ج١ صـ٧.

٦ – فى أمر (فدك) وكانت قطعة أرض أقطعها الرسول إلى ابنته السيدة فاطمة، وأخذها أبو بكر منها بالرواية المشهورة عن النبى «نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقه»[١].

٧ – فى قتال مانعى الزكاة : فقال قوم: لا نقاتلهم قتال الكفرة. وقال قوم: بل نقاتلهم حتى قال أبو بكر: (لو منعونى عقالاً مما أعطوا رسول الله لقاتلتهم عليه)[٢] ووافقه جماعة من الصحابة بأسرهم.

الاختلاف سنة من سنن الحياة، والقبول بالاختلاف والأدب فيه من أخلاق الإسلام

وأخيرًا يقول: د. هوفمان[٣]: (طبقًا للسورة التاسعة بعد المائة من القرآن والتى يجب أن يعلقها فوق مكتبه كل مسلم، ومسيحى، ولا أدرى، وملحد، ومؤلف هذا الكتاب:

﴿ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ۝ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ﴾[٤]

ويعتبر بها قبل الدخول فى أى مقارنات للأنظمة المختلفة.

ويجب أن يكون المسلم مثالاً للتعايش السلمى مع من يختلف معه فى الفكر، والعقيدة، حتى مع الدولة العلمانية، رغم زعمها أنها السبيل الوحيد لسعادة العالم)[٥].

وأضيف من عندى – على اليافطة فوق المكتب من نفس السورة :

﴿ لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ﴾.

حرية السؤال، وحرية المجادلة، وحرية المناقشة، وحرية إبداء الرأى، وحرية الاجتهاد – وواجب الشورى

أولاً: حرية السؤال

العلم يبدأ من السؤال، وإعمال الفكر مدخله السؤال، والتصديق بشىء، أو

---

(١) [صحيح] البخارى فى: المغازى [٤٠٣٦]، ومسلم فى الجهاد [١٧٥٩].

(٢) [صحيح] البخارى فى: الاعتصام [٧٢٨٤، ٧٢٨٥]، ومسلم فى: الإيمان [٢٠].

(٣) د. مراد هوفمان: ولد بألمانيا، ثم أتم دراسته الجامعية والعليا فى نيويورك وميونيخ وهارفارد، وعمل فى الخارجية الألمانية، وعاش خمسين عامًا كاثوليكيًّا، ثم أسلم.

(٤) الأيتين (٢، ٣) سورة الكافرون.

(٥) الإسلام كبديل: د. مراد هوفمان تعريب عادل المعلم، دار الشروق، ط١، ١٩٩٧م، صـ٣١.

التكذيب به يقتضى السؤال، والفرق بين الوضوح والغموض إنما يقبع فى السؤال. الحكمة التى هى ضالة المؤمن تحتاج منه إلى السؤال، واقتحام المجهول أيضًا يستدعى السؤال. القرآن الكريم يحض على السؤال، ويرشد إلى من هو الأجدر للتوجه بالسؤال إليه فيقول فى موضعين منه:

﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾[1]،

السؤال ضرورة، وعليك أن تتوجه به إلى أهل الاختصاص لضمان سلامة البناء الذى سيقوم على أساس من الإجابة. السؤال يزيل الشك ويرفع الالتباس:

﴿ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾[2].

حرية الفكر تستلزم حرية السؤال، ولا حصول على إجابة إلا بعد السؤال. هناك قصة رجل خرج مع جماعة فى سفر بالصحراء، وأصيب بجرح فى رأسه، وسأل أصحابه الرخصة فى التيمم؟ فقالوا: ما نجد لك رخصة وأنت تقدر على الماء، فاغتسل، والتهب الجرح وساءت حالته، وتوفى منهم بالطريق، وعندما بلغت هذه القصة مسامع النبى ﷺ حزن حزنًا شديدًا؛ فقد كان عليهم أن يسألوا فى هذا الأمر، قبل الفتوى بدون علم، وقال: «قتلوه قتلهم الله، ألا سألوا إذا لم يعلموا، فإنما دواء العيىّ السؤال»[3] الشفاء من داء الجهل، يكمن فى التداوى بالسؤال.

على قاعدة من هذا المفهوم «كان القرآن، وكان الرسول فى أحاديثه يلبيان حاجات الأمة اعتقادية كانت أو تشريعية، أو خُلُقية، وكانت الأسئلة تترى إلى الرسول، فيجيب عنها الوحى القرآنى تارة، وتجيب عنها أحاديث الرسول تارة أخرى»[4].

وكانت حرية السؤال مكفولة، ولم يكن هناك شىء يمنع الناس من السؤال، والحصول على الإجابة «فقد سألوه عن الروح، وسألوه فى القدر، وسألوه عن

---

(١) الآية (٤٣) سورة النحل، الآية (٧) سورة الأنبياء.
(٢) الآية (٩٤) سورة يونس.
(٣) [ضعيف] أبو داود فى: الطهارة [٣٣٦]، وابن ماجه فى: الطهارة [٥٧٢]، وأحمد فى «مسنده» ج١/٣٣٠.
(٤) التفكير الفلسفى فى الإسلام، د. عبد الحليم محمود، مرجع سابق، صـ٦٩.

الأزل، وسألوه عن المصير، وسألوه عن الله، وعن الإيمان، والإسلام، والإحسان، والساعة. وسألوه عن الخمر والميسر، والمأكل والمشرب، والأهلّة، والمحيض، وسألوه عن كل ما كان يجول فى أذهانهم»[1]. سألوه عن إنفاق النقود، وعن الشهر الحرام، وعن اليتامى، وعن الحلال، وعن الحرام، لم يتركوا شاردة ولا واردة إلا سألوا عنها. بل وسألوه عن يوم الساعة وعن توقيته. وكانت الإجابات تتوالى:

﴿ يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴾[2]،

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ ﴾[3]،

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾[4]،

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ (*) ﴾ [5]،

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ ﴾[6]،

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ ﴾[7]،

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ ﴾[8]،

---

(1) المرجع السابق، صـ٦٩.
(٢) الآية (١٢) سورة الذاريات.
(٣) الآية (١٨٩) سورة البقرة.
(٤) الآية (٢١٥) سورة البقرة.
(*) العفو: ما فضل عن قدر الحاجة، كلمات القرآن تفسير وبيان، للشيخ حسنين مخلوف، دار المعارف.
(٥) الآية (٢١٩) سورة البقرة.
(٦) الآية (٢١٧) سورة البقرة.
(٧) الآية (٢١٩) سورة البقرة.
(٨) الآية (٢٢٠) سورة البقرة.

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾(١).

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۙ ﴾(٢).

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا (*) ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ(*) عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾(٣).

لقد سألوا الرسول فى كل شىء، حتى بلغ ببعضهم الأمر أن شابًا أتى الرسول يسأله أن يصرح لـــه بالزنا، وكاد الصحابة أن يفتكوا به، لولا أن حال الرسول بينهم وبين الشاب، وأجلسه، وسأله: «**أتحب أن يفعل ذلك بأمك؟» فقال الشاب: لا، فقال لـــه الرسول: «وكذلك الناس. أتحب أن يفعل ذلك بأختك؟» فقال الشاب: لا، فقال الرسول: «وكذلك الناس». ومازال به الرسول على هذا النحو، وصرفه وقال الشاب: انصرفت وما شىء أبغض إلى قلبى من الزنا**(٤).

الإجابة واجبة على من يعلم

الحرية فى السؤال مكفولة لكل الناس، لكن حرية الإجابة فى الإسلام من الحريات السالبة، بمعنى أنها تسلب من يملك الإجابة، من حرية كتمان الإجابة. الذى يملك العلم، أو يعرف جواب السؤال، عليه إذا سئل أن يجيب. وفى ذلك يقول القرآن:

---

(١) الآية (٢٢٢) سورة البقرة.

(٢) الآية (٤) سورة المائدة.

(*) أيان مرساها: متى اثباتها ووقوعها، كلمات القرآن تفسير وبيان، مرجع سابق.

(*) حفىٌّ عنها: باحث عنها، عالم بها، كلمات القرآن تفسير وبيان، مرجع سابق.

(٣) الآية (١٨٧) سورة الأعراف.

(٤) [صحيح] أحمد فى «مسنده» ج٥ ص٢٥٦-٢٥٧.

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ ﴾[1]، ويقول:

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾[2].

حرية الفكر، وحرية السؤال، تستلزم ضرورة الإجابة، فإن منعت، أو حجبت، أو تقاعست، أو رفضت، أو تلاهيت، أو كتمت، أو أتيت أى فعل يمنع الإجابة عن صاحب السؤال، فأنت آثم؛ لأن فى ذلك عدوانًا وافتئاتًا على حريات الآخرين فى المعرفة وهذا ظلم كبير، حتى ولو كان فى الامتناع عن الإجابة مصلحة متخيّلة، وقصة عبد الله بن أم مكتوم، وكان رجلاً أعمى مشهورة، وفيها يقول القرآن:

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴾[3].

يقول سيد قطب «هذه السورة قوية المقاطع، ضخمة الحقائق، عميقة اللمسات، فريدة الصور والظلال والإيحاءات، موحية الإيقاعات الشعورية والموسيقية على السواء»[4]. الأمر هنا جلل، هو تقاعس عن الإجابة على سؤال من يرغب التعلم، هو عدوان على الحرية شرط التكليف، وسبب الخلافة عن الله فى الأرض، وكان سبب نزول هذا الجزء من السورة أن «رسول الله ﷺ ، كان حريصًا على إسلام قريش، وكان يدعو أشرافهم إلى الله – تعالى –، ليسلموا فيسلم بإسلامهم غيرهم، فبينما هو مع رجل من عظمائهم، قيل هو الوليد بن المغيرة، وقيل عتبه بن ربيعة، وقيل أمية بن خلف، وقال ابن عباس: كانوا جماعة، إذ أقبل عبد الله بن أم مكتوم الأعمى، فقال: يا رسول الله علّمنى مما علّمك الله، وكرر ذلك وهو لا يعلم عنه

---

(١) الآية (١٨٧) سورة آل عمران.

(٢) الآية (١٤٠) سورة البقرة.

(٣) الآيات (١-١٢) سورة عبس.

(٤) فى ظلال القرآن، مرجع سابق، صـ ٣٨٢١

بتشاغله بالقوم، فكره رسول الله ﷺ قطع الأعمى كلامه، فعبس وأعرض عنه، وذهب الرجل .... ونزلت الآية، فكان رسول الله ﷺ إذا رأى ابن أم مكتوم بعد ذلك يقول: مرحبًا بمن عاتبنى فيه ربى، ويبسط لـــه رداءه، وقد استخلفه على المدينة مرتين..... ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴾

أى عبس فى وجه الأعمى وأعرض عنه، قال ابن عطية: فى مخاطبته (يعنى الرسول ﷺ) بلفظ الغائب مبالغة فى العَتب؛ لأن فى ذلك بعض الإعراض، وقال الزمخشرى: فى الإخبار بالغيبة زيادة فى الإنكار. وقال غيرهما: هو إكرام للنبى ﷺ وتنزيه لـــه عن المخاطبة بالعتاب وهذا أحسن .... وذِكرُ ابن أم مكتوم بلفظ الأعمى؛ ليدل أن عماه هو الذى أوجب احتقاره»[1]. انتهى. وفى وصف العلماء يقول أبو الدرداء «أفضل الناس المؤمن العالم الذى إن احتيج إليه نفع، وإن استغنى عنه أغنى نفسه[*]»[2]، وقـــال: « **يـــوزن يوم القيامة مداد العلماء بدم الشهداء**»[3]. لكن لابد كما أسلفنا لمن يعلم أن لا يكتم علمه، قال الرسول ﷺ: «**من علم علمًا فكتمه، ألجمه الله تعالى يوم القيامة بلجام من نار**»[4]، وقال صلى الله عليه وسلم: «**نعم العطية، ونعم الهدية، كلمة حكمة تسمعها، فتطوى عليها، ثم تحملها إلى أخ لك مسلم تعلمه أياها، تعدل عبادة سنة**»[5]. وروى أن سفيان الثورى – رحمه الله – قدم عسقلان، فمكث لا يسأله إنسان، فقال:«إكروا لى لأخرج من هذا البلد، هذا بلد يموت فيه العلم». وقال عطاء[6] ﷺ : دخلت على

---

(١) كتاب التسهيل فى علوم التنـــزيل، محمد بن أحمد بن جزى الكلبى، جـــ٣، ط١، ١٣٥٥هـــ، مطبعة مصطفى محمد صـــ١٧٨.

(*) [ضعيف] المغنى عن حمل الأسفار ٦/١

(٢) إحياء علوم الدين، الغزالى: حجة الإسلام أبو حامد محمد بن محمد بن أحمد الطوسى الشافعى، أحد الأعـــلام، تلميذ إمام الحرمين. قال ابن العماد: ما رأى الرجل مثل نفسه. توفى سنة (٥٠٥هـــ)، شذرات الـــذهب ج٤ صـــ١٠-١٣، ط دار الآفاق الجديدة، بيروت.

(٣) [ضعيف] ابن عبد البر فى «الجامع». ضعيف الجامع [٩٣٧/١]، [٦٤٤٧].

(٤) [صحيح] أحمد فى «مسنده» ج٢ صـــ٢٦٣، وأبـــو داود فى: العلـــم [٣٦٥٨]، والترمـــذى فى: العلـــم [٢٦٤٩]، وابن ماجه فى: المقدمة [٢٦٤].

(٥) [ضعيف جدًا] الطبرانى فى «الكبير» ٤٣/١٢.

(٦) عطاء: ابن أبى رباح أسلم أبو محمد أكملى، انتهت إليه فتوى مكة، وكان أسود أعرج أفطس أشل، قطعـــت يده مع ابن الزبير، ثم عمى. مات سنة (١١٤هـــ). طبقات الحفاظ ص ٤٥-٤٦، مرجع سابق.

سعيد بن المسيب[1] وهو يبكى، فقلت: ما يبكيك؟ قال: ليس أحد يسألنى عن شىء. لكن لا يعنى وجوب الإجابة أن تؤدى بنا إلى القول بغير علم، فالمشهور أنه (من قال لا أعلم أو لا أدرى فقد أفتى).

وقصة المرأة مع الإمام أبى حنيفة مشهورة، حين سألته عن عدد من الأسئلة، فأجاب عن معظمها بقولــه: لا أدرى، فقالت لــه المرأة مستنكرة: أيعطونك من بيت مال المسلمين لتقول لا أدرى أو لا أعلم. فأجابها: لا يا أمة الله ، إنهم يعطونى المال من بيت المال لقاء ما أعرفه، ولو أرادوا إعطائى على ما لا أعرفه، ما كفت كل أموال المسلمين.

صحة النهى عن البحث فى الروح

والسؤال عن الروح الذى جاء فى القرآن:

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[2]

كان مثارًا لخلاف شديد بين المفسرين «ذلك أن كثيرًا من المفسرين رأوا أن الآية إنما هى نهى عن البحث فى الروح، بمعنى النفس الإنسانية؛ لأنها من أمر الله، فالله – سبحانه وتعالى – وهى من أمره، هو وحده العالم بها»[3]، وقال آخرون: إن الروح فى الآية الكريمة هو القرآن بدليل قوله:

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ ﴾[4]،

ودليل سياق القرآن فى الآيات السابقة واللاحقة للآية (٨٥) من سورة الإسراء. أقول: حتى فى مثل هذا النوع من الأسئلة الشائكة، فلن تعدم من يحاول تقديم الإجابة. ينــفى الصوفى المجاهد أبو الحسن الشاذلــى، إن الآية (٨٥) من سورة

---

(١) سعيد بن المسيب بن حَزْن، سيد التابعين، قال محمد بن يحى بن حبان: كان رأس من بالمدينة فى دهره، ويقال: فقيه الفقهاء. مات سنة (٩٤هـ). طبقات الحفاظ صـ٢٥، مرجع سابق.

(٢) الآية (٨٥) سورة الإسراء.

(٣) أبو الحسن الشاذلى المجاهد والعارف بالله، د. عبد الحليم محمود، ١٩٦٧م، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر، صـ٥٧.

(٤) الآية (٥٢) سورة الشورى.

الإسراء، إنما هى نهى عن البحث فى الروح الإنسانية، وينفى أن العلم بالروح ليس متاحًا لبعض الخلق فيقول:

[﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾

فما الدليل لك منهما على جهل الصدّيقين، وأهل خاصة الله العليا. والكشف عن هذا، أن السؤال يقع بأربعة أدوات: بهل، وكيف، ولم، ومن. وهو يعنى أنهم لابد قد وجهوا إليه السؤال بواحد من أدوات السؤال الأربع السابقة.

إنهم وجهوا السؤال بواحد مما يلى:

١- هل الروح موجود؟ وهل يقع بها السؤال عن الشىء أموجود هو أو معدوم.

٢- كيف هو الروح؟ وكيف يقع بها السؤال عن حال الشىء.

٣- لم هو الروح؟ ولم يقع بها السؤال عن العلة.

ثم يقول: «وليس فى الآية شىء من هذا. فإنك إن قلت فيها معنى (هل) ومعنى (هل) يقتضى هل الروح موجود أو معدوم، وقد عرفوا وجوده فبطل هذا.

وليس فيها سؤال عن الحال كيف هو، ولا سؤال عن العلة لم كذا وكذا. ولو كان سؤالهم عن هذين لما قنعوا بقوله:

﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾

ولشغبوا وترددوا إذ ذاك شغلهم وعادتهم وإرادتهم. فثبت أن السؤال إنما كان عن الشىء من أين هو؟ بدليل الجواب والبيان الظاهر الشافى بقوله

﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾

إذ الرسول عالم بما سألوا عنه، فأجاب عن الله بذلك. كما تقول آدم نسألك عنه؟ وفهم المسئول السؤال فقال: آدم من تراب، فإذا رضى الجواب قنع وليس يرجع العدو إلا بفهم عظيم من الحق العظيم الذى لا مرد له. فكيف يزعم الزاعم أنه لا يُعرف ولا يجوز أن يُعرف (أى الروح)][*] انتهى

(*) ما بين العلامتين [ ] من كتاب الإمام الأكبر عبد الحليم محمود، أبو الحسن الشاذلى، مرجع سابق، صـ٥٧، صـ٥٨ بتصرف.

الإسراف فى السؤال

وكعادة الناس أسرف البعض فى استخدام حرية السؤال، فتجاوزوا الحد، وزادوا عن الحاجة، وألحفوا فى طلب التفاصيل، والحكمة من وراء حرية السؤال على عكس ذلك، من ذلك ما أخرجه الدارقطنى عن أبى عياض عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : «**يا أيها الناس كتب عليكم الحج». فقام رجل فقال: أفى كل عام يا رسول الله ؟ فأعرض عنه، ثم عاد فقال: أفى كل عام يا رسول الله ؟ فقال: ومن القائل؟»، قالوا : فلان. قال: «والذى نفسى بيده لو قلت: نعم لوجبت. ولو وجبت ما أطقتموها. ولو لم تطيقوها لكفرتم**»[1].

فأنزل الله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾[2]

وقيل إن مناسبة الآية أنهم سألوا الرسول ﷺ حتى أحفوه فى المسألة، وأغضبوه، ففى رواية لابن جرير - بسنده - عن أبى هريرة قال: خرج رسول الله ﷺ وهو غضبان محمر وجهه، حتى جلس على المنبر. فقام رجل إليه فقال: أين أنا؟ قال: فى النار فقام آخر فقال: من أبى؟ فقال: أبوك حذافة، فقام عمر بن الخطاب، فقال: رضينا بالله ربًا، وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ نبيًّا، وبالقرآن إمامًا. إنا يا رسول الله حديثو عهد بجاهلية وشرك، والله أعلم من آبائنا. قال: فسكن غضبه. ونزلت هذه الآية:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ ﴾

وقيل إن الذى سأل من أبى؟ قالت أمه: ما سمعت بابن أعق منك. ألأمنت أن تكون أمك قد قارفت ما يقارف نساء الجاهلية، فتفضحها على أعين الناس؟ فقال: والله لو ألحقنى بعبدٍ أسود للحقت به.. «إن المعرفة فى الإسلام إنما تُطلب لمواجهة

---

(١) [صحيح] مسلم فى: الحج [١٣٣٧]، وأبو داود فى المناسك [١٧٢١]، والنسائى فى: المناسك ج٥ صـ١١١، وابن ماجه فى: المناسك [٢٨٨٤]

(٢) الآية (١٠١) سورة المائدة.

حاجة واقعة، وفى حدود هذه الحاجة الواقعة، فالغيب وما وراءه تصان الطاقة البشرية، أن تنفق فى استجلائه واستكناهه. لأن معرفته لا تواجه حاجة واقعية فى حياة البشرية، وحسب القلب البشرى أن يؤمن بهذا الغيب، كما وصفه العليم به»[1].

ومن ذلك أيضًا السؤال فى الأخبار الموهمة للتشبيه فى حق الله: كاليد، والقدم، والنزول، والاستواء، فالمطلوب هو التقديس لله - تعالى - والتنزيه لـه عن الجسمية وتوابعها، وقد حذر القرآن من ذلك:

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾[2]،

السؤال فى هذه الأمور هو خوض فيما لا يلزم، وإيقاظ للفتنة.

إن الحق - تبارك وتعالى - يترك مساحات هائلة؛ ليزاول فيها الإنسان حريته، فمن غير المعقول أو المقبول أن نضيقها، ولذلك ففى الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: « **إن الله - تعالى - فرض فرائض فلا تضيعوها، وحد حدودًا فلا تعتدوها، وحرم أشياء فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء رحمة بكم - غير نسيان - فلا تسألوا عنها**»[3].

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّٗا ﴾[4]

وفى الصحيح أيضًا عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**ذرونى ما تركتكم. فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم، واختلافهم على أنبيائهم**»[5].

العقل مجال حريته فى رحابة الطبيعة، ومن خلالها، أما ما وراء الطبيعة فلا يقع تحت سلطانه، ومحاولة الزج به خارج حدود الطبيعة هى افتئات على حرية العقل والفكر، ووضع للشىء فى غير موضعه، بل وتجريد للعقل من أسلحته، وقتل

---

(١) فى ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، صـ٩٨٧.
(٢) الآية (٧) سورة آل عمران.
(٣) [ضعيف] الحاكم فى «المستدرك» ٢/١٢٢.
(٤) الآية (٦٤) سورة مريم.
(٥) [صحيح] مسلم فى: الحج [١٣٣٧]، وأحمد فى «مسنده» ج٢ صـ٢٤٧.

لحريته، وتكليفه بما لا يطيق. ولنضرب مثلاً لذلك بأحد الخبرات التى نقوم بها آلاف المرات فى حياتنا اليومية بيسر وسلاسة تجعلها تخفى على ملاحظة المدقق، فى الوقت الذى لا يستطيع العقل لها فهمًا، ولا يملك لها تفسيرًا: «ماذا يحدث مثلاً عندما يرى (سقراط) شجرة ؟ تدخل أشعة الشمس المنعكسة فى بؤبؤ عين سقراط، وتمر من خلال العدسة التى تركز الصورة مقلوبة ومصغرة للشجرة على شبكية العين، فتُحدث فيها تغيرات فيزيائية وكيميائية. فهل هذا هو الإبصار؟ كلا، إذ لو كان (سقراط) فاقد الوعى لأمكن تركيز تلك الصورة على شبكية عينه، محدثة نفس التغيرات الفيزيائية والكيميائية، ولكنه فى هذه الحالة لا يرى شيئًا. وبالمثل تركز آلة التصوير على صورة ما، فيتعرض الفيلم الموجود فى الآلة لتغيرات فيزيائية وكيميائية، ولكن آلة التصوير لا تبصر بالمعنى الحرفى الألوان والأشكال التى تسجلها.

أما إذا أردنا أن نفسر إبصار (سقراط) فنحن بحاجة إلى أكثر من ذلك كثيرًا. فالشبكية وهى صفحة من المستقبلات شديدة التراص (عشرة ملايين مخروط، ومائة مليون قضيب)، تبدأ حين ينشطها الضوء المنبعث من الشجرة، بإرسال نبضات إلى العصب البصرى، الذى ينقلها بدوره إلى قشرة الدماغ البصرية. وكل شىء إلى الآن قابل لأن يفسر بلغة الفيزياء والكيمياء. ولكن أين مكان اللون الأخضر من كل هذا؟ فالدماغ نفسه رمادى اللون أبيضه، فكيف يستطيع أن يتلقى لونًا جديدًا دون أن يفقد لونه السابق؟ وكيف يستطيع دماغ سقراط أن يبصر الضوء إذا كان دماغه مغلقًا ومعزولاً تمامًا عن أى ضوء؟ ويكون الأمر معقولاً لو أن سقراط حين وجه بصره نحو الشجرة، لم يحس إلا بأزيز من الكهرباء فى دماغه، لكن النشاط الكهربائى والكيماوى لدماغه، الذى يمكنه من الإبصار بطريقة ما، هو بالضبط ما لا يراه سقراط. وبدلاً من ذلك فسقراط عندما ينظر يرى الألوان والأشكال والحركات والضوء، وكلها بأبعادها الثلاثة. بل من العسير أن نتخيل كيف يمكن لأى من هذه الأشياء أن ينشأ عن المواد الكيماوية والكهرباء. وفى ذلك يقول شرنجتون: إن النظرة القديمة التى يسميها (مخطط الطاقة) يتناول الشجرة كواحد من الأشياء التى يمكننا مشاهدتها، ولكنه يسكت سكوتًا تامًا عن إدراك العقل لـــه.

وقد يقال إنه يوصلنا إلى عتبة فعل الإدراك ليودعنا هنا. وهو، فيما يبدو، ينقلنا إلى صميم المكان والزمان المرتبطين بالتجربة الذهنية، ولكنه لا يعطينا أى إشارة خفية أخرى»[1].

حرية العقل، وحرية الفكر، وحرية السؤال هى للبحث عن الحكمة، والحكمة هى وضع الشيء فى موضعه.

ثانيًا: حرية المجادلة

الحرية تؤدى إلى مزيد من الحرية، وتسعى إليها، وتؤكدها، فحرية الاعتقاد وحرية الفكر، وحرية الاختلاف، وحرية السؤال، تؤدى إلى حرية الجدال والمحاورة، وحرية الرأى، وحرية الاجتهاد، التى تثرى الفكر، وتغذى الاختلاف، والمحاورة والجدال، وتدعو إلى التعارف، فيرتقى الإنسان، ويزداد التقدم...

ولقد جادلت إحدى النساء الرسول، وعرضت قضيتها، ودافعت عن رأيها، وأصرّت على موقفها، الذى تراه عادلاً، فوصل صوتها وارتفع إلى ما فوق السماوات والأرض، واستصدرت الحكم لصالحها، ولا يزال حكمًا قائمًا إلى الآن، وحتى تقوم الساعة.

قيل إن اسم هذه المرأة «خولة بنت حكيم، وقيل خولة بنت ثعلبه، وقيل خولة بنت خويلد، وقيل اسمها جميلة، وكانت امرأة أوس بن الصامت[2] أخى عبادة بن الصامت[3]، فظاهر منها [(كان الرجل فى الجاهلية يغضب لأمر إمرأته فيقول: أنت علىّ كظهر أمى. فتحرم عليه، ولا تُطلق منه. وتبقى هكذا، لا هى حل لـــه فتقوم بينهما الصلات الزوجية، ولا هى مُطلقة منه فتجد لها طريقًا آخر. وكان هذا طرفًا من العنت الذى تلاقيه المرأة فى الجاهلية)][*]. وكان الظهار فى الجاهلية يوجب تحريمًا مؤبدًا، فلما فعل أوس ذلك، جاءت امرأته إلى الرسول ﷺ فقالت: يا رسول

---

(١) العلم فى منظورة الحديث، عالم المعرفة ١٣٤، صـــ ٢٧ إلى ٣٠ بتصرف عن:
SHERRINGTON P. 238.

(٢) أوس بن الصامت الأنصارى الخزرجى، شهد بدرًا، تهذيب الكمال ج١ صـــ٢٩٧.

(٣) عبادة بن الصامت، أبو الوليد المدنى، شهد العقبة الأولى والثانية، وشهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وكان من سادات الصحابة. مات سنة (٣٤هـــ). تهذيب الكمال ج٤ صـــ٦١-٦٣.

(*) ما بين العلامتين [ ] من تفسير فى ظلال القرآن، مرجع سابق، صـــ ٣٥٠٥.

الله، إن أوسًا أكل شبابي، ونشرتُ لــه بطني، فلما كبرت ومات أهلي، ظاهر مني. فقال رسول الله ﷺ: ما رأيتك إلا قد حرمت عليه. فقالت: يا رسول الله، لا تفعل ! إني وحيدة، ليس لي أهل سواه، فراجعها رسول الله ﷺ بمثل مقالته، فراجعته، فهذا هو جدالها. فاشتكت إلى الله وكانت تقول: اللهم إني اشكو إليك حالي وانفرادي وفقري، وروى أنها كانت تقول: اللهم إن لي منه صبية صغارًا، إن ضممتهم إليّ جاعوا، وإن ضممتهم إليه ضاعوا»[1].

فنزل القرآن:

﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَـٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝١ ٱلَّذِينَ يُظَـٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَـٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَـٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّـٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ۝٢ وَٱلَّذِينَ يُظَـٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٣ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۗ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[2]

وسميت السورة باسم المجادلة، وسمى الحكم بحكم الظهار. «قالت السيدة عائشة[3] - رضى الله عنها -: سبحان من وسع سمعه الأصوات، لقد كنت حاضرة، وكان بعض كلام خولة يخفى عليّ، وسمع الله كلامها. ونزل القرآن فى ذلك، فبعث الرسول ﷺ إلى زوجها وقال: أتعتق رقبة، فقال: والله ما أملكها، فقال: أتصوم شهرين متتابعين، فقال: والله ما أقدر، فقال لــه: أتطعم ستين مسكينًا. فقال: لا أجد، إلا أن يعيننى رسول الله ﷺ بمعونة وصلاة يريد الدعاء، فأعانه رسول الله

---

(١) كتاب التسهيل لعلوم التنـزيل، مرجع سابق، صـ١٠١.

(٢) الآيات (١-٤) سورة المجادلة.

(٣) عائشة: أم المؤمنين بنت أبي بكر الصديق - رضي الله عنهما - تزوجها رسول الله ﷺ بمكة في شوال قبل الهجرة بسنتين، ولم يتزوج بكرًا غيرها. توفيت سنة (٥٨هـ). صفة الصفوة ج١ صـ٢٥٩-٢٦٩.

ﷺ بخمسة عشر صاعًا، وقيل بثلاثين صاعًا، ودعا لـه، فكفَّر بالإطعام، وأمسك زوجته»[1]. جادلت السيدة رسول الله ﷺ ، وأصرّت حتى استنزلت حُكم الله ....

ثالثًا: حرية المناقشة

ولقد أخذ الرسول برأى عدد من الصحابة، فى كثير من الأمور، ونزل على رأيهم لما ناقشهم فيه واتضح لـه صوابه، ومن أشهر هذه الوقائع:

١- فى غزوة بدر، وبعد أن عسكر الرسول ﷺ بجيش المسلمين، فى موقع، فأتاه الحباب بن المنذر فقال: «يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل، أمنزل أنزلكه الله، فليس لنا أن نتقدمه أو نتأخر عنه؟ أم هو الرأى والحرب والمكيدة؟ فقال صلى الله عليه وسلم: بل هو الرأى والحرب والمكيدة. فقال الحباب: يا رسول الله، إن هذا ليس لك بمنزل! فانهض بنا حتى نأتى أدنى ماء من القوم – قريش – فننزله، ونُغَوِّر ما وراءه من القُلُب – الآبار – ثم نبنى عليه حوضًا، فنملؤه ماء، ونشرب ولا يشربون. فاستحسن الرسول رأى الحباب، وفعله»[2].

٢ – فى غزوة الخندق – سنة ٥ هـ – عندما اشتد الأمر على المسلمين فى المدينة المحاصرة، سعى الرسول ﷺ إلى عقد «معاهدة» مع قادة (غطفان)، وأهل (نجد)، يتخلون بموجبها عن حلفهم مع قريش، ويفكون حصارهم للمدينة، لقاء حصولهم على ثلث ثمار المدينة، وبعد أن تمت المفاوضات، وأعد مشروع المعاهدة، وقبل إمضائه استشار الرسول قائدى الأنصار سعد بن معاذ[3]، وسعد بن عباده[4]، فدار بينهم هذا الحوار الذى بدأه سعد بن معاذ:

- يا رسول الله ، أهذا أمر تحبه فنصنعه لك؟ أو شىء أمرك الله به فنسمع لـه ونطيع؟ أو أمر تصنعه لنا؟

---

(١) كتاب التسهيل، مرجع سابق، صـ١٠١

(٢) العلمانية ونهضتنا الحديثة، د. محمد عمارة، دار الشروق، ط ١٩٨٦م، صـ٥٤. عن ابن عبد البر (الدرر فى اختصار المغازى والسير) صـ١١٣. تحقيق د. شوقى ضيف. طبعة القاهرة ١٩٦٦م.

(٣) سعد بن معاذ، أسلم بالمدينة بين العقبة الأولى والثانية على يدى مصعب بن عمير، وشهد بدرًا وأحدًا والخندق، ورمى يوم الخندق بسهم، فعاش بعد ذلك شهرًا، ثم انتقض جرحه، فمات منه. تهذيب الكمال ج٣ صـ١٢٨-١٢٩.

(٤) سعد بن عبادة، سيد الخزرج، صاحب رسول الله ﷺ شهد العقبة وغيرها من المشاهد، واختلف فى شهوده بدرًا. مات سنة (١٦هـ). تهذيب الكمال ج٣ صـ١٢٤.

- بل أمر أصنعه لكم. والله ما أصنعه إلا لأننى قد رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة.
- يا رسول الله، والله لقد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان، وما طمعوا قط أن ينالوا منا ثمرة، إلا بشراء أو قرى - ضيافة - فحين أكرمنا الله بالإسلام، وهدانا لـــه، وأعزنا بك، نعطيهم أموالنا؟ والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم.
- فنزل الرسول مسرورًا، على رأى أصحابة، وعدل عن الرأى الذى كان ارتآه، وقال لقادة غطفان ونجد: انصرفوا، فليس لكم عندنا إلا السيف، وتناول الصحيفة - مشروع المعاهدة - فمحاها»[1].

٣- عندما دخل الرسول المدينة، وجد أهلها يأبرون - يلقحون - نخلها، فسأل:
- ما يصنع هؤلاء ؟
- قالوا: يأخذون من الذكر فيجعلونه فى الأنثى.
- قال: ما أظن ذلك يغنى شيئًا. فبلغهم فتركوه، فصار التمر شيصًا. فلما راجعوه فى الأمر، قال صلى الله عليه وسلم: «إنما هو الظن، إن كان يغنى شيئًا فاصنعوه، فإنما أنا بشر مثلكم، وإن الظن يخطىء ويصيب، ولكن ما قلت لكم: قال الله، فلن أكذب على الله، ما كان من أمر دينكم فإلىّ، وإن كان شأنًا من أمر دنياكم فشأنكم به، أنتم أعلم بأمر دنياكم»[2].

كان الرسول يشاور أصحابه، وينزل على رأيهم إذا رآه حسنا، فحرية إبداء الرأى كانت من ممارسات الحياة اليومية، ولو نظرنا إلى الرواية الأولى والثانية، لوجدنا أن إبداء الرأى كان بمبادرة من أصحابه، عندما تبين لهم أن ما يرونه يستحق إبداء الرأى لعدم اقتناعهم بصحته، على الرغم من حضور الرسول ﷺ، أما الرواية الثالثة، فالتوجيه يظهر بجلاء ضرورة إعمال العقل، وعدم الانقياد مهما كان مصدر التوجيه، طالما توافر العلم، وامتلكت الخبرة فى موضوع النقاش. لم يقف الأمر عند توفر حرية إبداء الرأى، ولكن أمر الحرية، والنزاهة الخُلُقية، والتجرد

---

(١) المرجع السابق، صـــ ٥٤،٥٥.
(٢) [صحيح] مسلم فى [٢٣٦٣]، وابن ماجه فى: الرهون [٢٤٧٠]، وأحمد فى «مسنده» ج٣ صـــ١٥٢.

العقلى امتدا من الاستماع إلى الرأى، إلى الأخذ به عندما تبين صوابه. ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل امتد إلى أن هناك من رد طلبًا للرسول عندما لم تتسع حرية القبول، ولا الإمكانات العاطفية للأخذ به، وذلك عندما حررت السيدة عائشة -رضى الله عنها - جاريتها (بريرة)، وأصبح لها أن تخلع زوجها الذى شغف بحبها، فطلب زوجها من الرسول ﷺ أن يتوسط لديها لئلا تتركه، فسألت (بريرة) الرسول ﷺ: أتأمرنى يا رسول الله ؟ فأجاب: إنما أنا شافع!! فقالت: لا حاجة لى به وفارقته(١). الحوار السابق كان بين الرسول الأعظم وبين امرأة كانت جارية لديه منذ ساعات، فما أجمل الحرية وما أجمل أخلاق الأحرار!

السنة التشريعية والسنة غير التشريعية

وإذا أمعنا النظر فى قصة تأبير النخل، نجد فى توجيه الرسول، بالنص الوارد فى هذه الرواية، أن هناك تمييزًا بين ما هو «دين» فيقول فيه (ما كان من أمر دينكم فإلىّ)، وما هو «دنيا» فيقول فيه «**وإن كان شيئًا من أمر دنياكم فشأنكم به، أنتم أعلم بأمور دنياكم**»(٢) لذلك هناك من المباحث التى صنفت السنة النبوية إلى ما يوضح هذا التمييز بين ما هو دين، وما هو من شأن الناس والدنيا، فقسموا السنة النبوية إلى:

١ – سنة تشريعية: وهى تمثل الثوابت الدينية، الواجب الالتزام بها مع اختلاف الزمان والمكان، وقسمها (الإمام القرافى) إلى:

أ – «تصرفات الرسول بالرسالة: أى بحكم كونه رسولاً يبلغ رسالة ربه، ويبشر وينذر بالوحى.

ب – تصرفات الرسول بالفتيا: أى المتعلقة بالفتاوى التى يفسر بها غامض الوحى، ويفصل بواسطتها مُجْمَلَه»(٣).

٢– سنة غير تشريعية: تمثل تصرفات الرسول فى الشئون الدنيوية، وكل ما

---

(١) [صحيح] البخارى فى : الطلاق [٥٢٨٣]، وأبو داود فى : الطلاق [٢٢٣١]، والدارمى فى: الطلاق [٢٢٩٢].

(٢) سبق تخريجه.

(٣) العلمانية ونهضتنا الحديثة، د. محمد عمارة، مرجع سابق، ص٦١

سكت عنه الوحى، وهى تختلف باختلاف الزمان والمكان، وقسمها (الإمام القرافى) إلى:

أ - «تصرفات الرسول (بالحكم) أى القضاء: وهى التى تتعلق بقضائه بين الناس فى المنازعات التى يتحاكمون إليه للفصل فيها.

ب- تصرفات (بالإمامة) أى السياسة: وتشمل كل أقواله وأفعاله وإقراراته الخاصة بالدولة والسياسة فى مختلف الميادين»[١].

بعد ذلك التقسيم يحدد الإمام أن السنة التشريعية بقسميها (أى التصرفات بالرسالة وبالفتيا) يدخلان فى باب الدين الواجب الاتباع، أما سنته غير التشريعية بقسميها (أى التصرفات بالقضاء والسياسة) فإن الاتباع يتحقق «بالتزامنا بالمعايير والمبادئ الكلية، والمقاصد والغايات التى حكمت تصرفات الرسول ﷺ فى كل من القضاء، والسياسة»[٢]. هناك مساحة هائلة لممارسة حرية الفكر، والنقاش، وحرية الرأى والاجتهاد.

السنة غير التشريعية، هى دعوة لحرية التفكير والاختلاف والنقاش وإبداء الرأى، وتدافع الآراء، واستلهام القصد، والقياس، والوصول إلى ما يدفع الحياة إلى الإمام، ويقدم الإجابات إلى الناس الحريصة على أن ترضى ربها، وحل إشكالية الفصام بين ما يعتقده الناس وما يمارسونه فى حياتهم اليومية، وما يفتقدونه من إجابات على الأسئلة التى تواجههم بها تعقيدات الحياة المعاصرة على مدار الساعة.

تجنب عقلية القطيع

وهناك من القضايا المصيرية، والأسئلة المهمة التى ينبه القرآن فى عظمة وشموخ أنها تستلزم التفكير الحر الفردى، أو الثنائى، أى الاستعانة بشخص آخر فقط، تجنبًا لأى مؤثرات تنشأ عن عقل جماعى، أو طغيان لهوىً جمعى، أو استفزازات التوجيه الجماهيري، حيث يقول جل وعلا:

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ ﴾[٣]

---

(١) العلمانية ونهضتنا الحديثة، د. محمد عمارة، مرجع سابق، صـــ٦١.

(٢) العلمانية ونهضتنا الحديثة، د. محمد عمارة، مرجع سابق، صـــ٦٢.

(٣) الآية (٤٦) سورة سبإ.

وفى ذلك يقول الزمخشرى[*] (إنما أعظكم بواحدة، إن فعلتموها أصبتم الحق وتخلصتم وهى: أن تقوموا لوجه الله خالصًا متفرقين، اثنين اثنين، وواحدًا واحدًا ثم تتفكروا. أما الاثنان فيتفكران ويعرض كل واحد منهما محصول فكره على صاحبه، وينظران فيه متصادقين متناصفين، لا يميل بهما اتباع هوى، ولا ينبض لهما عرق عصبية، حتى يهجم بهما الفكر الصالح والنظر الصحيح، على جادة الحق وسننه. وكذلك الفرد يفكر فى نفسه بعدل ونصفة، من غير أن يكابرها، ويعرض فكره على عقلة وذهنه وما استقر عنده من عادات العقلاء، ومجارى أحوالهم.

والذى أوجب تفرقهم مثنى وفرادى، أن الاجتماع مما يشوش الخواطر، ويمنع الرؤية، ومع ذلك يقل الإنصاف، ويكثر الاعتساف» انتهى.

رابعًا: حرية إبداء الرأى

حرية التعبير لا تحتاج منا إلى تقرير؛ لشهرة قصة عمر بن الخطاب، عندما جمع الناس فى المسجد، عندما لاحظ مغالاة الناس فى قيمة المهور مما يخشى معه العنت فى الزواج، وأراد تحديد سقف للمهور، فابتدرته امرأة مستنكرة ذلك، وتلت عليه:

﴿ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔا ﴾[1]،

فالقرآن يتحدث عن قنطار دون تحديد، فكيف يطلب ابن الخطاب التحديد؟ وكانت إجابة ابن الخطاب التى سجلها التاريخ: أخطأ عمر، وأصابت امرأة. ونزل عن المنبر وهو يتمتم: كل الناس أفقه من عمر. حرية التعبير كانت عفوية صارمة مطلوبة تمارس دون قيد، أو مماراة، أو منع أو تسفيه، أو تعال ... وفى الحقيقة كانت المشكلة تتمركز فى كثرة التجاوز عن الحد المعقول من الرعية، عند التعبير عن الرأى، فى وجه الحكام، فلم تكن هناك حماية للحكام من غلظة أسلوب التعبير عن الرأى من جهة المحكومين، ومع ابن الخطاب أيضًا نرى ذلك عندما «خرج عمر، ووقف يخطب الناس فقال: إذا رأيتم فىّ اعوجاجًا فقوموه ... فقال أعرابى:

(*) بتصرف

(١) الآية (٢٠) سورة النساء.

لو وجدنا فيك اعوجاجًا قومناه بحد السيف. فقال عمر: الحمد لله الذى جعل فى المسلمين من يقوِّم اعوجاج عمر بحد السيف»[1]، وكان المطلوب حماية الحاكم من فظاظة المحكومين عند ممارسة حرية التعبير.

ولانزال مع حرية التعبير عن الرأى، ومع عمر بن الخطاب «يلقاه قاتل أخيه (قاتل أخى عمر بن الخطاب)، وعمر ابن بيئة (داحس والغبراء) و(البسوس) وسائر (الأيام) أو الحروب التى كانت تشتعل أربعين عامًا من أجل (ثأر). يلقى عمر - وهو خليفة المسلمين - قاتل أخيه، فيغلبه حزنه ويقول لـه فى تلقائية بشرية:

- والله إنى لا أحبك، حتى تحب الأرض الدم المسفوح.

فيقول لـه: أوتمنعنى لذلك حقًا؟

فيقول عمر: لا

وهنا يقول القاتل: لا ضير، إنما يأسى على الحب النساءُ...» [2]

ممارسة الحرية تحتاج إلى نفوس كبار، فى تحملها وفى أخلاقها!.

إبداء الرأى واجب

وهناك من يرى - وأنا أؤيده - أن حرية التعبير عن الرأى وجوبية حيث يقول: «الجهر بالرأى واجب وليس مجرد حق أو رخصة»[3]، وذلك لإيجاب شريعة الإسلام على المسلمين أن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر ويقول: «الواقع أن تقرير واجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر يعتبر سبقًا تميزت به شريعة الإسلام فى مجال الحرية، ولم تصل إلى مثله بعد أية شريعة من الشرائع الوضعية» ويستطرد: «لحرية الرأى فى هذه الشريعة (الإسلامية) شقان: الإباحة والإيجاب. والفارق بينهما هو الفارق بين الواجب والمباح، ومن ثم فلا يحتاجان إلى كثير بيان. فمجرد إباحة أمر من الأمور (لا تلزم الناس بإتيانه، ولا توجب عليهم فعله وتركه) أما الواجب فهو (ما طلب على وجه اللزوم فعله، بحيث يأثم تاركه) [4]» حرية التعبير عن الرأى وجوبية، أوجبها الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وبذلك فإن

---

(١) من فلسفة التشريع الإسلامى، فتحى رضوان، صـ٢١٦.

(٢) من عبقرية الإسلام، د. نعمات فؤاد، صـ٨٠-٨١، مرجع سابق.

(٣،٤) فى النظام السياسى للدولة الإسلامية، د. محمد سليم العوا، دار الشروق، ط أولى، ١٩٨٩، صـ٢١٧.

على الإنسان المكلّف واجب إبداء الرأى، وإن لم يفعل يكون آثمًا مستحقًا للعقاب. للحرية أنياب ومخالب، لكن العبودية ظلم عظيم.

خامسًا: حرية الاجتهاد

الاجتهاد لغة هو: بذل الوسع[١]، ويعرّف الاجتهاد كمصطلح إسلامي بأنه: «هو بذل المجتهد – الذي يستجمع شروط الاجتهاد – وسعه، واستفراغه جهده في طلب المقصود من جهة الاستدلال؛ ليحصل له ظن بحكم شرعي .. وميدان هذا الاجتهاد فروع الشريعة يستنبطها المجتهد من أصولها التي ضمنها القرآن الكريم والسنة النبوية الثابتة»[٢]. أي أن الاجتهاد في شكله المجرد خارج الاصطلاح هو إعمال للفكر والاستدلال، واستخدام المناقشة والمجادلة – مع الآخر أو مع النفس – وصولاً إلى الرأي الذي يظن أنه الأقرب إلى الصواب، ثم إعلان هذا الرأي. فإذا سلمنا بوجود حرية للفكر والمناقشة والمجادلة وللرأي، وحرية للتعبير عن الرأي، فذلك يعني ببساطة حرية الاجتهاد. ومن نافلة القول أن من لا يبلغ درجة الاجتهاد والعلم في تخصص ما، لا يجوز له بداهة أن يبدي رأياً في هذا التخصص.

أجاز رسول الله ﷺ الاجتهاد، ووعد بالأجر عن الاجتهاد والخطأ، وبالأجرين عن الاجتهاد والإصابة، فقد قال رسول الله ﷺ : «من اجتهد برأيه فأصاب فله أجران، ومن أخطأ فله أجر واحد»[٣]. الإسلام هو المعتقد الوحيد – فيما أظن – الذي يعد بالثواب الأخروي على محاولة الاجتهاد، مما يحض أتباعه على ممارسة ذلك الحق، والقيام بهذه الحرية. وحديث الرسول ﷺ إلى معاذ حينما بعثه إلى اليمن فقال: «بم تحكم؟ قال: بكتاب الله. قال فإن لم تجد؟ قال: فبسنة رسول الله. قال: فإن لم تجد؟ قال: اجتهد ولا آلو. فقال: الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يحبه ويرضاه»[٤]. الله يحب ويرضى لعبده الاجتهاد وعدم التقصير في ذلك.

---

(١) مختار الصحاح ص ١١٤ مرجع سابق.
(٢) في المنهج الإسلامي د. محمد عمارة. المعهد العالمي للفكر الإسلامي سلسلة المنهجية الإسلامية (٤) ص٦٥ ط١ ١٩٩١م.
(٣) [صحيح] البخارى فى: الاعتصام (٧٣٥٢)، ومسلم فى: الأقضية (١٧١٦)
(٤) [حسن] أبو داود فى: الأقضية [٣٥٩٢]، وأحمد فى «مسنده» ج٥ ص٢٣٠، وحسنه الشيخ حمزة أحمد الزين.

بل إن هناك من الناس من ملك نفسه، وتحرر من هواه، وتمكن من العلم، فله أن يجتهد لنفسه ولا يلتفت إلى فتاوى الآخرين، فعن وابصة بن معبد[1]: أنه قال: رأيت رسول الله ﷺ، وأنا أريد ألا أدع شيئاً من البر والإثم إلا سألت عنه، فقال له: «إدن يا وابصة، فدنوت منه حتى مست ركبتي ركبته فقال له: يا وابصة أخبرك عما جئت تسأل عنه. قلت: يا رسول الله أخبرني قال: جئت تسأل عن البر والإثم، قلت: نعم، فجمع أصابعه الثلاث، فجعل ينكت بها في صدري ويقول : يا وابصة استفت قلبك: البر ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب، والإثم ما حاك في القلب وتردد في الصدر، وإن أفتاك الناس وأفتوك»[2].

وقد تطورت الدنيا بشكل مذهل، وتعقدت أمور الحياة بشكل هائل، وتسارعت خطى العلم بخطوات جبارة، وأصبحت أعداد الناس تقدر بآلاف الملايين، وتعددت الأقضية وتعقدت، وبدأت المسائل تظهر بفواصل زمنية تقاس باللحظات، وأصبح الاجتهاد فوق طاقة الأفراد، بله الجماعات، وأضيفت إلى الحاجة إلى الفقه الشرعي، حاجات من الفقه بمعناه الحرفي لا الاصطلاحي من فقه العلوم الاجتماعية والإنسانية والسلوكية والقانونية والفيزيائية والهندسية والطبية، إلى آخر سلسلة التخصصات التي لا يكفي مداها عن الاتساع؛ لتواصل ظهور الجديد من المعرفة بإشكال لم تعهدها الإنسانية من قبل، فالاجتهاد الآن يحتاج إلى عمل مؤسسات ضخمة، ذات إمكانيات هائلة، يشترك فيها كل الناس حسب نوعية معرفتهم، ولا أجد ما أختم به هذه الفقرة ، أفضل من أن أختمها بما أسهم به الدكتور كمال أبو المجد[3] في هذا الصدد بقوله:

١ - إن الشريعة غير الفقه، فالشريعة هي مجموع أحكام الله - تعالى - الثابتة عنه وعن نبيه ﷺ، والتي تنظم أفعال الناس، ومصدرها كتاب الله وسنة نبيه، أما الفقه فهو عمل الرجال في الشريعة استخلاصاً لأحكامها، والطاعة الواجبة على المسلم إنما هي طاعة الشريعة، وليست طاعة الفقه ورجاله؛ لذلك كان أبو حنيفة

---

(١) وابصة بن معبد بن الحارث الأسدى. وفد على النبي ﷺ سنة تسع، وروى عنه. مات بالرقة. الإصابة فى تميز الصحابة ج٦ صـ٣٠٩-٣١٠، ط دار الكتب العلمية ، وتهذيب الكمال ج٧ صـ٤٤٦، ط مؤسسة الرسالة.

(٢) من فلسفة التشريع الإسلامي ص ١٤٠، مرجع سابق.

(٣) حوار لا مواجهة د. كمال أبو المجد طبعة جديدة مزيدة دار الشروق ١٩٨٨ ص ٨٨- ٩١

ﷺ يقول: « إن الأمر إذا جاء عن الله – تعالى – أو عن نبيه ﷺ فهو على العين والرأس ، وإذا جاء عن الصحابة فاختلفوا فيه، اختار من آرائهم، لأنهم بصحبتهم للنبي، وأخذهم عنه، لن يفوتهم الحق مجتمعين، ولن يخرج عن آرائهم مختلفين .. أما إذا انتهى الأمر إلى التابعين وتابعي التابعين، فقد قال رضي الله عنه «هم رجال، ونحن رجال».

٢ – إن مجال الاجتهاد في التشريع واسع وكبير؛ لأن ما لم تتناوله النصوص كثير بالقياس إلى ما تناولته، وليس ذلك كما يتوهم البعض – قدحًا في الشريعة ولا هو نيل من قول الله تعالى:

﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾[1]

بل هو آية الحكمة ودليل الكمال في شرع الذي خلق الإنسان، والذي يعلم – له المثل الأعلى – أن العالم يتطور، وأن مشاكل الناس تتبدى في قوالب جديدة .. إن من حق بعض الناس أن يعجزوا عن رؤية الدنيا وهي تدور، ويتصورن أن من حقهم أن يضربوا بين المسلمين وبين سائر العالم بسور غير ذي باب، أو يتخيلوا استغناء المسلمين عن الاجتهاد، أولئك يحرثون في البحر ...

٣ – إن الواقعة الاجتماعية هي السند المادي لكل نشاط تشريعي فقهي، لأن التشريع ليس نظرًا فلسفيًا، ولا رياضة عقلية، إنما هو رعاية لمصالح الناس بسلطان الحكم. وحين يمارس الاجتهاد، وتعرض على المشرع والفقيه (في كل التخصصات)[2] ورجل السياسة، حلول متعددة تقبلها الشريعة الإسلامية فإن الاختيار لابد أن يحكمه فهم الواقع الاجتماعي، حتى تأتي ثمرته رحمة حقيقية للناس.

سادسًا: واجب الشورى:

الشورى والمشاورة والاستشارة هي طلب للرأي، وحرية الرأي، وحرية إبداء الرأي تستلزم وجوب الشورى. وقد أوجب الله – واهب الحرية للإنسان – الشورى على رسول الله ﷺ حين قال له:

---

(١) الآية (٨٩) سورة النحل.

(٢) ما بين القوسين إضافة من عندي

﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ﴾[1]،

كما أوجبه على المسلمين بقوله – تعالى –:

﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾[2].

ويقول الرسول ﷺ : «**إذا استشار أحدكم أخاه فليشر عليه**» رواه ابن ماجه[3]، ويقول أيضًا: «**المستشار مؤتمن**» رواه أبو داود والترمذي[4]. ويؤكد صلى الله عليه وسلم على أهمية الشورى قائلاً: «**ما شقى قط عبد بمشورة، وما سعد باستغناء رأي**»[5].

قضية وجوب الشورى، ومدى إلزامها من القضايا التي لم تنته المناقشة والمجادلة فيها بين الأقدمين، وأيضاً بين المحدثين، ولم يتم حسمها حتى وقتنا هذا، ونرى أن البداية لسلوك الطريق لحل هذه القضية هي في إسهام الدكتور كمال أبو المجد[6]، حيث يقول:

١ – إن الإسلام أقر الشورى وأمر بها، واعتبرها أصلاً من أصول الحكم وسياسة الناس، ولكنه لم يفصل أحكامها، وإن الأمر في هذا يختلف باختلاف أحوال الأمة الاجتماعية في الزمان والمكان، وهو لا يمكن أن يوافق كل زمان ومكان.

٢ – إن مناقشة قضية الشورى في إطار المباحث التي صاغها علماؤنا الأوائل، والانحصار في تقسيماتهم لتلك المباحث، أمر غير سائغ دينًا ولا عقلاً، وإن الواجب لذلك البدء بتحليل المشكلة وتحليل جوانبها، ثم البحث عما عالجته النصوص القرآنية والنبوية من هذه المشاكل، والاجتهاد فيما لم تعالجه وهو الأكثر الغالب.

٣ – إن الترجيح بين الآراء المختلفة لا يجوز أن يستند إلى النصوص وحدها، وإنما لابد أن تسنده خبرة تشريعية وسياسية واجتماعية، فالنصوص هنا لا تعالج سلوكًا فرديًا لآحاد المكلفين، وإنما تنظم إطارًا دستوريًا وسياسيًا لأنه تنظيم

---

(١) الآية (١٥٩) سورة آل عمران.

(٢) الآية (٣٨) سورة الشورى.

(٣) [ضعيف] ابن ماجه في : الأدب [٣٧٤٧].

(٤) [ضعيف] أبو داود في: الأدب [٥١٢٨]، والترمذي في: الأدب [٢٨٢٢].

(٥) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ج ٤ ص ٢٥١عن المنهج الإسلامي مرجع سابق ص ١٠٠ – ١٠١.

(٦) حوار لا مواجهة د. كمال أبو المجد ص ١١٨ – ١١٩ مرجع سابق.

الملايين، ولا يمكن التصدي لتطبيق تلك النصوص بعيدًا عن الخبرة المتراكمة للشعوب المسلم منها وغير المسلم. انتهى.

ينتظر المسلمون في قضيتي الاجتهاد والشورى - عملاً ضخمًا هائلاً وعليهم بذل جهد قد تنوء به الجبال، وإن لم يفعلوا فقد يكون في ذلك - في زعمي - الحد الفاصل بين إيجاد موضع لقدم بين الأمم، والعودة للدخول إلى ركب التاريخ المتحرك، بعد أن طال جلوسنا على هامشه، قبل أن نقع خارجه،وبين أن يسري علينا قول الله - تعالى -:

﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۝ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾[1]،

أو قوله - جل شأنه -:

﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم ﴾[2]

فهل من رجال؟

لكل مقام مقال، لكنى هنا أنا أتحدث عن الحرية، والحرية هي أصل وجوب الاجتهاد، ووجوب الشورى.

بعد كل ما سبق لايزال هناك من يتكلم عن المستبد المستنير ؟!! وعن إخراس الألسنة بالحق الإلهي..

والحق - تبارك وتعالى - يقول:

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾[3]

حق العمل، وحق المرء في سؤال دولته تقديم خدمات له

الإنسان كائن مكلف كما قال الأستاذ العقاد بحق، وما يسمى في الفكر الإنساني بحقوق الإنسان، تجده واجبات على الإنسان المسلم المكلف، وما أعنيه هنا أن حق الإنسان يرتفع مع الإسلام إلى أن يصبح واجبًا عليه، يأثم إن تقاعس عن أخذه أو العمل به، ولا يصح له أن يتعامل معه على أنه من حقوقه إن شاء أخذها وإن

---

(١) الآيتان (١٩، ٢٠) سورة إبراهيم.

(٢) الآية (٣٨) سورة محمد

(٣) الآية (١٧) سورة القمر.

شاء تنازل عنها، وهذه قضية تتطلب أن يُفْرَدَ لها مبحث أخر. وكما اشتمل التكليف الإلهي كما أسلفنا على الجانب التعبدي

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[1]،

فقد تضمن هذا التكليف أيضاً:

﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾[2]

واستعمركم تعني «طلب منكم الإعمار»، أي التنمية، أي العمل. العمل إذن واجب على الإنسان المكلف كواجب العبادة؛ لأن «الطلب المطلق من الله - تعالى - على الوجوب، أي أن هذا الطلب هو أمر من المولى - جل شأنه - بعمارة الأرض واستثمار ما فيها والانتفاع بخيرها»[3]. إذا كان العمل هو واجب تكليفي على كل مسلم، فلابد من إلقاء نظرة سريعة، على بعض الأفكار الأساسية للاقتصاد من وجهة تعاليم الإسلام؛ لنرى كيف يمكن أن تتوافر فرص العمل لكل مكلف، حتى يؤدي واجبه نحو خالقه. نوجز هذه البنية الفكرية في الاقتصاد لخلق فرص العمل فيما يلي:

١ - الأرض أرض الله لقوله - تعالى -:

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[4]

وقوله:

﴿ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ﴾[5] والإنسان هو خليفة الله في الأرض.

٢ - المال مال الله، ويد الإنسان على المال يد استخلاف وأمانة لقوله:

﴿ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾[6]، وقوله:

---

(١) الآية (٥٦) من سورة الذاريات.

(٢) الآية (٦١) سورة هود.

(٣) تدخل الدولة في النشاط الاقتصادي في إطار الاقتصاد الإسلامي. د/ محمد فتحي صقر سلسلة وعي اقتصادي إسلامي ١٩٨٨ ص ٥٠عن المنتخب في تفسير القرآن - وزارة الأوقاف - ج٦ أغسطس ١٩٦٨.

(٤) الآية (١٨٩) سورة آل عمران.

(٥) الآية (٧٣) الأعراف.

(٦) الآية (٧) سورة الحديد

﴿ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ﴾[1].

٣ - الناس سواسية وشركاء في مصادر الثروة العامة لقول الرسول ﷺ : «**المسلمون شركاء في ثلاثة: في الماء والنار والكلأ**»[2] والنار تعني مصادر الطاقة، والكلأ يعني الإنتاج الزراعي أو الصناعي.

٤ - في المال حق الزكاة، يدفعها الغني للفقير في مصارفها كعبادة مالية.

٥ - في المال حق آخر غير الزكاة

وقد سُئل الرسول ﷺ: «**هل في المال حق غير الزكاة، فأجاب: نعم ثم تلى الآية:**

﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ....... ﴾[3]»[4].

ونلاحظ أنه ذكر (آتى المال) ثم ذكر بعد ذلك (وآتى الزكاة)، وقيل: إن الزكاة هي الحق المعلوم في قوله:

﴿ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۝ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴾[5].

والحق الآخر في المال هو المذكور في الآية الأخرى:

﴿ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴾[6]

٦ - حرم الإسلام الاكتناز،

وتوعد من يفعل ذلك في قوله:

---

(١) الآية (٣٣) سورة النور

(٢) [صحيح] أبو داود في: البيوع [٣٤٧٧]، وابن ماجه في: الرهون (٢٤٧٢)، وأحمد في «مسنده» ج٥ صـ٣٦٤.

(٣) الآية (١٧٧) سورة البقرة.

(٤) [ضعيف] الترمذي في: الزكاة [٦٥٩].

(٥) الآية (٢٥) من سورة المعارج.

(٦) الآية (١٩) سورة الذاريات.

﴿ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[١].

وهاجم الشح والبخل:

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ﴾[٢]

وفي هذا حث وحض على الاستثمار والإنفاق.

٧ – ربط ملكية الأرض بالانتفاع، والانتفاع بالعمل،

فقال الرسول «**عادى**[*] **الأرض لله ورسوله، ثم هي لكم (أي تقطعونها الناس)**»، ثم قال «**من أعمر أرضًا ليست لأحد فهو أحق بها**»[٣]. وقيد احتجار الأرض دون إحياء بمدة ثلاث سنوات بقوله: «**عادى الأرض لله وللرسول ثم لكم من بعد، فمن أحيا أرضا ميتة فهى له، وليس لمحتجر حق بعد ثلاث سنين**»[٤].

٨ – المنافسة تعاونية، وليست منافسة قطع الرقاب،

لقوله – تعالى –:

﴿ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾[٥]،

﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ ﴾[٦]

وقول الرسول ﷺ: « **من سره أن ينجيه الله من كرب يوم القيامة فلينفس عن معسرا أو يضع عنه** »[٧]

كما لا ننسى أن أحد مصارف الزكاة، تصرف "للغارمين" أي الذين أرهقتهم الديون، ولا يستطيعون دفعها.

---

(١) الآية (٣٤) سورة التوبة.

(٢) الآية (١٨٠) سورة آل عمران.

(*) عادى الأرض: قديمها الذي من عهد عاد، والعادى كل أرض لها ساكن في أبادى الدهر فانقرض، فلم يبق منهم أحد فصار حكمها للإمام.

(٣) [صحيح] البخارى فى: الحرث والمزارعة [٢٣٣٥].

(٤) [ضعيف] البيهقى فى: السنن الكبرى ج٦ صـ١٤٣.

(٥) الآية (٢٣٧) سورة البقرة.

(٦) الآية (٢٨٠) سورة البقرة

(٧) [صحيح] مسلم فى: المساقاة [١٥٦٣].

٩ - تحريم الاحتكار، وأنواع البيوع الضارة، وتحريم الربا، حثًا لتوظيف الأموال واستثمارها، ودعمًا لقاعدة أن المال المكتسب يجب أن يأتي من عمل فعلي، وأنه لا انتفاع إلا بعمل. الإنسان المكلف لابد أن يكون إنساناً مضيفًا للقيمة، هذا هو أساس وجوده الفعلي.

إذا التزم الإنسان المكلف كأفراد وجماعات بما سبق يصبح من حقه على الدولة، أن توفر لـه واجبًا ولا نقول حق العمل، وتوفر لـه واجبًا ولا نقول حق الخدمات، وقد كان هذا المفهوم جليًا منذ الرعيل الأول، وفي ذلك يقول الرسول ﷺ «**أنا أولى بكل مؤمن من نفسه، من ترك مالاً فلأهله، ومن ترك دَيْنا أو ضياعا فإلى وعلى**»[1] أي أن الدولة مسئولة عن ديون وورثة المسلم الفقير، وقول عمر بن الخطاب: «إنى حريص على ألا أدع حاجة إلا سددتها ما اتسع بعضنا لبعض، فإذا عجزت تأسّينا في عيشنا حتى نستوى في الكفاف»[2]. وقد كتب عمر بن الخطاب إلى حذيفة: أن أعط الناس أعطيتهم وأرزاقهم. فكتب إليه حذيفة: أنَّا قد فعلنا وبقى شيء كثير، فكتب إليه عمر: إنه فيئهم الذي أفاء الله عليهم، ليس هو لعمر ولا لآل عمر فأقسمه بينهم»[3] ومسئولية الدولة في تقديم الخدمات وتوفير حق العمل، واضحة في ذهن عمر بن الخطاب، حيث يقول: «إن الله استخلفنا على عباده لنسد جوعتهم، ونستر عورتهم، ونوفر لهم حرفتهم»[4]، وتأمل معي رسالة الخليفة على ابن أبي طالب إلى والي مصر: «ليكن نظرك في عمارة الأرض، أبلغ من نظرك إلى استجلاب الخراج؛ لأن ذلك لا يُدرك إلا بالعمارة، ومن طلب الخراج بغير عمارة، أخرب البلاد، وأهلك العباد، ولم يستقم أمره إلا قليلاً، ولا يشغلن عليك شيء خففت به المؤونة عنهم، فإنه ذخر يعودون به عليك، في عمارة بلادك، وتزيين ولايتك»[5] وكلمة العمارة في رسالة الإمام على لا تعنى إلا العمل وتوفير فرص العمل للناس.

---

(١) [صحيح] البخارى فى: الفرائض [٦٧٣١]، ومسلم فى : الفرائض [١٦١٩].

(٢) د. فتحي صقر مرجع سابق ص ٨٠.

(٣) د. فتحي صقر ص ٦٧ عن البلاذرى.

(٤) د. فتحي صقر ص ٥٢ عن الغزالي ظلال من الغرب.

(٥) د. فتحي صقر ص ٥٢ عن الغزالي ظلال من الغرب دار الكتاب العربي ص١٣٩ نقلا عن شوقي دنيا الإسلام والتنمية الاقتصادية، دار الفكر ط١ ١٩٧٩ ص ٢٣١.

في إطار المنظومة الفكرية الإسلامية، والتزامًا بمنهجها الاقتصادي، عندما يلتزم الإنسان المسلم، ويلزم نفسه باتباع المنهج، فتوفر لـــه الخدمات الاقتصادية التي تعين على مزيد من حرية وفرص العمل والكسب، ويصبح من حقه على الدولة:

أ - توفير البنية الأساسية والمرافق العامة: فقد اهتم الحكام المسلمون في البلدان المفتوحة بحفر الآبار، وشق الترع، وإقامة السدود، وتعبيد الطرق، وقـــد خصـــص عمر بن الخطاب « ثلث إيراد مصر لعمل الجسور والترع وري الأرض»[١]، وهو القائل عن مسئولية الدولة عن رصف الطرق: «لو أن بغلة عثرت بشـــط الفـــرات لسئل عنها ابن الخطاب لِمَ لمْ تعبد لها الطريق»[٢].

ب - تنظيم استغلال الأراضي المهملة واستصلاح الأراضي، وقد سبق الإشارة إليه.

جـــ - تشجيع الاستثمار.

وما سبق بيانه لا يؤدي إلا إلى ذلك، إضافة إلى الحث المباشر على توظيف الأموال في الاستثمار. فمن أقوال الرسول في هذا الشأن: «**من باع دارًا لم يجعل ثمنها في مثلها لم يبارك لـــه فيها**»[٣]، وقوله: «**الشاة في البيت بركة، والشاتان بركتان، والثلاث ثلاث بركات**»[٤]، كما قال لمن هم يذبح شاة «**إياك والحلوب**»[٥]. وكان المسلمون الأوائل يدعون إلى تلافي تكوين فائض في الميزانية العامة؛ لتحفيز الأفراد على المزيد من الاستثمار والإنتاج، وقد قال الإمام على لواليه: « تُقَسم كل سنة ما اجتمع إليك من مال ولا تمسك منه شيئا»[٦].

العمل لازم لأداء الزكاة والحج

العبادات في الإسلام هي: الصلاة والصوم الزكاة والحج، وهي الأعمدة التي

---

(١) مرجع سابق ص ٥٩

(٢) مرجع سابق ص ٥٩

(٣) [حسن] ابن ماجه ف: الرهون [٢٤٩٠ و٢٤٩١].

(٤) [ضعيف جدًا] العلل المتناهية ج٢ صـــ١٧٤.

(٥) [صحيح] مسلم ف: الأشربة [٢٠٣٨].

(٦) السيوطي، مرجع سابق.

بنى عليها الإسلام لقول النبي ﷺ: «**بني الإسلام على خمس، شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وأقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً**»[١]، ونلاحظ أن اثنين من هذه الأعمدة الخمس، وهما الزكاة والحج، هما عبادتان أولاهما مالية، والأخرى مالية بدنية (الحج). ويشترط للزكاة توافر كمية مدخرة من المال بقدر محسوب (النصاب)، يمر على ادخارها عام كامل (يحول عليها الحول)، وهذا الادخار يستلزم العمل الذي ينتج عنه قيمة تكفي للإنفاق، وادخار يتعدى النصاب، كما أن الحج يستلزم أيضًا النفقة بالتالي، فلا يستطيع الإنسان المسلم أن يستكمل أعمدة الإسلام الخمس إلا بالعمل، والعمل الجاد المثمر الذي ينتج فائض القيمة الذي يسع الإنسان ويتيح الادخار.

العمل والإيمان

كما أن العمل هو دليل الإيمان؛ لذلك لا يذكر الإيمان في القرآن إلا مقرونًا بالعمل، ويقول الرسول «**الإيمان ما وقر القلب، وصدقه العمل**»[٢]. الإيمان يؤدي إلى العمل:

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ﴾[٣]،

والعمل يؤدي إلى الإيمان

﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾[٤].

هي جدلية تصاعدية في مسيرة الإنسان للترقي من الطين والتراب، إلى الإنسان الرباني

﴿ وَلَـٰكِن كُونُوا۟ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾[٥].

العمل هو مظهر تجلي الإيمان في الواقع الخارجي، وأسلوب تغيير الطبيعة، وخلق المعادل الموضوعي للتصور الاعتقادي داخل الطبيعة، وبين الناس.

---

(١) [صحيح] البخارى ف: الإيمان [٨]، ومسلم ف: الإيمان [١٦].

(٢) سبق تخريجه.

(٣) الآية (٤٢) سورة الأعراف.

(٤) الآية (١١٢) سورة طه.

(٥) الآية (٧٩) سورة آل عمران.

العمل والتزكية

كما أن العمل وسيلة من وسائل تزكية النفس، وبناء الذات «العمل يعني إلغاء دور الطبيعة على يد الإنسان، العمل هو بطولة الإنسان في مواجهة الطبيعة، فالإنسان يسلب الطبيعة سلطاتها ويبدلها بسلطته هو، وهذا العمل المادي والعمل الاجتماعي على نفس هذا النسق، فالإنسان بعمله يغير مجتمعه ويصنعه، والعجيب أن الإنسان يُصنع في الوقت الذي يصنع فيه»[١].

حرية العمل، تؤدي إلى حرية الإنسان الفرد، وحرية الإنسان الفرد تؤدي إلى مزيد من العمل، وهكذا في مسيرة الإنسان الذي خلق ليحيا لا ليموت، وتلك هي القضية.

تعالوا معي إلى هذه القصة «حكى الدس هكسلى عن تشنك النجار الصيني الذي نحت من الخشب حاملاً موسيقيًا رائعًا. ولما سأله الأمير مبهورًا: كيف صنعت هذا؟ قال: عندما أكون على وشك البدء في عمل مثل هذا، أخلص نفسي من كل ما ينتقص من حيويتي (معسكر شخصي)، وأمضي أيامًا في هدوء لأخلص عقلي:

ثم أياماً أخرى أنسى فيها الأجر.

ثم أنسى الشهرة.

ثم أفقد إحساسي بأطرافي الأربعة

ثم أنسى «البلاط»

ثم تتجمع خبرتي وتتمركز.

وأخرج إلى الغابة، واستحضر قدراتي في مناسبة قُدرات الخشب (زواج بين المادة والإنسان).

ثم أبدأ[٢]

.... ما أرفع الذات الحرة !.

---

(١) بناء الذات الثورية : على شريعتى من كتاب الثورة الإيرانية مرجع سابق صـ١٦٣.

(٢) من عبقرية الإسلام د نعمات فؤاد دار المعارف ١٩٨٣ ص ٣١ - ٣٢

حق التنقل أو الانتقال

السير للعبرة

إذا كانت القاعدة، أن الأرض هي أرض الله لقوله

﴿ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ﴾[1]،

وأن الإنسان هو خليفة الله في الأرض

﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾[2]

ويقول:

﴿ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾[3]

وتُذكر الخلافة في معظم الآيات بالجمع، مما يعني حق البشر جميعاً في الاستخلاف، ويعني حق البشر جميعاً في أرض الله، بالتالي لا يجب أن تعنى التقسيمات السياسية، أو الاجتماعية، أو الاقتصادية، أو حقوق السيادة حرمان أي إنسان حرية الانتقال أو من حق الوصول إلى أي أرض يريد، تحت دعوى الانتماء لعرق أو جنس أو ديانة، أو أيٍّ من التصنيفات التي تبدعها الدعاوى البشرية. وحق التنقل من الحقوق التي كفلها الإسلام وحض عليها في العديد من الآيات بالقول:

﴿ قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ ﴾[4]

وقولـــه

﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾[5]،

وقد أسلفنا أن الطلب المطلق من الله - تعالى - هو على الوجوب أى عندما يأتى الطلب من الله بالأمر « سيروا » فهذا يعنى وجوب السير والحركة والتنقل على الإنسان المكلف. لقد تحول حق التنقل والانتقال إلى واجب الحركة والتنقل في جنبات الأرض.

---

(١) الآية (٧٣) سورة الأعراف.

(٢) الآية (٣٠) سورة البقرة.

(٣) الآية (٣٩) سورة فاطر

(٤) الآية (١١) سورة الأنعام.

(٥) الآية (١٣٧) سورة آل عمران.

واجب الانتقال مطلوب في الآيات أعلاه لأخذ العبرة، أي الاطلاع على تجارب الآخرين، كيف بدأت وسارت، وإلام آلت العاقبة، والاعتبار من دواعي الحكمة؛ لأنه يعني الاستفادة من تجارب الآخرين، بتبني مكامن القوة، واجتناب أسباب الضعف والاضمحلال؛ لذلك جاء الأمر في القرآن واضحاً

﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ ﴾[1]،

والآية (٢٠) من سورة العنكبوت تأمر بتتبع كيف بدأ الخلق، وغير خفيّ ما يستلزم ذلك من إحاطة بعلوم الأنسنة (الأنثربولوچــي)، والاجتماع، وعلوم الأحياء (البيولوچــي)، والتطور.....

الانتقال طلباً للحرية

وإذا كانت الحرية هي أصل خلافة الإنسان، وهي التي أوجبت واجب (أو حق) الانتقال من ضمن الحقوق الأخرى السابق ذكرها، فإن تعرض حرية الناس لأي عدوان، هي من أهم دوافع الانتقال. لن يُقبل من الإنسان أية أعذار إذا استمرت إقامته في مكان يمارس فيه عدوان على حرية من الحريات المكفولة له، ويصور القرآن ذلك الموقف بوضوح فيقول:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾[2]

على الإنسان أن يدافع عن حريته، فإذا لم يستطع التغلب على العدوان، فعليه ألا يرضى أن تسلب منه حريته ولا يتحرك، وإذا لم يفعل فقد انتقص من نفسه (فأصبح ظالمًا لنفسه) فليس لــه مكان في الآخرة إلا النار. لا يُقبل التنازل عن الحرية بأية دعوى من الدعاوى حتى ولا الاستضعاف.

---

(١) الآية (٤٢) سورة الروم.

(٢) الآية (٩٧) سورة النساء.

الانتقال للرزق

السعي على الرزق أيضًا من موجبات الانتقال في الأرض وهو مطلوب ومرغوب بل وواجب، وفي ذلك يقول القرآن:

﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا(*) كَثِيرًا وَسَعَةً(**) وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾[1].

من يريد الرزق عليه أن يتحرك، ومن يتحرك سعيًا إلى الرزق؛ ليكفي نفسه ومن يعول، فإن أجره على الله. والرسول ﷺ يحض بشده على السفر فيقول «سافروا تصحوا وترزقوا»[2]، ليس الرزق فقط هو العائد، بل الصحة أيضًا تأتي مع الحركة والتغيير. ويقول الخليفة الثاني ابن الخطاب: «لا تلبثوا بدار مُعجِزة، (أي لا تقيموا ببلدة تعجزون فيها عن طلب الرزق)، وتحولوا لغيرها»[3].

الانتقال للتعارف

الحرية وقود الاختلاف، والاختلاف هو وقود الفكر؛ لأن الاختلاف يعني اختلاف المشارب والأهواء والأفكار، وتلاقح الأفكار هو الذي يثرى الفكر، لذلك لابد من قبول الآخر، بل والتعرف عليه لإثراء الحوار، وتبادل الخبرة، وتراكم المعرفة، وفي ذلك يحض القرآن على التعارف، حيث يقول:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ ﴾[4]،

التعارف دون ادعاء تفوق، أو عنصرية كاذبة، أو شوفينية مريضة، هو أساس

(*) مراغما : مُهَاجَرا ومُتحولا ينتقل إليه

(**) سَعَة : اتساع الرزق.

(١) الآية (١٠٠) سورة النساء.

(٢) [ضعيف] ضعيف الجامع [٣٢١١]، وعزاه إلى «عبد الرزاق» عن محمد بن عبد الرحمن مرسلاً.

(٣) المرجع السابق ص ٩٠

(٤) الآية (١٣) سورة الحجرات

إثراء الفكر، وهذا أيضاً يستوجب الانتقال بين أرجاء المعمورة. ومن نافلة القول أن طلب العلم يوجب الانتقال والسفر.

سهم ابن السبيل

وقد ارتفع الإسلام بحرية الانتقال، من أنها حق للإنسان الحر، بأن أوجبها عليه، فأصبح من الواجب عليه الانتقال إذا لزم الأمر، ثم سار الإسلام خطوة أخرى لم يسبق إليها أي دين أو أيديولوجية في التاريخ، إذ ألزم المسلم المكلف الحر بأن يخصص لها سهمًا من أسهم الزكاة، والتي هي أحد أركان الإسلام وأعمدتها الخمسة، فيما يسمى سهم ابن السبيل. في الإسلام لم يصبح المطلوب فقط تسهيل حرية الانتقال، وعدم وضع معوقات، وعدم الاستعلاء أو اضطهاد أو ظلم الغريب القادم إليك من بلد آخر أو مكان بعيد، بل المطلوب أيضاً أن يخصص لـــه جزء من ميزانية الزكاة، يُدفع لـــه؛ لتيسير حياته وإقامته وتلبية طلباته طالما هو بعيد عن موطنه

﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[١]،

وفي ذلك يقول الإمام الأكبر محمود شلتوت: «ابن السبيل هو المسافر الذي انقطع عن بلده، وبَعُد عن ماله، واحتاج إلى مال في إتمام مهمته والرجوع إلى وطنه، ويصدق هذا العنوان على الذين يقومون من تلقاء أنفسهم وبأموالهم برحلات كشفية إلى البلاد الإسلامية لدراسة أحوالها وتوثيق الروابط بينها»[٢].

الاحتفاء بالحرية في الإسلام ليس اجتماعات أو شعارات، أو شقشقة لسان، بل هي قيمة متأصلة داخل ذلك الدين، قيمة لا يدفع إلى العمل بها بالتحريض العاطفي، والثواب الأخروي فقط، بل يحتفي بها بالتضحية المالية أيضاً.

يقول الله تعالى:

﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ ﴾[٣] .

---

(١) الآية (٦٠) سورة التوبة

(٢) الإسلام عقيدة وشريعة محمود شلتوت مرجع سابق ص ١٠٣

(٣) الآية (١٧) سورة الرعد

لا يعبأ الإسلام بما صار يقال من حرية للحرية، وعلم للعلم، وفن للفن، فذلك هروب من المسئولية، وتخفى وراء الكسل عن النضال الاجتماعي، إنما يعرف الإسلام الحرية المسئولة، ومسئولية العلم والفن، وكل أنشطة الإنسان الحر.

حرية الاجتماع وتكوين الجمعيات والنقابات والشركات ...

المسئولية الفردية

الفرد المكلف الحر الواعي ذو الإرادة المختارة هو المخاطب في القرآن بلفظ الإنسان. هو الفرد اليقظ الباحث عن الحكمة والحقيقة، والذي يسعى وراء العلم وقد فتح نوافذه على مصراعيها لقبول العلم، ويخاطبه القرآن بالقول

﴿ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾[1].

والإنسان الفرد مسئوليته فرديه، وهذا الأمر واضح كل الوضوح في القرآن لقولـــه:

﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ۝ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴾[2]،

﴿ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾[3]

﴿ كُلُّ ٱمْرِيٍٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾[4]،

﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ۝ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾[5]،

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ ﴾[6]،

---

(١) الآية (٥) سورة العلق

(٢) الآية (٣٩ – ٤١) سورة النجم.

(٣) الآية (٣٨) المدثر.

(٤) الآية (٢١) سورة الطور

(٥) الآيتين (١٣ – ١٤) سورة الإسراء.

(٦) الآية (٣٣) سورة لقمان.

هذا هو حجم الذاتية والفردية في المسئولية في نظر الإسلام.

ضرورة الجماعة

لكن هل هناك معني حقيقي للحرية عندما يكون الإنسان وحيداً بمفرده. حريات الفكر والمناقشة والجدل والرأي والاختلاف، تستلزم بالضرورة وجود الآخر. ليس أخطر حتى على أقصى العقول جبروتًا، من الانعزال، عندئذ يبتلي المفكر بالذهنيات المجردة المنعزلة عن الواقع، ويقع أسير الذاتية والتمترس وراء أسوار الجمود الفكري، وتلك هي نهاية أي مفكر. وحتى في قصه (حي بن يقظان) لابن طفيل، وفي رواية (روبنسن كروزو) لدانيال ديفو فإن الوضع كان وضعًا مؤقتًا إلى حين الالتقاء بالآخر.

الجماعة إذن ضرورة للفرد، بنفس القدر التي هى أمان لــه. الجماعة تتكون من مجموع الأفراد، وبالتالي هي إضافة لقوة الفرد بتجميع قوته إلى قوة الآخرين، ويصف لنا القرآن حالة سيدنا لوط، عندما تجمع أهل قريته على بيته، في عدوان يرغب في اغتصاب ضيفيه، وكان أهل القرية من الشواذ جنسيًّا أو ما يطلق عليهم المثليين جنسيًّا، والرجل وحيد يحاول بمفرده الدفاع عن ضيفيه، يصور القرآن هذا الموقف قائلاً:

﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾[1]

الجماعة تضيف إلى قوة الفرد، وتشد من أزره. الجماعة أيضًا أمان للفرد من تغوّل ذاته عليه، فالإنسان لا يعرف عيوب نفسه إلا في عيون الآخرين. الآخر مرآة يرى فيها الفرد ذاته ونفسه، ويطلع على عيوب نفسه فتبدأ عملية تقويم الذات.

---

(١) الآيات (٧٧ – ٨٠) سورة هود.

تزكية النفس والارتقاء بها لا تتم إلا بالتعامل مع الآخر، وبذلك تقي الجماعة الفرد شر نفسه.

الجماعة تفتح باب الإيمان

لذلك يقول القرآن:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَـٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾[(1)]،

ويقول الرسول ﷺ : « **إنما يأكل الذئب من الغنم القاصية** »[(2)] ويقول « **يد الله مع الجماعة** »[(3)] ويمكن الزعم أن الإنسان لا ينتقل من مرحلة الإسلام إلى مرحلة الإيمان وهي مرحلة أعلى من مرحلة الإسلام، حيث يقول القرآن:

﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِي قُلُوبِكُمْ ۖ ﴾[(4)]،

إلا عندما ينتقل بعمله من خدمة ذاته ومن يعول، إلى العمل من أجل الجماعة لأن الرسول يقول: « **الإيمان بضع وسبعون شعبة، أدناها إماطة الأذى عن الطريق، وأعلاها لا إله إلا الله، والحياء شعبة من شعب الإيمان** »[(5)]. فإماطة الأذى عن طريق الآخرين هو عمل من أجلهم، كما أن الحياء هو إحدى الفضائل التي لا تتحقق إلا بوجود الآخر، فالجماعة إذن هي التي تفتح باب الإيمان للفرد.

الحرية بين الفرد والجماعة في الإسلام

وكما منع الإسلام الجماعة من أن تتغول على الإنسان الفرد، وتسحقه وتذيبه، وينبه الفرد إلى مسئوليته الذاتية كما عرضنا للآيات في أول هذا المقال، وكما تحذره من عقلية الحشد والقطيع والرضوخ للعقل الجمعي

---

(١) الآية (٤) سورة الصف.

(٢) [حسن] أبو داود في الصلاة [٥٤٧]، والنسائي في الإمامة ج٢ صـ١٠٦، وأحمد في «مسنده» ج٥ صـ١٩٦.

(٣) [صحيح] الترمذي في: الفتن [٢١٦٦].

(٤) الآية (١٤) سورة الحجرات.

(٥) [صحيح] البخاري في: الإيمان [٩]، ومسلم في: الإيمان [٣٥].

﴿ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ﴾[1]

وتعيب على التقليد

﴿ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ﴾[2]،

وتدعو الإنسان إلى مغادرة الجماعة إذا اعتدت على حريته

﴿ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ﴾[3]

فقد منع الإسلام أيضاً الفرد من أن تتضخم ذاته حتى تحجب الآخر، وتبتلع الجماعة، فتحدث القرآن عن أن الله يحب الذين يقاتلون كالبنيان المرصوص، والمرصوص توحي بنفي أي بروز أو نتوء أو خروج عن خط التنظيم، وتحدث عن قارون فقال :

﴿ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾[4]

وكانت نهايته أن خسف الله به الأرض. بل إن القرآن يعتبر أن عدم العمل من أجل الجماعة، وإيذاءهم أو التعالي على ضعفائهم، هو التكذيب بالدين، وليس أية معصية أخرى، فيقول في وضوح:

﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴾[5]،

الذى لا يعمل لصالح المجموع، ولا يقاتل من أجل وصول الطعام إلى المحتاجين، فكأنه لا يصلى أو لم يصلٍ؛ لأنه يمسك يده عن معاونة الآخر. ويقول

(١) الآية (٤٦) سورة سبأ

(٢) الآية (١٧٠) سورة البقرة

(٣) الآية (٩٧) سورة النساء

(٤) الآية (٧٦) سورة القصص

(٥) سورة الماعون.

الرسول ﷺ: « **مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى** »[1].

لن يتسنى فهم العلاقة بين الفرد والمجموع في الإسلام، إلا بالنظر المدقق في كيفية أداء صلاة الجماعة بين المسلمين. يقول الشيخ شلتوت: « تؤدى مع جماعة: تقف صفاً، أو صفوفاً متراصة مستوية، كوقفة الجند المنظم خلف واحد منهم، يتقدمهم إمام، ويتابعونه في أفعاله. وصلاة الجماعة في الإسلام أفضل أنواع الأداء للصلاة؛ لما فيها من التعارف والتآلف، والتعاون والاجتماع في الدعاء والذكر والخشوع لله رب العالمين »[2].

وعادة ما يتحاشى الأفراد ويتجنبون التعرض لمسئولية الإمام في الصلاة، ثم تضغط الجماعة على أحدهم الذي قد يكون أكبر سناً، أو ينم مظهره على الصلاح؛ ليقوم بدور الإمام، وهنا يبدأ الآتي:

١ - يطلب الإمام من الناس أن يقفوا في الصف متساوين، لا يتقدم أحدهم عن الصف ولا يتأخر، مساوين بين الأقدام والمناكب، وهنا تتعلم الذات الفردية عدم الاستعلاء أو التقدم أو التأخر طمعًا في التميز، أو التضخم على حساب الذوات الأخرى.

٢ - عند تساوي الصف يطلب من المصلين أن يلين كل منهم بين يدي اللذين عن اليمين والشمال، فالناس تتفاوت في القوة الجسمانية، وهناك الضعيف، والشاب الفتى، والشيخ الكبير، وهنا يتعلم الإنسان الفرد أن المدافعة في الحياة:

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ ﴾[3]

تقتضي الرفق واللين، وليس العنف والشدة وقطع الرقاب:

﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾[4].

٣ - يطلب من المصلين استقامة الصف حين يقول الإمام: « استقيموا يرحمكم

---

(١) [صحيح] مسلم في: البر والصلة [٢٥٨٦]، وأحمد في: «مسنده» ٤/٢٧٠.

(٢) الإسلام عقيدة وشريعة محمود شلتوت مرجع سابق ص ٧٨

(٣) الآية (٢٥١) سورة البقرة.

(٤) الآية (٣٤) سورة فصلت.

الله » والاستقامة هنا ليست فقط في النظام في صف الصلاة، بل هي عنوان لتعامل الفرد مع الجماعة في كل مظاهر وعناصر وأنشطة الحياة، حيث يقول القرآن:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾[1].

الاستقامة هنا عنوان على قائمة ضخمة من الالتزامات للذات الفردية في تعاملها مع الجماعة خلال رحلة الإنسان في الحياة، فالتوصيف الوظيفي Job Description للعمل الذي تقوم به الذات الفردية لصالح الجماعة يلخصه الإسلام في مفهوم أن كل فرد بوظيفته هو على ثغرة من ثغور الإسلام، يقوم بحراسة هذه الثغرة من خلال عمله ووظيفته، سواء أكان فلاحًا أم عاملاً، طبيبًا أم محاسبًا، فعليه أن يتقي الله أن تؤتى الأمة من ثغرته هو، عليه أن يحرس مكانه ليمنع أعداء النور، وخفافيش الظلام، وجراثيم الفساد والإفساد، من المرور من النقطة القائم هو على حراستها، وألا يكون خائنًا للأمانة، وتلك هي الاستقامة. الاستقامة هي أولى المؤهلات المطلوبة من كل الذوات الفرديـــة، للقيام بالمسئولية تجاه الجماعة، وهي أهم هذه المتطلبات الوظيفية (PRE REQUISITS). الاستقامة هي نتاج عملية بناء الذات الحرة من خلال التزكية، ومن خلال عمل هذه الذات من أجل الجماعة وبها، وهي عملية هائلة المشقة، فعن ابن عباس قال: قال أبو بكر: يا رسول الله قد شبت، قال: «شيبتني هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون، وإذا الشمس كورت»[2]. ثم يُروى أن رجلاً رأى رسول الله ﷺ **في المنام فسأله: ما الذي شيبك في سورة هود يا رسول الله؟ هل هو آيات العذاب التي وردت بها؟ فقال الرسول ﷺ: لا، بل شيبتني آية:**

﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ﴾[3]

وعن أبي عمرو وقيل أبي عمرة سفيان بن عبد الله[4] ﷺ قال :قلت يا رسول

---

(١) الآية (٣٠) سورة فصلت.

(٢) [صحيح] الترمذي في: تفسير القرآن [٣٢٩٧]، والحاكم في: «المستدرك» ٣٤٣/٢.

(٣) الآية (١١٢) سورة هود.

(٤) سفيان بن عبد الله ، صحابي، وكان عاملاً لعمر بن الخطاب علـى أهـل الطـائف. تهـذيب الكمـال ج٣ صـ٢٢١-٢٢٢.

الله، قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً غيرك، قال: «قل آمنت بالله ثم استقم»[(١)].

الموظف في المفهوم الغربي هو خادم للشعب (PUBLIC SERVANT)، وهو مفهوم رائع لدور الفرد مع الجماعة، ولكن في الإسلام يمكن أن يسمى حارس الشعب (PUBLIC GUARD, IAN)، والفارق يكمن لصالح التعريف الثاني في درجة الاستنفار ويقظة الحواس.

٤ - عندما يبدأ الإمام في الصلاة، فلا يجوز أن يسبقه المأموم في الركوع أو السجود، أو القيام، فالجماعة تتبع الفرد الذي اختارته كإمام في حركات الصلاة، لكن الذات الفردية حاضرة بقوة في الصلاة، بمعنى أن المسئولية لاتزال شخصية عن الصلاة حتى داخل الجماعة، وهو يؤديها بكل أركانها ومتطلباتها ومشاركًا بجوارحه، وبقلبه وبحركاته وسكناته في كل دقائقها، فالانتظام داخل الجماعة لا يسقط عنه المشاركة الكاملة في أداء الصلاة. الفرد هنا لم يذب وتتمحِ شخصيته ومسئوليته في الجماعة، بل الشخصية الفردية متجلية بكامل قواها دون الخروج عن الصف، أو عن الائتمام بالإمام. الفرد حاضر في الجماعة بالمشاركة والحضور الذاتي وإكمال الصف، بقدر ما تؤمن لـــه الجماعة الاكتمال، والقيمة المضافة وارتفاع الأجر. العلاقة بين الفرد والجماعة في الإسلام تنمي الذات بالقدر الذي يجعلها تستعصي على الذوبان والانسحاق والانسحاب والسلبية، وتهذبها وتردعها عن التضخم والانفلات.

صلاة الجماعة أعلى بسبع وعشرين درجة من صلاة الفرد، والإمام على بن أبي طالب ﷺ يقول: « كدر الجماعة خير من صلاة الفذ » وفي الحالة المثالية فالذات الفردية مدعوة للاجتماع مع الجماعة القريبة في منطقتها خمس مرات يوميًا مع كل صلاة، ثم على مستوى الحي مرة أسبوعيًا في صلاة الجمعة، ثم مرتين في العام على مستوى المدينة وفي الساحات المفتوحة في صلاة العيدين، ومرة في العمر عند الاستطاعة على المستوى العالمي في مؤتمر الحج، الذي قدمت فيه المنافع بإطلاقها على الفرض التعبدي، حيث يقول القرآن الكريم:

---

(١) [صحيح] مسلم في: الإيمان [٣٨]، وأحمد في «مسنده» ج٣ صـ٤١٣.

﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ۝ لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ ﴾[1]

القاعدة في الإسلام هي:

﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ ﴾[2]

والرسول يقول: «**والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه**»[3]، والحق - تبارك وتعالى - مع الشركاء حتى يختلفوا.

هل تحدثت عن حرية الاجتماع، وتكوين الجمعيات والنقابات والشركات، أم تراني ذهبت بعيداً؟

سلامة البدن، وحرمة المسكن، وسرية المراسلات- حق الأمن

أ- سلامة البدن

البدن وهو الهيكل الخارجي للإنسان، والذي يقوم بوظائفه الحيوية، وهو البناء المستوي المنتصب القامة، الذي يضم بين جنباته نفس الإنسان، وتتصل به روحه، والذي أسجد الله ملائكته الكرام لــه عند خلقه، وأمر الإنسان ألا يحني هذا البناء لأحد أو لشيء، أي ألا يركع أو يسجد أو يحني جبهته إلا لله وحده، وقال عنه:

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ ﴾[4]

فلا يحق لأي أحد أن يمد يده بالأذى لهذا البناء، وفي ذلك يقول القرآن الكريم:

﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحْتَمَلُواْ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾[5]

---

(١) الآية (٢٧ – ٢٨) سورة الحج

(٢) الآية (٢) سورة المائدة.

(٣) [صحيح] مسلم في: الذكر [٢٦٩٩]، وأبو داود في: الأدب [٤٩٤٦]، والترمذي في: الحدود [١٤٢٥]، وابن ماجه في: المقدمة [٢٢٥]، وأحمد في: «مسنده» ج٢ صـ٢٥٢.

(٤) الآية (٧٠) سورة الإسراء.

(٥) الآية (٥٨) سورة الأحزاب.

النهي عن الترويع

وكعادة الإسلام في سد الذرائع، وفي تجفيف محفزات الحركة التي تؤدي إلى الضرر من المنبع، فقد نهى الرسول ﷺ عن ترويع الآخر فقال: «**لا تروعوا المسلم، فإن روعة المسلم ظلم عظيم**» رواه الطبراني(١)، كما نهى عن الإشارة إلى الآخر بسلاح أو ما شابهه، فعن أبي هريرة(٢) ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يشر أحدكم إلى أخيه بالسلاح فإنه لا يدرى لعل الشيطان ينزع في يده فيقع في حفرة من النار**» متفق عليه(٣). وفي رواية لمسلم: «**من أشار إلى أخيه بحديدة، فإن الملائكة تلعنه حتى ينزع، وإن كان أخاه لأبيه وأمه**»(٤) وقوله ينزع أى يرمي.

النهي عن الضرب أو الوسم في الوجه

وفي رواية لمسلم: نهى رسول الله ﷺ عن الضرب في الوجه، وعن الوسم في الوجه(٥). وقال العلماء: «لأن الوجه لطيف يجمع المحاسن، وأعضاؤه نفيسة وأكثر الإدراك بها، فقد يبطلها ضرب الوجه، وقد ينقصها، وقد يشوه الوجه والشين فيه فاحش؛ لأنه بارز ظاهر لا يمكن ستره، وشمل النهي ضرب الخادم والزوجة والولد للتأديب، فليجتنب الوجه وتأثير الوسم أشد، والله أعلم»(٦). وعنه أن النبي ﷺ مر عليه «حمار» قد وُسم في وجهه فقال: «**لعن الله الذي وسمه**» رواه مسلم(٧). وعن أبي سويد بن مقرن ﷺ قال: لقد رأيتني سابع سبعة من بني مقرن، ما لنا خادم إلا واحدة لطمها أصغرنا، فأمرنا رسول الله ﷺ أن نعتقها. رواه مسلم(٨). وعن أبي مسعود البدري(٩) ﷺ قال: كنت أضرب غلامًا لي بالسوط، فسمعت صوتًا من

---

(١) [ضعيف] مجمع الزوائد ج٦ صـ٢٥٣.
(٢) أبو هريرة : عبد الرحمن بن صخر، صحابي جليل، توفى سنة (٥٧هـ). صفة الصفوة ج١ صـ٢٢٣-٢٢٧.
(٣) [صحيح] البخارى فى: الفتن [٧٠٧٢]، ومسلم فى : البر والصلة [٢٦١٧].
(٤) [صحيح] مسلم فى: البر والصلة [٢٦١٦].
(٥) [صحيح] مسلم فى : اللباس والزينة [٢١١٦].
(٦) رياض الصالحين ص٥٨٧.
(٧) [صحيح] مسلم فى: اللباس والزينة [٢١١٧] ، وأحمد فى «مسنده» ج٣ صـ٢٩٧.
(٨) [صحيح] مسلم فى : الأيمان [١٦٥٨] ، وأبو داود فى: الأدب [٥١٦٦]، وأحمد فى: «مسنده» ج٣ صـ٤٤٧
(٩) أبو مسعود البدرى: عقبة بن عمرو، شهد العقبة مع السبعين وكان أصغرهم، وكان يسكن ماءً ببدر، فنسب إليه. تهذيب الكمال ج٥ صـ١٩٩-٢٠٠.

خلفي: إعْلَمْ أبا مسعود، فلم أفهم الصوت من الغضب. فلما دنا مني إذا هو رسول الله ﷺ، فإذا هو يقول: (إعلم أبا مسعود، أن الله أقدر عليك منك على هذا الغلام) فقلت: لا أضرب مملوكا بعده أبدا[١]. وفي رواية : فسقط السوط من يدي من هيبته[٢]. وفي رواية فقلت: يا رسول الله، هوحُرٌ لوجه الله، فقال: «**أما لو لم تفعل للفحتك النار**»[٣].

وعندما اشتكت النساء إليه - عليه الصلاة والسلام - رجالهم قال: «**أيظل أحدهم يضرب امرأته ضرب العبد، ثم يظل يعانقها ولا يستحي**»[٤] وقال: «**لا يضرب إلا شراركم**»[٥].

النهي عن التعذيب

وعن هشام بن حكيم بن حزام رضي الله عنهما قال: أشهد لسمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله يعذب الذين يعذبون الناس في الدنيا**» [٦]. ونلاحظ هنا أن الحديث بلفظ (الناس)، فالنهي عن تعذيب الإنسان عام يشمل المسلم وغير المسلم.

النهي عن الحرق بالنار

ونهي الرسول ﷺ عن الحرق بالنار، فعن ابن مسعود أنه - صلى الله عليه وسلم - رأى «قرية نمل» قد حرقناها فقال: «**من حرق هذه؟**» قلنا: نحن. قال: «**إنه لا ينبغي أن يعذب بالنار إلا رب النار**»[٧]. وقوله «قرية نمل» معناه: موضع النمل مع النمل.

النهي عن التعذيب لأخذ الاعتراف

والنهي عن الأذى والضرب والتعذيب للإنسان مطلقاً، سواء لإثبات الجرم

---

(١) [صحيح] مسلم في: الأيمان [١٦٥٩].
(٢) المرجع السابق
(٣) المرجع السابق.
(٤) [صحيح] البخاري في: الأدب [٦٠٤٢].
(٥) من عبقرية الإسلام د. نعمات فؤاد ص١٧٤.
(٦) [صحيح] مسلم في: البر والصلة [٢٦١٣]، وأبو داود في: الخراج والفيء [٣٠٤٥]، وأحمد في «مسنده» ج٣ صـ٤٠٤.
(٧) [صحيح] أبو داود في: الجهاد [٢٦٧٥].

بالإكراه، أو لأخذ الإقرار والاعتراف من المتهم، أو غير ذلك، حيث يخالف ما جاء به الشرع، من صيانة النفس والمال والعرض والعقل، وفي الآية(٥٨) من سورة الأحزاب ما يدل علي ذلك. وقد جاء في فتح الباري قول الرسول ﷺ في حجة الوداع « ..... **فإن الله تبارك وتعالي قد حرم عليكم دماءكم وأموالكم وأعراضكم إلا بحقها**[١]»[٢] وروي عن النبي ﷺ: أن رجلا أتاه فأقر عنده أنه زني بامرأة فسماها له، فبعث الرسول إلى المرأة فسألها عن ذلك، فأنكرت أن تكون زنت، فجلده[٣] وتركها[٤]. ويوضح ذلك أنه على الرغم من وجود التهمة للمرأة، لم يقم الرسول ﷺ بعقابها لحملها على الاعتراف، وقد جاء عنه قوله:

«ادرءوا الحدود بالشبهات، فإن الإمام إن يخطئ في العفو، خير من أن يخطئ في العقوبة»[٥]. إذا كان المتهم في جرائم الحدود – والتي تعد من أعظم الجرائم في نظر المشرع – لا يعاقب ولا يعذب دون بينة شرعية، فإن ما دون الحدود أولي بعدم التعذيب والإكراه[٦].

وتقرر الشريعة في الاعتداء على النفس، أو على جزء من البدن القصاص لقوله –تعالي–:

﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ ﴾[٧].

النهي عن ضرب الرعية

وقد سار الخلفاء الراشدون على منهج الهدى المحمدي، فعن أبي فراس

(١) [صحيح] البخارى فى: العلم [٦٧].
(٢) النظرية السياسية الإسلامية في حقوق الإنسان الشرعية د. محمد فتحي.د. سامي صالح الوكيل كتاب الأمة (٢٥) ص٦٣.
(٣) الجلد هنا حد للقذف في أعراض المحصنات.
(٤) [صحيح] أبو داود فى: الحدود [٤٤٦٦]، وأحمد فى «مسنده» ج٥ صـ٩١.
(٥) [ضعيف] الترمذى فى: الحدود [١١٤٢٤].
(٦) كتاب الأمة (٢٥) مرجع سابق ص٦٨.
(٧) الآية (٤٥) سورة المائدة.

الربيع ابن زياد[١] - رحمه الله - قال: خطبنا عمر بن الخطاب ﷺ فقال في خطبته: «إني لم أبعث عمالي ليضربوا أبشاركم، ولا ليأخذوا أموالكم، من فعل ذلك فليرفعه إليَّ أقصه منه»، فقال عمرو بن العاص[٢]: لو أن رجلاً أدّب بعض رعيته، اتقص منه؟ قال: إي والذي نفسي بيده، إلا أقصه، وقد رأيت رسول الله ﷺ أقتص من نفسه»[٣]. ولعل ابن الخطاب هنا كان يلمح إلى حادثة سواد ابن غزية الذي وقف خارجًا عن الصف يوم معركة بدر، فدفع النبي في بطنه بقدح لينتظم في الصف، فقال الرجل: أوجعتني يا رسول الله، اقدني[*]، فكشف الرسول ﷺ عن بطنه وقال: استقد، فاعتنقه الرجل وقبله، وقال: أردت أن يكون آخر عهدي بالدنيا أن أعتنقك[٤].

حظر تعذيب المساجين

وقد حظر الإسلام أيضًا تعذيب المسجونين، فقد جاء عن عمر بن الخطاب قوله لولاته في الأمصار: لا تدعن في سجونكم أحدًا من المسلمين في وثاق، لا يستطيع أن يصلي قائمًا، ولا أحدًا في قيد إلا رجلاً مطلوباً بدم، وأجروا عليهم من الصدقة ما يصلحهم في طعامهم وأدمهم[٥].

ومن ذلك يظهر جليًا، أن الإسلام لا يجيز تعذيب المتهم؛ لكي يقر بما ارتكب، خلافًا لما يراه بعض الفقهاء، وذلك لأن الإسلام لا يقر أصلاً الإقرار والاعتراف الناجم عن الإكراه لقول الرسول ﷺ: «**إن الله تجاوز لي عن أمتي الخطأ والنسيان، وما استكرهوا عليه**»[**] ولذلك يقول ابن الخطاب: ليس الرجل بمأمون على نفسه: إن أجعته، أو أخفته، أو حبسته أن يعترف على نفسه[٦].

---

(١) أبو فراس الربيع بن زياد، روى عن عمر، وروى عنه أبو نضره. تهذيب الكمال ج٢ صـ٤٦٠.
(٢) عمرو بن العاص، صحابي، مناقبه وفضائله كثيرة جدًا، مات سنة (٤٣) بمصر. تهذيب الكمال ج٥ صـ٤٢٦-٤٢٧.
(٣) المرجع السابق ص ٦٤.
(*) القوَد : تعني القصاص
(٤) أحمد في: «مسنده» ج٢ صـ٢١٧.
(٥) المرجع السابق ص ٦٥
(**) [صحيح] الحاكم في «المستدرك» ١٩٨/٢.
(٦) المرجع السابق ص ٦٥

النهي عن الإيذاء صارم، والرسول يقول: «**من ضرب بسوط ظلمًا، اقتص منه يوم القيامة**»[1].

ب - **حرمة المسكن، وسرية المراسلات**

حرمة الحياة الخاصة للإنسان، وحماية خصوصيته مطلقة في الإسلام، لقولـــه - تعالى - في كتابه العزيز:

﴿ وَلَا تَجَسَّسُوا ﴾[2]،

ونهى عن تتبع عورات الناس وأحوالهم فقال:

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [3].

التجسس محظور قطعيًا

ونهى الرسول ﷺ أيضًا، عن كل أساليب الاعتداء والتلصص على خصوصيات (الآخرين) فعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسسوا، ولا تجسسوا، ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا وكونوا عباد الله أخواناً**»[4] . قيل التجسس: البحث عن مخبآت الناس، أما التحسس فمعناه: الدخول والاستعلام (لا تجسسوا) أي لا تبحثوا عن مخبآت الناس، والتجسس بالجيم (في الشر) والتحسس بالحاء (في الخير)، وقيل التجسس (ما كان من وراء) والتحسس بالحاء (الدخول والاستعلام)[5]. ونهى الرسول أيضًا عن التجسس من قبل الحاكم على الرعية لقوله: «**إذا ابتغى الأمير الريبة في الناس أفسدهم**»[6] .

والقاعدة في الإسلام أن الإنسان في ستر الله، ما لم يجاهر هو أو يفضح نفسه،

---

(١) [صحيح] البيهقى فى «السنن الكبرى» ج٨ صـ٤٥.
(٢) الآية (١٢) سورة الحجرات
(٣) الآية ٣٦ سورة الإسراء
(٤) [صحيح] البخارى فى: النكاح [٥١٤٣]، ومسلم فى: البر والصلة [٢٥٦٣].
(٥) التسهيل لعلوم التنزيل محمد بن أحمد الكلبي، ج٣ المكتبة التجارية الكبرى بمصر.
(٦) [صحيح] أبو داود فى: الأدب [٤٨٨٩]، وأحمد فى «مسنده» ج٥ صـ٤.

فهنا لا مناص من التدخل بالحكم المناسب، حيث يقول الرسول - عليه الصلاة والسلام -: «**من أتى من هذه القاذورات شيئاً، فليستتر بستر الله، فإنه من يبد لنا من صفحته نقم حد الله تعالى عليه**»[1]. ويقول عمر ﷺ : «إن ناسًا كانوا يؤخذون بالوحي في عهد رسول الله ﷺ، وإن الوحي انقطع، وإنما نأخذكم الآن بما ظهر لنا من أعمالكم، فمن أظهر لنا خيرًا أمناه وقربناه، وليس لنا من سريرته شيء، والله يحاسبه على سريرته»[2]. ولذا فإنه بحسب اجتهاد الماوردي: «إذا لم يكن هناك جريمة على وشك الوقوع، أخبر عنها العدول الثقاة، ولا يمكن استدراكها، فلا يجوز التجسس بحال. ويؤكد الفقهاء: إنه إذا كان المنكر مستورًا لا علم للمحتسب (مسئول الضبط القضائي) به، لا يجوز لمحتسب أن يسعى للكشف عنه، حتى لا يرتكب التجسس المنهي عنه شرعاً، (وإذا كان) المنكر مستورًا، ولكنه يستريب به، لا تكفي الاسترابة هذه مبررًا لسعي المحتسب للكشف عن المنكر. كما يذكر فقهاء المالكية، أن النهي عن المنكر يشترط فيه «ظهور المنكر من غير تجسس، ولا استراق سمع، ولا استنشاق ريح، ولا بحث عما بيد أو ثوب أو حانوت، فإنه حرام»[3].

سرية المراسلات

يتضح مما سبق أيضًا أن سرية المراسلات من المحظورات التي تندرج تحت المنهى عن التجسس عليه، أما قصة المرأة التي حملت رسالة حاطب ابن أبى بلتعة إلى قريش يخبرهم فيها بموعد غزو مكة، وما ورد أن على بن أبي طالب ﷺ قد هدد المرأة بكشف سترها، فذلك كان بعد أن أخبر الوحي الرسول بأن المرأة تحمل معها كتابًا[4]، وبذلك تحققت ضرورة كشف فحوى الرسالة؛ لأن إخفاءها جريمة مكتملة الأركان بإفشاء أسرار الأمة.

حرمة المسكن الخاص

تبدأ المحافظة على حرمة المسكن الخاص في الإسلام، بالبدايات المبكرة بتنظيم آداب الزيارة، والدخول على الآخرين، وفي ذلك يأمر القرآن الكريم:

---

(١) مالك فى: الحدود [١٢].

(٢) كتاب الأمة، مرجع سابق، صـ٥٤.

(٣) مرجع سابق ص ٤٥ - ٥٥ - ٥٦

(٤) [صحيح] البخارى فى: المغازى [٣٩٨٣]، ومسلم فى: فضائل الصحابة [٢٤٩٤].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ۝ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدٗا فَلَا تَدۡخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤۡذَنَ لَكُمۡۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴾[١]

طلب الإذن قبل الدخول واجب، ويقول الزمخشرى في شرح ﴿ تَسۡتَأۡنِسُواْ ﴾:

«وفيه وجهان إحداهما : أنه من الاستئناس الظاهر الذي هو خلاف (عكس) الاستيحاش؛ لأن الذي يطرق باب غيره لا يدري أيؤذن لـــه أم لا، فهو كالمستوحش من خفاء الحال عليه، فإذا أذن لـــه استأنس». أي أن المعنى الأول لـــ ﴿ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ ﴾ هو (حتى يؤذن لكم). والوجه الآخر: أن يكون الاستئناس بمعنى الاستعلام والاستكشاف أي (استفعال) من آنس الشيء إذا أبصره ظاهرًا مكشوفًا.

ويصبح معنى ﴿ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ ﴾ هنا هو (حتى تستعلموا وتستكشفوا) هل يراد دخولكم أم لا. وقال صلى الله عليه وسلم: «**إذا استأذن أحدكم ثلاثاً ولم يؤذن له فليرجع**»[٢]. وروى أن رجلاً قال للنبي ﷺ: أأستأذن على أمي؟ قال: نعم. قال: إنها ليس لها خادم غيري، أأستأذن عليها كلما دخلت؟ قال: أتحب أن تراها عريانة؟ فقال الرجل: لا، قال: فاستأذن[٣]».

ونهى الرسول ﷺ نهيًا صارمًا عن التجسس على البيوت، فعن أبى هريرة قال : قال أبو القاسم ﷺ: «**لو أن امرءا اطلع عليك بغير إذن، فحذفته بحصاة، ففقأت عينه، لم يكن عليك جناح**»[٤]. وعن أنس ﷺ: «أن رجلاً اطلع في بعض حجر النبي ﷺ، فقام إليه بمشقص[٥] – أو مشاقص –

---

(١) الآيتان (٢٧ – ٢٨) سورة النور.
(٢) [صحيح] البخارى فى: الاستئذان [٦٢٤٥]، ومسلم فى: الآداب [٢١٥٣].
(٣) [ضعيف] مالك فى: الاستئذان [١].
(٤) [صحيح] مسلم فى: الآداب [٢١٥٨] مكرر، وأحمد فى «مسنده» ج٢ صـ٢٤٣.
(٥) مشقص: نصل السهم إذا كان طويلاً غير عريض. النهاية فى غريب الحديث ج٢ صـ٤٩٠، ط دار إحياء الكتب

وجعل يختله ليطعنه[١]»[٢]. لذلك فقد اتفق معظم الفقهاء علـــى هـــدر عـــين مـــن اطلع على بيوت الناس من ثقب البـــاب أو نحـــوه، ورأوا أن فـــقء عينـــه جـــائز؛ لدفع الضرر إن لم توجد وسيلة أخرى لتحقيق الغرض ذاته[٣].

لا ينبغي دخول البيوت إلا بإذن؛ لذلك لا يجوز لأي أحد أو سلطة، أو جماعة اقتحام البيوت، ولا تفتيشها، ولا دخولها، إلا أن يأذن أهلها، ولا استثناء من ذلك بأمر الشرع. وروى أن عمر ﷺ دخل على جماعة تشرب خمرًا، فقال: ألم أنهكم عن معاقرة الخمر؟ فقالوا لـــه وكان قد تجسس عليهم، ودخل عليهم بدون إذن: قد نهاك الله عن التجسس فتجسست، ونهاك عن الدخول بغير إذن فدخلت، فتركهم ابن الخطاب وانصرف. وروى أيضاً أن رجلاً جاء إلى سفيان الثوري بالبصرة وقال لـــه: «يا أبا عبد الله، إني أكون مع هؤلاء المحتسبة فندخل على هؤلاء الخبيثين، ونتسلق عليهم الحيطان. قال: أليس لهم أبواب؟ قلت بلى، ولكن ندخل عليهم لكي لا يفروا، فأنكر ذلك إنكارًا شديدًا، وعاب فعلنا»[٤].

إن آية ﴿لا تجسسوا﴾ (بالجيم) تحيط حرية الحياة الخاصة للإنسان، وحرمة مسكنه، وسرية مراسلاته، وحريته الشخصية بسياج محكم يصعب اختراقه، إن صحت النوايا.

بعدما نهى عمر بن الخطاب ﷺ الولاة عن ضرب الرعية، حدث أن ضرب أبو موسى الأشعري – وكان واليا على الكوفة من قبل عمر بن الخطاب – رجلاً من المسلمين أربعة وعشرين سوطاً، فشكا هذا الأخير إلى ابن الخطاب، فكتب إلى واليه، أن يدع الشاكي يقتص منه بمثل ما أصابه، فإن كان قد جُلد علنيًّا، فليجلس بين الناس ليُجلد، وإن كان ضربه في خلاء فليضربه في غير علانية، وجلس الوالي، وألح الناس على الرجل أن يعفو فأبى، لكنه لما شعر بأن حقه في القصاص حقيقة لا مجرد وعد يوعد به، رفع رأسه إلى السماء، وقال: «اللهم قد عفوت عنه»[٥].

---

(١) [صحيح] البخاري في: الديات [٦٩٠٠]، ومسلم في الآداب [٢١٥٧].
(٢) كتاب الأمة (٢٥) مرجع سابق ص ٥٧
(٣) نفس المصدر ص ٥٧ – ٥٨
(٤) من فلسفة التشريع الإسلامي لفتحي رضوان ص ٢٤٥
(٥) عن الجريمة والعقوبة في الإسلام محمد أبو زهرة ص ١١١

حق الأمن يرتفع بالإنسان إلى علياء السماحة والعفو.

حق الدعاء والاستجابة

كنت أحب أن أتجنب – ولم أستطع لاعتبارات سد الذرائع – أن أبدأ هذه الفقرة عن الدعاء، بالدفاع عنه إثباتًا لحقيقة أن الدعاء هو قوة وليس ضعفًا، وهو إرادة وليس استسلامًا، وهو حضور واتقاد وليس مخدرًا، وهو نشاط وليس كسلاً، وهو مشاركة وليس انسحابًا. إن الشخصيات ذات التأثير الأعظم والأبقى والأشهر في مسيرة البشرية، على سطح كوكبنا الأرضى، مثل نوح وإبراهيم وموسى والمسيح ابن مريم ومحمد ﷺ كانوا لا يتركون الدعاء. فلا مجال بعد ذلك لمزايدة، ولا فسحة لمزيد من القول فى هذا الخصوص.

الإنسان الحر المكلف ذو الإرادة الواعية المختارة، الذى يحاول ممارسة حرياته فى الاعتقاد، والتفكير والمناقشة والجدل والسؤال، وقبول الاختلاف، والذى يجاهد؛ ليتحرر من قيود الهوى والتقليد والتكرار، والذى يطارد الحكمة أينما وجدت؛ ليزداد استنارة، ويرتفع بتصوره الاعتقادى من الظن إلى مراتب العلم؛ ليحكم خطاه فى مسيرة حياته، والذى يمد يده بالعمل؛ ليغير من واقعه إلى ما يتواءم مع تصوره الاعتقادى، أو أنه بالعمل يحول أفكاره الذهنية إلى واقعات عينية، ويعمل بالتغيير فى الطبيعة على أن يسلبها تأثيرها عليه، ويصبح هو السيد الذى يؤثر عليها، ويناضل بالفكر والفعل لإحداث التحول فى مجتمعه نحو ما يراه هو الأفضل. هذا الإنسان المؤمن – والذى جاهد ليؤدى رسالته على النحو السابق – يشترط لإيمانه أن يؤمن بالقدر خيره وشره، حُلوه ومره كما قال الرسول(١)، وهو لا يملك دفعًا لبعض تصرفات القدر، فذلك خارج إمكاناته. هذا الإنسان المخلوق، خليفة الله فى أرضه، ذو الوجدان المرهف، الذى يمرض ويسقم ويتطلع إلى الشفاء، الذى يحب ويكره، ويحزن ويفرح، ويعشق ويغضب، ويملك ويفقد، ويضحك ويبكى، ويرتفع إلى القمة ويهبط إلى القاع، يصاب بفقدان الحبيب والأنيس والصديق، ويقلق لفراق الأحبة والأهل والأعزاء، وينفطر قلبه لفقد الخليل والأثير والقريب والصاحب.

---

(١) [ضعيف] ابن ماجه فى: المقدمة [٨٧].

يطمع بحريته التى جبل عليها إلى أن ينفذ إلى ما فوق الطبيعة وما وراء المادة، يشتاق إلى القيمة والمبدأ والكمال والمطلق، وهو أسير للمادة والحيز والزمان، ويطمح لمعرفة ذاته وسبر أغوار نفسه، ويتشوف لأن يُعتق من قيود التثاقل والرغبات والتراب. ماذا يفعل ذلك المخلوق عندما يشعر بالوحدة، ويقع فى غياهب اليأس والإحباط، أو عندما يحس بلهيب الرغبة والشهوة، وعندما تلسعه برودة الانعزال. لابد لهذا الإنسان من مساحة أخرى من الحرية، تتسع الاتساع الكافى واللازم لاستيعاب هذه الأحوال والأشواق والعواطف والنزعات، ولامتصاص حالات الضعف والقوة، والنشاط والفتور. هذه المساحة الهائلة المطلوبة من الحرية لا يوفرها إلا الدعاء.

ماذا يفعل الإنسان أمام ضربة صاعقة مثلما حدث مع سيدنا يعقوب عندما انتُزع أحب أبنائه من بين يديه، وغيِّب عن ناظريه وبمن؟ بواسطة إخوته، ماذا يملك هذا الأب المكلوم إلا الاستعانة بالله على هذا الموقف العصيب:

﴿ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖۚ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾[1].

وعندما أرسل معهم أخاهم الصغير لم يملك إلا الدعاء:

﴿ قَالَ هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُۖ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾[2].

وكان ليعقوب من الأبناء اثنا عشر ابنًا، وكان يراوده القلق عليهم عند السفر إلى بلاد غريبة، من أن يلفت مجموعهم أعين الناس، أو يحرك فى الناس نوازع العدوان عليهم، وفى هذا لا يجدى لإطفاء القلق إلا الدعاء، فنصح لهم قائلاً:

﴿ وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴾[3].

---

(١) الآية (١٨) سورة يوسف.

(٢) الآية (٦٤) سورة يوسف.

(٣) الآية (٦٧) سورة يوسف.

عندما يغادر من نحب أعيننا، إلى الخارج، لا يجد الواحد منا ما يمنع عن نفسه هواجس القلق عليهم إلا التوكل على الله، كما قال يعقوب، فلا يوجد لدينا ما يمكن عمله غير ذلك.

عندما تلقى موسى التكليف بالذهاب إلى فرعون؛ ليطلب منه تحرير بنى إسرائيل، وإيقاف طغيانه عليهم، ما الذى طلبه موسى من الله ليعينه على مقابلة هذا الطاغية المرعب، والذى كان أقوى حكام الأرض قاطبة فى ذلك الوقت، قال موسى:

﴿ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ۝ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ۝ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ۝ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ۝ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ۝ هَـٰرُونَ أَخِى ۝ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ۝ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ۝ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ۝ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ۝ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴾[١]،

وعندما اقترب موعد المقابلة أحس موسى وأخوه بالخوف:

﴿ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ۝ قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾[٢].

ونوح عندما تكالبت عليه قوى الشر، وآذته ومنعته من القيام بالدعوة وسخرت منه، واضطهدته واتهمته، وفشلت كل محاولات الإقناع، فلم يبق إلا الدعاء وهو الملاذ الأخير:

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ۝ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ۝ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴾[٣].

وقبل لحظات القتال والنزال والدفاع عن الوطن، بعد إتمام الاستعداد على قدر الاستطاعة، وخاصة عندما يكون ميزان القوى لصالح العدو عتاذا وعدة وعددا، لا

---

(١) الآيات (٢٥-٣٥) سورة طه.

(٢) الآيتين (٤٥، ٤٦) سورة طه.

(٣) الآيات (٩-١١) سورة القمر.

يبقى إلا الدعاء، كما هو حال الجيش الذى قاده طالوت، وكان نبــى الله داود أحــد جنوده؛ لمحاربة العماليق بقيادة جالوت، فقال المؤمنون القليلو العدد:

﴿ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ۝ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ ....﴾[1].

ماذا يفعل نبى الله زكريا وقد بلغ منه الكبر، وامرأته عاقر، وهو يشعر بالوحدة ويخاف على امرأته، إلا الدعاء ضارعًا:

﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ۝ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ۖ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾[2].

ويصرخ زكريا بنفس الطلب فى موقع آخر مبتهلاً:

﴿ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴾[3]

ما أجمل هذا الدعاء الأخير!.

والذين يطلبون العزلة، بحثًا عن هويتهم، وغوصًا فى ذواتهم، وحفظًا لمعتقدهم، وتجنبًا لمعارك تفوق طاقتهم، ماذا يملكون إلا الدعاء

﴿ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴾[4].

تقول د. نعمات فؤاد: «كان الإسلام دينًا وحضارة، شــعائر وشــرائع، فرؤيــة القرآن لله رؤية محيطة. وإن القرآن الكريم حافل بالصور، ولكنها ليست للتصــوير الحسى .. إنها رؤى ممتدة ... يقول الله – تعالى –:

---

(١) الآيتين (٢٥٠، ٢٥١) سورة البقرة.
(٢) الآيات (٣-٦) سورة مريم.
(٣) الآية (٨٩) سورة الأنبياء.
(٤) الآية (١٦) سورة الكهف.

كيف تصور هذه الآية .. رؤى ممتدة، هى انفتاح لا يعادى العقل، ولكنه أبعد منه مدى ... انفتاح يرى الخلد لا يعنى استمرار الزمن، ولكنه يعنى ما وراء الزمن»[١].

تأمل معى المساحات الهائلة الرحبة الواسعة المرحبة بانطلاق الإنسان فى رحلة الخلود التى لا تعنى استمرار الزمن، بل ما وراءه، الفرصة مهيأة أمام الإنسان الحر لكسر أى حواجز تعوق مسيرته فى التكامل. وتصف السيدة الفاضلة الحضارة بأنها «عطاءِ الإنسان: عقله وروحه ووجدانه ويده»[٢]، وتقول:

«ومن إشراقات روحه اهتدى للدين

ومن هزات وجدانه أبدع الفن، وأترع الخلق، وأمرع الحب

ومن صنع يده: الإناء والبناء والنسيج والزرع والشجر

ومن بدع أنامله: الرسم والتصوير والنمنمة والنقش على الحجر»[٣].

هى تعنى أن الفن هو الحرية التى مارسها الإنسان تخطيًا واستعلاء على صرامة الواقع الذى يتجاوز قدرات الإنسان. وأنا أقول: إن الدعاء هو حرية أخرى، تلى وتعلو وتكمل وتوسع وتتمم الحرية التى يعطيها الفن للإنسان. الدعاء أيضًا عطاء إنسانى حضارى تجتمع فيه إشراقات الروح مع هزات الوجدان، وارتفاع الأكف، وخفقات القلب فى معارج خليفة الله فى رحلته التصاعدية؛ ليكون ربانيًا.

يقول أليكسس كاريل فى كتاب له عن الدعاء «Laperier»[*]:

«للدعاء أعمق الأثر فى روح الإنسان وفطرته. إنه ينضجه وينميه إلى حد أن يضيق كيانه بأثر البيئة والوراثة»، انظروا كم هو الحد الذى يضيفه الدعاء إلى حرية الإنسان وتحرره. الدعاء يلغى أثر الچينات والمجتمع والجغرافيا والتاريخ.

---

(١) من عبقرية الإسلام، مرجع سابق، صـ١٠٤.
(٢) المرجع السابق، صـ١٠٤.
(٣) المرجع السابق، صـ١٠٤.
(*) كل ما ورد عن مقولات أليكسس كاريل عن الدعاء من كتاب الدعاء للدكتور على شريعتى، ترجمة سعيد على، ط٢، الناشر مؤسسة حسينية الإرشاد، جمادى الأولى ١٤١٥هـ.

ويقول أيضًا: «ما من أمة فى التاريخ كتب عليها الاندثار التـام. اللهـم إلا إذا كانت قد هيأت نفسها للموت بالضرب عن الدعاء صفحًا»

وقد وصل اليكسس كاريل فى زعمه هذا إلى درجة الحكم بأن إهمال الدعاء هو أحد مسببات انهيار الحضارة فقال: «متى ضعف الدعاء فى قوم وأهملـت سـننه، كانت العلامة على انحطاط القوم وعجزهم. فالمجتمع متى انصـرف عـن التعبـد والدعاء أعد فى نفسه مناخًا لجراثيم الانحطاط والاضمحلال، والضعف والعجز. لقد كانت روما عظيمة عريقة فى العظمة، بيد أن عزوف أهلها عن العبادة قـد جرهـا إلى الذلة والضعف».

ولذلك يحض القرآن بشدة على استخدام هذه الحرية حيث يقول:

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾[1]،

ويحض الرسول على بيان ذلك للناس:

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾[2]،

ويحذر بقوة من الإعراض عن الدعاء:

﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ۖ ﴾[3]

بل يصف القرآن الدعاء بأنه العبادة فى قوله:

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾[4]

ويصفه الرسول بوصف مانع جامع «الدعاء مخ العبادة»[5].

وإذا كان الفن هو المعادل الموضوعى لصرامة عالم الطبيعة الذى لا يعرف إلا

---

(١) الآية (٦٠) سورة غافر.
(٢) الآية (١٨٦) سورة البقرة.
(٣) الآية (٧٧) سورة الفرقان.
(٤) الآية (٦٠) سورة غافر.
(٥) [ضعيف] الترمذى فى: الدعوات [٣٣٧١].

الكم، حيث يقول أوجست كونت عن علم الرياضة - وهى ملكة العلوم «بأنها قياس غير مباشر للكميات»[١]، لذلك فإن «وجود عالم آخر (نظام آخر) إلى جانب عالم الطبيعة، هو المصدر الأساسى لكل دين وفن. فإذا لم يكن هناك سوى عالم واحد لكان الفن مستحيلاً». لذلك فقد عرّف جياكومتى الفن بأنه: «البحث عن المستحيل»[٢]، وإذا كان الفن هو حرية البحث عن المستحيل، فإن الدعاء هو طلب «لحدوث المستحيل»، فإن ما هو مستحيل فى العقول، لا يستحيل على فاطر السماوات والأرض.

﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ۝ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾[٣].

«وإذا كان الفن وهو يمارس حريته يتجاهل الحقائق - بل يتجاهلها متعمدًا - وهو يبحث عن الصدق فى الأشياء. لذلك نجد الفن التجريدى يميل إلى حذف كل شبَه بالعالم الخارجى، معطيًا للشكل واللون معنى روحيًا، كما قال وستلر: (أن تجرِد الرسم من أى اهتمام خارجى)»[٤]، فإن الدعاء يعطى زخمًا أقوى للحرية وهو يتوخى الصدق؛ لكى يطلب أيضًا إعادة ترتيب الحقائق بدون حذفها؛ ليُدخل قضاء الله فى مسيرة الإنسان التكاملية، وفى ذلك دعاء إبراهيم الذى كان يعلم تمام العلم من تجربته مع أبيه وقومه، مدى الانحطاط الذى تؤدى إليه صناعة الآلهة والأوثان فى بنيان المجتمع، وضراوة التغوّل على حرية الإنسان الفرد من هذه النظم لبناء تراتبية طبقية ثــقيلة تجثم على حرية الناس من خلف هذه الآلهة وصناعتها، وعن طريق تزييف الوعى تهدف إلى إلهاء الناس وامتصاص خيراتهم، نراه طالبًا تغيير مسار التاريخ الإنسانى بتقوية التوحيد، الذى يحرر الناس من كل عبودية، إلا العبودية للواحد الأحد، فينضرع قائلاً:

---

(١) الإسلام بين الشرق والغرب، بيجوفيتش، مرجع سابق، صـ١٣٨.
(٢) المرجع السابق، صـ١٣٧.
(٣) الآيتين (١٧٣، ١٧٤) سورة آل عمران.
(٤) بيجوفيتش، مرجع سابق، صـ١٤٢.

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ۝ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾[1].

وقال فى الموقف نفسه:

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ۝ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾[2].

ولقد استجيب لــه، وتغيرت مسيرة التاريخ وجاء محمد ﷺ ، ولذلك يوصف الرسول ﷺ بأنه «دعوة إبراهيم»[3].

الدعاء هو إرادة التغيير لما فوق الطاقة للإنسان، هو عمل إيجابى بمعنى الكلمة، لذلك يتطلب الصدق واليقين وحسن التوجه والإصرار والإلحاح، وفى ذلك يقول الرسول ﷺ: «ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أن الله لا يستجيب من قلب غافل لاه »[4]، وقال أيضًا: «سلوا الله حوائجكم حتى الملح»[5]، وذكر الرسول ﷺ: «إن الرجل يطيل السفر، أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يارب يارب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذى بالحرام، فأنى يستجاب لذلك»[6].

---

(١) الآيتان (٢٥، ٢٦) سورة إبراهيم

(٢) الآيات (١٢٧-١٢٩) سورة البقرة.

(٣) [صحيح] ابن عساكر فى «تاريخه» ج١ صـ٣٩، والبيهقى فى «دلائل النبوة» ج١ صـ٦٩.

(٤) [حسن] الترمذى فى : الدعوات [٣٤٧٩].

(٥) [ضعيف] ذكره الألبانى فى «ضعيف الجامع» [٣٢٧٦].

(٦) [صحيح] مسلم فى : الزكاة [١٠١٥] ، والدارمى فــى الرقاق [٢٧١٧]، وأحمد فى «مسنده» ج٢ صـ٣٢٨.

الدعاء لا يطلب المستحيل فقط، بل إنه يحققه أيضًا، فالدعاء يصارع القضاء، وفى ذلك يقول الرسول ﷺ : « لن ينفع حذر من قدر، ولكن الدعاء ينفع مما نزل، ومما لم ينزل، فعليكم بالدعاء عباد الله »[١].

الدعاء مناجاة، ورسالة حب إلى الحبيب، وقصيدة شعر إلى المعشوق وزفرات شوق إلى اللقاء، ونبضات عشق إلى قمم الخلود، والتقاء المحدود باللا محدود، وبقاء وخلود الفانى عندما يلتحق بالبقاء السرمدى، فلا مجال فى الدعاء للمحاكاة والتقليد، بل المطلوب هو الصدق والخلوص والتجرد، وما هو كيف لا كم، وما هو شخصى لا منقول، ما بين الخوف والرجاء، والقبض والبسط، والهيبة والأنس، والرغبة والرهبة، يصعد الدعاء محمّل بالتجربة الذاتية، ومحققًا لها، وصادرًا عنها، هو لفظك أنت، ونظمك أنت، وتجربتك أنت، هذا هو الدعاء المطلوب الذى يخرق الحجب، ويصارع القضاء، ويستوجب الإجابة. الكيف هنا هو المطلوب لا الكم ولا التقليد.

يقول «على عزت بيجوفيتش»: «فى القصيدة، وفى اللحن، واللوحة الفنية نواجه سرًّا أو كيفًا بالمعنى الميتافيزيقى للكلمة. فكيف يمكن تفسير الاختلاف بين اللوحة الأصلية، وبين نسخة منها بواسطة الكم؟ (يعنى أن اللوحتين من ناحية الكم أى الشكل والأبعاد والألوان متساويتان تمامًا). اللوحة الأصلية تملك كيف الجمال «وكل نسخة قبيحة»[*]. فهل نشأ الاختلاف من أن شيئًا قد أضيف أو حذف من النسخة بالمعنى الكمى للكلمة؟ لا .... إنما يكمن الاختلاف فى اللمسة الشخصية بين الفنان وعمله الفنى. فالكيف يمكن أن يوجد فقط فى تلك «اللمسة» الشخصية»[٢]. ويقول الرسول ﷺ «**اقرب ما يكون العبد من الله وهو ساجد**»[٣]، ولذلك فإن فى هذا الموقف الشديد الخصوصية، والذى ينم عن إعلان الإنسان بشكل واضح وصريح وعمليّ، عن عدم خضوعه فى هذا العالم إلا لمن خلقه، وشق سمعه وبصره، وسواه

---

(١) [ضعيف] أحمد فى «مسنده» ج٥ صـ٢٣٤.

(*) انظر إميل تشارتير.
EMILE CHARTIER (ALAIN) SYSTEM DES BEAUTY ART, PARIS, GALLIMARD, 1959.

(٢) بيجوفيتش، مرجع سابق، صـ١٣٩.

(٣) [صحيح] مسلم فى: الصلاة [٤٨٢]، وأبو داود فى الصلاة [٨٧٥]، والنسائى فى: التطبيق ج٢ صـ٢٢٦

وعدلـــه، وفضّله وأحبه، فى ذلك الموقف الذى استحق به خليفة الله السيادة على الكائنات، واختار بحرياته المتاحة ألا يسجد إلا لله ، لا ينبثق خلال هذا الموقف الخاص إلا الدعاء، وهنا نهى الرسول ﷺ عن الدعاء فى السجود بالأدعية القرآنية، فعن أبى هريرة ﷺ : قال الرسول ﷺ: «**أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فأكثروا فيه من الدعاء**»[1]، وروى ابن عباس - رضى الله عنهما - عن النبى ﷺ أنه قال: «**إنى نُهيت أن أقرأ القرآن راكعًا أو ساجدًا، فأما الركوع فعظموا فيه الرب، وأما السجود فاجتهدوا فيه بالدعاء، فإنه قمن أن يستجاب لكم**[2]»[3]. فى هذا الموقف (السجود) يريد الله أن يسمع رسالتك أنت الشخصية، لمستك الشخصية، تجربتك الذاتية، تعبيراتك العاطفية، تجلى تصورك الاعتقادى فى كلمات منك أنت لـــه. لا يوجد فى الإبداع فريق عمل، يوجد شخصية، كذلك الدعاء، دعاؤك أنت، مخلصًا لـــه، بينك وبينه.

أنظر معى إلى دعاء الرسول، عندما أغرى كبراء الطائف، الصبية والعبيد والسفهاء، أن يضربوا الرسول بعد أن رفضوا دعوته لهم بالهداية، وأوقفوهم فى صفين يحيطان بالرسول، وهم يرشقونه بالحجارة المدببة، وجرحوه، وأسالوا الدم من كعبيه، وكان كلما سقط على الأرض أوقفوه ليرشقوه مرة أخرى، فلما انتهوا منه، آوى إلى جدار، ودعا: «**اللهم إنى أشكو إليك ضعف قوتى، وقلة حيلتى، وهوانى على الناس. يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين وأنت ربى، إلى من تكلنى، إلى بعيد يتجهمنى، أم إلى عدو ملكته أمرى. إن لم يكن بك غضب على فلا أبالى، لكن عافيتك أوسع لى. أعوذ بنور وجهك، الذى أضاءت لـــه السماوات، وأشرقت لـــه الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، أن ينزل بى غضبك، أو تحل على نقمتك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بالله** »[4].

ويقول الرسول ﷺ « **إن الله حيى كريم يستحى إذا رفع الرجل إليه يديه أن يردهما صُفرًا خائبتين**»[5].

---

(١) انظر تخريج الحديث السابق.

(٢) [صحيح] أبو داود فى الصلاة [٨٧٦]، وأحمد فى «مسنده» ج١ صـــ٢١٩.

(٣) إحياء علوم الدين، الغزالى، جـــ١، صـــ٣١٥، بدون تاريخ.

(٤) [ضعيف] تاريخ الطبرى ج٢ صـــ٣٤٥، ط دار المعارف.

(٥) [حسن] أبو داود فى : الوتر [١٤٨٨]، وابن ماجه فى: الدعاء [٣٨٦٥].

ويقول: «ما من رجل يدعو بدعاء إلا استجيب لــه، فإما أن يُعجَّل لــه فى الدنيا، وإما أن يُؤخَّر لــه فى الآخرة، وإما أن يُكفَّر عنه من ذنوبه بقدر ما دعا، ما لم يدعُ بإثم أو قطيعة رَحِم، أو يستعجل يقول: دَعَوْت ربى فما استجاب لى»[1].

حق الخطأ وحق المغفرة واجب المحاولة

التكليف مشقة وجهد واجتهاد، والإرادة محاولة، والحرية اختيار بين بدائل، والصواب لا يلزم فى كل البدائل، والاجتهاد يصيب ويخطىء، والمحاولة تنجح وتخيب. الإنسان المكلف الملتزم ذو الإرادة المختارة، هو إنسان عامل متحرك فعال، والخطأ يتشابك مع هذه النشاطات تشابك خيوط الثوب المنسوج. قيل فى وصف ابن الخطاب: «كان إذا تكلم أسمع، وإذا مشى أسرع، وإذا ضرب فى الحق أوجع». ويسرى الخطأ فى هذه الأعمال كما يسرى الصواب.

خلق الإنسان ضعيفاً

ويصف القرآن الإنسان بأوصاف تدل على ضعفه، وأنه عرضة لكل أنواع الأخطاء التى ترقى فى بعض الأحيان إلى رتبة الخطايا، وأن ذلك الضعف جزء من بنية الإنسان، وإليك بعض هذه الأوصاف

﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾[2]،

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا ﴾[3]،

﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ۝ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴾[4]،

﴿ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَـٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴾[5]،

---

(١) [صحيح] الترمذى فى : الدعوات [٣٥٧٣]، وأحمد فى «مسنده» ج٣ صـ٢٦٠.
(٢) الآية (٣٤) سورة إبراهيم.
(٣) الآية (٢٨) سورة النساء.
(٤) الآيات (١٩-٢٢) سورة المعارج.
(٥) الآية (٥) سورة القيامة.

﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ (*) ﴾[1]،

ولقد أحب الله الإنسان وفضله لا على الرغم من ذلك الضعف البنيوى، ولكن الله أحبه لذلك الضعف الكامن فيه

يقول الحق - تبارك وتعالى -:

﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[2].

ويقول الرسول ﷺ : «**كل ابن آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون**»[3]، ويقول «**والذى نفسى بيده، لو لم تذنبوا، لذهب الله بكم، وجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله تعالى فيغفر لهم**»[4]. وعن أبى أيوب خالد بن زيد - رضى الله تعالى عنه-، قال[5] سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لولا أنكم تذنبون، لخلق الله خلقًا يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم**»[6].

خطورة الخوف من الوقوع فى الخطأ

الحرية تقتضى المحاولة، والمحاولة شرف يقتضى الأجر حتى فى حالة الخطأ: «**من اجتهد فأخطأ فله أجر، ومن اجتهد وأصاب فله أجران**»[7]. الخطأ هو أول الطريق إلى المعرفة، والخبرة وتراكم المعرفة لا تنتجان إلا عن توالى المحاولة، وعدم الخوف من الخطأ؛ لأن الخوف من الخطأ إذا تمكن من نفس الإنسان أقعده عن الحركة، وقيده بقضبان الذعر، أى سلبه حريته التى تعاقد مع الله على العمل بها، وحولــه إلى جماد مربوط بالأرض لا يستطيع الارتقاء أو الحركة، ويعيب القرآن على ذلك الموقف قائلاً:

(*) كنود: كفور جحود.

(١) الآية (٦) سورة العاديات.

(٢) الآية (٥٣) سورة الزمر.

(٣) [حسن] الترمذى فى: صفة القيامة [٢٤٩٩]، وابن ماجه فى: الزهد [٤٢٥١].

(٤) [صحيح] مسلم فى: التوبة [٢٧٤٩]، وأحمد فى «مسنده» ج٢ صـ٣٠٩.

(٥) أبو أيوب خالد بن زيد، شهد العقبة مع السبعين، ونزل عليه الرسول ﷺ حين رحل من قباء إلى المدينة، وشهد بدرًا وأحدًا والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ. توفى سنة (٥٢هـ). صفة الصفوة ج١ صـ١٤٨-١٤٩.

(٦) [صحيح] مسلم فى: التوبة [٢٧٤٨].

(٧) سبق تخريجه.

﴿ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْآخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾[1].

أنظر إلى أسلوب المحاسبة عند الوقوع فى الخطأ، الأسلوب الذى يوقظ الحواس، وينبه العقل، ولا يجعل الخوف يسرى فيقعد الإنسان عن تكرار المحاولة:

﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾[2]

لقد قدم العفو، ثم التنبيه على موضع الخطأ. وموقف يوسف من إخوته وما فعلوه به:

﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾[3]

والتثريب هو نزع طبقة الدهن التى تلى الجلد فوق العظام، كناية عن اللوم المؤلم الشديد، وموقف الرسول ﷺ مع قريش بعد الفتح: «**ما تظنون أنى فاعل بكم؟**» قالوا: خيرًا. أخ كريم، وابن أخ كريم. قال: «**فاذهبوا، فأنتم الطلقاء**»[4] هكذا بعد كل ما فعلوا به وبأتباعه.

الخطأ شخصى

والذنب العظيم الذى يستعصى على العفو، ويستوجب العقاب، فالمسئولية فيه – فى الإسلام – مسئولية شخصية، بمعنى أن الذنب لا يورّث، وأنه لا يؤخذ أحد بذنب آخر، حيث إن إحدى القواعد الكلية فى العبادات هى قاعدة:

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾[5]

وفى ذلك يقول فتحى رضوان: «فالإنسان يتحمل جزاء عمله، هو الذى يثاب

---

(١) الآية (٣٨) سورة التوبة.
(٢) الآية (٤٣) سورة التوبة.
(٣) الآية (٩٢) سورة يوسف.
(٤) البيهقى ف «السنن الكبرى» ج٩ صـ١١٨.
(٥) الآية (١٦٤) سورة الأنعام.

عليه، وهو الذى يؤاخذ عليه، ولا تتجاوز الأعمال إلى غير أصحابها، فالأب لايجازى على خطأ ابنه، والابن لا يحاسب على خطأ أبيه....»[1]

﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾[2].

لماذا لا يغفر خطأ الشرك ؟

وإذا كانت حرية الإنسان التى وهبها الله لـــه، هى التى وفرت لـــه حرية الخطأ، وأعطته غفران الخطأ مع تكراره، بل وميزته بالأجر والثواب عند المحاولة حتى فى حالة الخطأ، فإن إهدار هذه الحرية، بالعبودية لإله غير الله، صنمًا كان أو وثنًا، هوى كان أو شيطانًا، وقوعًا فى أسر عادة أو تقليدًا، إلغاء للعقل كان أو استسلامًا لخرافة، أى مظهر من مظاهر الشرك بالله، يهدر أساس التعاقد، ولا يستوجب الغفران، وفى ذلك يقول القرآن:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾[3]

الشرك هو هدم للحرية، وانتقاص من كيان وماهية الإنسان بعد أن اكتمل بها، والنقص ظلم كما سبق أن بينا؛ لذلك يقول لقمان لابنه:

﴿ يَـٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾[4].

حرية الخطأ لا تعنى استمرار الوقوع فيه

وإذا كان الخطأ هو المفتاح للخبرة، وتراكم المعرفة، فإن الإصرار عليه، يدخل بالإنسان فى دائرة الإدمان، وذلك أيضًا يعنى التفريط فى الحرية، ويمثل شكلاً من أشكال الشرك التى تبعد الإنسان عن محيط الغفران المترامى الأطراف؛ ولذلك يقول القرآن:

﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن

---

(١) فتحى رضوان، مرجع سابق، صـ١٧٣.

(٢) الآية (٣٨) سورة المدثر.

(٣) الآية (٤٨) سورة النساء، والآية (١١٦) سورة النساء.

(٤) الآية (١٣) سورة لقمان.

قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝ وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ ﴾[1]،

ويقول:

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴾[2].

الإصرار على الخطأ مع العلم، هو انحطاط بالإرادة الواعية، واختيار للهوى والعادة، إنه ببساطة تفريط فى الحرية يستوجب الحرمان من المغفرة. يستوى مع السابق فى ذلك الذى يمارس الخطأ ولا يتعلم من التجربة، فذلك يعنى أن الإدراك الحسى والإدراك العقلى، والعقل المدرك الوازع والحكيم فى سبات، أى أن الحواس منوّمه أو مخدّرة، والعقل غائب، والقلب لاه أو غافل، ويتحول الخطأ هنا من أداة توصل إلى الوعى الناقد الذى يحسن الاختيار بين البدائل إلى ممارسة لا واعية مستديمة، ولا يصبح الخطأ وسيلة لتراكم الخبرة، وزيادة المعرفة، ومطية إلى الصواب، بل يتحول الخطأ المتكرر إلى وسيلة هدم، هدم للذات، وهدم للآخر، وإفساد فى الأرض، ولذلك نفى الرسول عن ذلك الإنسان صفة الإيمان بالكلية؛ لأن المؤمن يقظ وكيّس وفطن، ولا يمكن أن يكون المؤمن أبلهًا متخبطًا مخدر الحواس، فيقول الرسول: «لا يلدغ المؤمن من حجر واحد مرتين»[3]. كثير من الناس لا يقرأون هذا الحديث على هذا النحو، ولا أدرى لماذا ؟!!

الخطأ والتصحيح طريق المحبة لله

حرية الخطأ والتجربة وتحرى الصواب تعطى مساحة واسعة من الحرية للإنسان المكلف المتيقظ الواعى، المتفتح للتعلم واكتساب المعرفة، والاستفادة من

---

(١) الآية (١٧، ١٨) سورة النساء.
(٢) الآية (١٣٥) سورة آل عمران.
(٣)[صحيح] البخارى فى: الأدب [٦١٣٣] ، ومسلم فى: الزهد والرقائق [٢٩٩٨].

الخبرة، والخطأ هو الطريق للمعرفة، وهو الباب إلى محبة الله، واصبروا معى قليلاً على هذه العبارة «الخطأ هو الباب المؤدى إلى محبة الله»؛ لأن الله يقول فى القرآن:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾[1].

مم يتوب التوابون؟ ومم يتطهر المتطهرون؟ من الخطأ أليس كذلك! وفى ذلك يقول ابن عطاء الله السكندرى فى إحدى حكمه: «رب معصية أورثت ذلاً وانكسارًا، خير من طاعة أورثت عزًا واستكبارًا».

عن النبى ﷺ فيما يحكى عن ربه - تبارك وتعالى - قال: «أذنب عبدٌ فقال: اللهم اغفر لى ذنبى، فقال الله - تبارك وتعالى -: أذنب عبدى ذنبًا، فعلم إن لـــه ربًا يغفر الذنب، ويأخذ بالذنب، ثم عاد فأذنب فقال: أى رب اغفر لى ذنبى فقال - تبارك وتعالى -: أذنب عبدى ذنبًا، فعلم أن لـــه ربًا يغفرُ الذنب ويأخذ بالذنب، ثم عاد فأذنب فقال: أى ربِّ اغفر لى ذنبى، فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدى ذنبًا، فعلم أنَّ لـــه ربًا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب، قد غفرت لعبدى فليفعل ما شاء» متفق عليه[2]. وقولـــه: (فليفعل ما شاء)، أى مادام يفعل هكذا، يذنب ويتوب اغفر لـــه، فإن التوبة تهدم ما قبلها.[3] ألا يستحق العشق هذا الرب الغفور الغفَّار ؟

الحرية والتصور الاعتقادى

الإنسان كائن مكلف، والتكليف مسئولية تستلزم الأداء، والكون وجود حقيقى، والإنسان موجود بحق، وهذا الوجود موجود لغاية وليس نتيجة أسباب لا تملك العدة اللازمة لما تحققه من غايات، أو مجرد ارتصاف ذرات عرضى كما قال «راسل»[4]، ولا نتيجة لهو أو عبث أو حتمية عمياء؛ لأن الله يقول:

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴾[5].

---

(١) الآية (٢٢٢) سورة البقرة.

(٢) [صحيح] البخارى فى التوحيد [٧٥٠٧]، ومسلم فى : التوبة [٢٧٥٨].

(٣) رياض الصالحين، صـ١٩٧.

(٤) انظر الفصل الأول.

(٥) الآية (٣٨) سورة الدخان.

بل الأمر جد خطير:

﴿ إِنَّهُۥ لَقَوۡلٌ فَصۡلٌ ۝ وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ ﴾[1]،

والمسئولية شخصية وإلزامية

﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا ﴾[2].

التكليف يشترط الطاعة والحرية، وقد حمل الإنسان هذه الأمانة وهى الحرية؛ لذلك أصبح خليفة عن الله فى أرضه، وعندما يصدر النداء من المولى - عزوجل- إلى الإنسان قائلاً:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ ﴾[3]،

فإن خليفة الله هو الكائن الوحيد الذى يستطيع أن يقول:

﴿ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ ﴾ ،

أو يرد قائلاً:

﴿ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا ﴾

أو ﴿ وَٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ ﴾

أو أن يضع أصابعه فى أذنيه ويستغشى ثيابه؛ لمنع النداء من الوصول إليه. وإذا كانت الإجابة بالطاعة، فإن الإنسان يملك الحرية على اختيار الطريق الذى يعتقد أنه يوصله للطاعة، من خلال القرآن والسنة النبوية، فالسبل إلى الله متعددة:

﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾[4].

لكن الطاعة والاختيار يحتاجان إلى فهم ورؤية ووعى. الحرية فى العقل والتفكير والسؤال والنقاش والجدل والرأى، تؤدى إلى مزيد من الفهم والوضوح

---

(١) الآيتين (١٣، ١٤) سورة الطارق.

(٢) الآية (١٣) سورة الإسراء.

(٣) الآية (٢٤) سورة الأنفال.

(٤) الآية (٩٩) سورة العنكبوت.

وكشف الحقيقة، والارتقاء من خلال إعمال العقل الوازع والحكيم، وبلوغ الرشد يزيد من اتساع الرؤية، ومن حدة البصيرة، ومن الإلمام بالحقيقة والوصول إلى مزيد الحكمة والرشد.

الإيمان يستلزم تصورًا ذهنيًّا

لقد أوجب الله العبادات والأوامر والنواهى حين قال:

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [1]،

وأوجب الإعمار والتنمية والعمل حين قال:

﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾[2]،

والعبادة والعمل والأوامر والنواهى تتطلب الفهم وووضوح الرؤية. العقيدة أو الإيمان أو النية، كلها محلها القلب، وهى ما يعتقده الإنسان بقلبه، أو هى الأساس الفطرى أو «الجانب النظرى الذى يُطلب الإيمان به أولاً وقبل كل شىء»[3]، كالإيمان بالله ووحدانيته وملائكته وكتبه ورسله والبعث واليوم الآخر والقدر، وكل ذلك يستتبع تصورًا معينًا يختلف باختلاف قدرات الناس، وذلك التصور الذى يحتاج أيضًا إلى فهم هو ما أعنيه بالتصور الاعتقادى. كل شىء فى حياة الإنسان يقتضى تصورًا معينًا، حتى إن النظريات العلمية يصفها البعض بأنها صورة عقلية أو ذهنية؛ لأنه «مهما كانت التجربة أو المشاهدة مباشرة، إلا أنها لا تعدو أن تكون مظهرًا خارجيًّا للحقيقة الواقعة؛ لأن تلك التجربة ليست هى الحقيقة نفسها. ومثال ذلك أن رقم التليفون مرتبط بصاحبه، إلا أن هذا الرقم ليس هو بعينه صاحب التليفون. فكل ما يربط المشاهدة أو التجربة بالحقيقة الواقعة هو شىء آخر غير المشاهدة كما نرى. ولهذا السبب عرّف أحد العلماء (النظريات) بأنها: «صور ذهنية تشرح قوانين معروفة»[4]. كلما زاد فهم الإنسان، كلما زاد وضوح الصورة الذهنية لديه أى وضوح تصوره الاعتقادى.

---

(١) الآية (٥٦) سورة الذاريات.

(٢) الآية (٦١) سورة هود.

(٣) الإسلام عقيدة وشريعة، صـ٩.

(٤) الدين فى مواجهة العلم، وحيد الدين خان، ط٢، المختار الإسلامى، ١٩٧٣م، صـ١٤.

التصور الاعتقادى أو الفقه القلبى أو النية: ألفاظ لمعنى واحد

الفقه بالمعنى القرآنى

كلمه «الفقه» لغة تعنى الفهم، إذن فالعبادات والأوامر والنواهى والعمل كل ذلك يقتضى من الإنسان أن يفقهه (أى يفهمه). ولقد انحصرت كلمة الفقه فى الذهنية الإسلامية منذ وقت غير قصير بمدلول محدود للغاية، حدده «الفقهاء» بأنها تعنى «استنباط الأحكام الشرعية من أدلتها التفصيلية» وقد شرحنا أسباب ذلك باختصار فى أول هذا الفصل، ولكن حينما نقول الآن إن العبادات والأعمال والتصور الاعتقادى تحتاج إلى فهم أو فقه، فنحن هنا لا نعنى بكلمة الفقه المدلول الضيق الخاص باستنباط الأحكام الشرعية، بل نعنى بها الفقه بالمعنى الذى يشمل المدلول الذى قال به الفقهاء، إضافة إلى فقه كل ما يحيط بالإنسان من الطبيعة والكون والآخر، فقه علاقته بخالقه، وبكل ما خلقه ويحيط بالإنسان. عندما يحث الحق - تبارك وتعالى - الناس على التعارف فى تقسيماتهم كشعوب وقبائل، فهو يريد أن نفقه الاختلاف فى علوم الاجتماع والسياسة والاقتصاد والأنسنة (أنثروبولوجى)، وعندما يتحدث جل شأنه عن البحر فيقول:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا ﴾[1]،

ويقول:

﴿ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾[2]،

فهو هنا يريد منا أن نفقه علوم البحار، والأمواج، والتيارات، وأنواع الأحياء المائية، وحركات المد والجزر، وتأثيرات درجات الحرارة على كل ذلك، وأساليب الصيد، وأنواع الشباك، وتحركات أسراب السمك والحيتان، وهندسة السفن، وسفن الصيد، ووسائل حفظ الأسماك وتقطيعها، وطرق تعليبها، لا أن نكتفى بقول إن «ميتة البحر حلال» ثم نشوى أو نقلى السمك، ونتجشأ، ونحمد الله على أن سخر لنا البحر، وسخر لنا من يصدِّر لنا التونة والماكريل.

وما أقول يتفق مع المفهوم القرآنى لكلمة «الفقه»، وفى ذلك يقول الشيخ

---

(١) الآية (١٤) سورة النحل.
(٢) الآية (١٣) سورة فاطر.

الغزالى: «المهم أن كلمة (فقه) من الناحية اللغوية لها أبعاد غير ما استقر في الأذهان ... فنجد أن هناك فقهًا للفلك، وفقهًا للنفس، وفقهًا للأخلاق، وفقهًا للحضارة، وهذا ما نلمحه من قوله تعالى:

﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾(*)(١)،

ثم يستطرد الشيخ الغزالى قائلاً: «ما الفقه هنا إلا معرفة مستقر النفس قبل أن توجد، وهى فى الرحم، بدليل الآية:

﴿ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ ﴾(٢)

أى أنه يقول إن معنى (مستقر) فى آية سورة الأنعام تعنى (الرحِم) بدليل آية سورة الحج رقم (٥). ثم يقول: «ما المستودع؟ .. إنه القبر، وما يصل إليه البدن ... ثم ما بين المستقر والمستودع (أى ما بين الرحِم والقبر) من حياة هذا كله يحتاج إلى فقه (أى فقه الحياة الشامل). هذا الفقه قد يكون فقهًا فى علم الأجنة ... وقد يكون فقهًا فى أشياء كثيرة كما توحى الآية هنا، فالفقه الذى أشار إليه القرآن هنا واسع المرادات، لكن غلب علينا أن نترك توجيهات القرآن غفلة، مثلما تركنا إلى الآن حساب الزمن بالنظام الفلكى، فالآية قالت: العلم

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾(٣).

(*) الآيات (٩٦-٩٨) سورة الأنعام

(١) كيف نتعامل مع القرآن. مدارسة للشيخ الغزالى. المعهد العالمى للفكر الإسلامى، سلسلة قضايا الفكر الإسلامى (٥) صـ٦٩.

(٢) الآية (٥) سورة الحج.

(٣) الآية (٥) سورة يونس.

الآن نحن حريصون على أن تبقى الأمة أمة أمية، تحسب الشهر وتكتبه بالرؤية الحسية .... طبيعة الأميين ... أما أن يُعرف الحساب كما قالت الآية، حسابا فلكيًا فيعرف ميلاد الشهر بالنظام والحساب الفلكى، وبالمراصد كما يقع الآن، فهذا لا يزال أمرا مستبعدًا فى أذهان الناس، ولا نزال نرى أن واحدًا بالمشاهدة يستطيع تكذيب العلم! يعنى تقول المراصد فى الدول المتقدمة علميًا لا يولد القمر هذه الليلة، ويأتى واحد ويقول: أنا رأيت القمر .. ويُصدّق، وانتهى الأمر، وذهب العلم!» [١] انتهى.

لابد من أن يصبح مدلول كلمة الفقه (الفهم) هو المدلول القرآنى؛ لأنه هو المدلول الصحيح. وكلما زاد فقه الإنسان، كلما اتسع وتأصل تصوره الاعتقادى، أو أن التصور الاعتقادى هو الفقه القلبى. ويتحدث القرآن عن الفقه القلبى، حيث يعيب على بعض الناس أن:

﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾[٢].

التصور الاعتقادى هو المحرك الأساسى للإنسان الحر الملتزم ذى الإرادة الواعية؛ لأن العمل كما أسلفنا، هو الطرح الخارجى فى الطبيعة ومع الناس وبينهم، لتصور الإنسان الاعتقادى «**إنما الأعمال بالنيات....**»، و«**الإيمان ما وقر فى القلب وصدقه العمل**»، وقديمًا قالوا: كل إناء بما فيه ينضح.

يروى عن الأصمعى[٣] كما ورد فى العقد الفريد أنه قال: «كان الشعبى[٤] يحدث أنه فى بنى إسرائيل عابد جاهل قد ترهب فى صومعته، وله حمار يرعى حول الصومعة، فاطّلع عليه من الصومعة فرآه يرعى، فرفع يديه إلى السماء فقال: لو كان لك حمار كنت أرعيه مع حمارى، وما كان يشق علىّ. فهّم به نبىٌ كان فيهم فى ذلك الزمان، فأوحى الله إليه: دعه. فإنما أثيب كل إنسان على قدر عقله»[٥]. يثاب كل إنسان على قدر عقله، فيجب أن يُعمل الإنسان المكلف عقله بحرية

---

(١) كيف نتعامل مع القرآن. مرجع سابق، صـ٦٩.

(٢) الآية (١٧٩) سورة الأعراف.

(٣) الأصمعي: محمد بن قريب، من أكابر علماء العربية.

(٤) الشعبي: عامر بن شراحيل. ولد لستين مضتا من خلافة عمر. وكان أعلم أهل زمانه، وأفقههم في دين الله. مات سنة (١٤٤هـ). تهذيب الكمال ج٤ صـ٢٧-٣٠.

(٥) مثنوى جلال الدين الرومى، ترجمة د. كفافى، ك ٢، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٦٧، ط١، صـ٤٩٢.

وصرامة إلى أقصى مداه، ومن خلال الطبيعة، وبين النـاس بـالفكر والمناقشـة والسؤال ... والاستماع والتعارف والانتقال إلى الآخر، للوصول إلى الفقه القلبـي الذى يرقى بتصوره الاعتقادى.

يبدأ التصور الاعتقادى من الظن، حيث يقول القرآن الكريم فى وصف الخاشعين:

﴿ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾[1]،

ويقول:

﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾[2]،

ثم بالممارسة والتفكير والتزكية يتحول الظن شيئًا فشيئًا إلى العلـم. التصـور الاعتقادى يحتضن رؤية الإنسان، ونظرته إلى الخالق (إذا كـان مؤمنًـا)، وإلـى المخلوق أو إلى الآخر، بداية من أهله وأسرته وعشيرته وقومه وأمته، إلى الإنسان فى كل مكان، ويحدد علاقته بالكون والبيئة، وموقفه من الحيـاة، حياتـه وحيـاة الآخرين. لذلك فهناك من يقول: «لكل حضارة من الحضارات تصور كونى للعالم، أى نظرة يفهم وفقًا لها كل شيء ويقيّم. والتصور السائد فى حضارة ما هو الـذى يحدد معالمها، ويشكل اللحمة (الرابطة) بين عناصر معارفها ويملـى منهجيتهـا، ويوجه تربيتها. وهذا الإطار يشكل إطار الاستزادة من المعرفة، والمقيـاس الـذى تقاس به»[3]. التصور الاعتقادى هو أساس الإنسان الذى يقوم عليه بناؤه الداخلى، وهو أهم عناصر ماهيته، به يحكم الإنسان على ما يحيط به ويقيمه، ومن خلاله تتم تربية الإنسان، بل إن تراكم معارف الإنسان وخبراته، والحكم عليهـا بالصـواب والخطأ، وبالحق والبطلان، يتم داخل إطار هذا التصور، ولذلك فـإن «تصـورنا للعالم هو من الأهمية بحيث لا ندرك أن لدينا تصورًا ما، إلا حين نواجه تصـورًا بديلاً، إما بسفرنا إلى حضارة أخرى، وإما باطلاعنا على أخبار العصور الغـابرة،

---

(١) الآية (٤٦) سورة البقرة.

(٢) الآية (٢٤٩) سورة البقرة.

(٣) العلم فى منظوره الجديد، مرجع سابق عالم المعرفة (١٣٤) صـ١٥.

وإما حين يكون تصور حضارتنا للعالم فى طوْر التحول»[1]، وحالنا على سبيل المثال منذ الحملة الفرنسية، وحتى يومنا هذا، وما يعتمل داخل مجتمعنا من وقتها، وما تحس به أجيالنا فى هذه الأيام يجعل من الحصافة، ألا نزيد فى شرح العبارة السابقة.

التصور الاعتقادى أو الفقه القلبى هو مضمون الثقافة، وروح الحضارة لجماعة إنسانية ما، لذلك فقد «ذكر الأنثروبولوچى (عالم الأنسنة) المعروف مايكل كيرنى ( ) أنه لم يعد من الممكن دراسة التصورات حول الثقافات فى تكويناتها، والعلاقات فيما بينها، إلا بالاستناد فى ذلك، إلى بحوث وفرضيات «رؤية العالم» أو رؤاه. وكان هذا المصطلح (رؤية العالم) ( )، قد ظهر للمرة الأولى فى كتابات الفليسوف والمؤرخ الاجتماعى الألمانى ويلهلم دلتاى ( ) (١٨٣٣-١٩١١) ثم شاع فى أوساط الأنثروبولوچيين والمؤرخين منذ القرن التاسع عشر. وقد صنف السوسيولوچى الألمانى الكبير ماكس ڤيبر (١٨٦٤-١٩٢٠) تلك المقولة فى مستويين، درس استنادًا إليهما ثقافات تاريخية عدة:

أ - المستوى الأول

ما يطلق عليه دلتاى اسم (الصورة الكونية) التى تؤلف الكتلة الأساسية للمعتقدات، والمسلمات الافتراضية عن العالم الحقيقى والواقعى، والتى يمكن فى ضوئها الوصول إلى إجابات شافية عن التساؤلات عن مغزى الكون والوجود أو ما يعرف (بروح الحضارة).

ب - المستوى الثانى

يتعلق بالسياق التصورى الواعى والإرادوى، الذى تضع فيه الذات الجمعية نفسها ضمن تقسيمات العالم الواقعية أو المركبة من النواحى الثقافية فى الأصل، ولكن أيضًا من النواحى الأخلاقية والاجتماعية والسياسية»[2].

---

(١) العلم فى منظوره الجديد. مرجع سابق عالم المعرفة (١٣٤) صـ١٥.

(٢) جريدة الحياة ١٨/٥/٢٠٠١م مقالة رضوان السيد (رؤية العالم فى الفكر الإسلامى المعاصر).

حتمية الحرية لتأصيل التصور الاعتقادى

التفكير الحر، وإمعان التفكير فى حرية، هو وسيلة لتوضيح أفكار الإنسان لنفسه قبل الآخرين، والنقاش والجدل والسؤال هى وسائل تعديل الأفكار، وإزاحة الشبهات، وزيادة الصواب واتضاح الرؤية، والاقتراب من الحقيقة، والانتقال من الظن إلى مقربة من اليقين.

والحرية هى البنية التحتية التى يقوم عليها البناء الفكرى للإنسان، أو تصوره الاعتقادى، أو فقهه القلبى، وبها يستخدم الإنسان كل أدوات ومواد البناء من العقل والحواس والأفكار والمناقشة والمجادلة والسؤال والاختلاف، وإبداء الرأى والتعبير عنه، والسفر والتعارف والتعرّف على الآخرين، وتلاقح الأفكار والجرح والتعديل؛ ليرتفع الإنسان بتصوره الاعتقادى من الظن إلى العلم، ومن العلم إلى اليقين، ومن اليقين إلى حق اليقين، ومن حق اليقين إلى عين اليقين، فيعدل من مساره وخطواته خلال مسيرته التكاملية، ورحلته الارتقائية، بين مراتب النفس، من النفس الأمارة بالسوء، فالنفس اللوامة، فالنفس الملهمة، فالنفس المطئنة، فالنفس الراضية، فالنفس المرضية، ويقوم بواجب التكليف، ومسئولية الخلافة عن الله ، ويجاهد للتمكين فى الأرض، وضمان إدخال قضاء الله فى مسيرة التاريخ الإنسانى. والإنسان المكلف ذو الإرادة والاختيار، يعلم أنه سيقف فى موقف المساءلة؛ لأنه يؤمن أن:

﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۞ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ﴾(1)،

ويعلم

﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ﴾(2)،

وأن على كل إنسان أن يقدم الحيثيات التى تؤكد صحة ما ادعاه من دعاوى خلال حياته وأعماله، فالمطلوب هو تقديم البرهان على صحة ما ادعاه الإنسان فى مسيرته، والذى صدر بالضرورة عن تصوره الاعتقادى، فيقول القرآن:

﴿ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾(3)،

---

(1) الآيتين (5، 6) سورة الذاريات.

(2) الآية (7) سورة المرسلات.

(3) الآية (111) سورة البقرة.

وقولـــه:

﴿ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾[1].

الإيمان هو مادة التصور الاعتقادى

إذا كان تعريف الإيمان فى نصفه الأول بأنه « ما وقر فى القلب...» وهو الاعتقاد الذى يعقد عليه القلب ويربط، فالربط على القلب خاصة فى المواقف العاصفة التى قد تطيح بالإنسان من علامات ودلائل الإيمان، حيث يقول الله عن أم موسى، عندما ألقته فى اليم خشية عليه من القتل، ثم لم يطاوعها قلبها، وراودتها نفسها عن أن تصرح بأنه ابنها

﴿ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[2]،

أقول: على الرغم من أن الإيمان هو شعور يأخذ بتلابيب قلب المؤمن ويملكه، إلا أن القرآن يقول عنه أنه يزداد وينقص مثل الشىء المادى فيقول:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ٱزْدَادُوا كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ ﴾[3]،

ويقول:

﴿ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِيمَٰنًا ﴾[4]،

إذن فالحاجة قائمة للإنسان طوال رحلة حياته فى أن يستخدم الحرية المكفولة لـــه، والتى سبق الإشارة إليها من حرية العقل والفكر والاختلاف والمناقشة، ليزداد إيمانه، أى تزداد الاستنارة، وتتضح الرؤية، وتسطع شمس الوضوح على تصوره

(١) الآية (٧٥) سورة القصص.
(٢) الآية (١٠) سورة القصص.
(٣) الآية (١٣٧) سورة النساء.
(٤) الآية (٣١) سورة المدثر.

الاعتقادى، وعندما أقول رحلة حياة الإنسان، فأنا لا أعنى خلال فترة الوجود على سطح الكرة الأرضية فقط، بل أعنى بعد الانتقال بالموت، فمن مات وهو يطلب علمًا، وكّل الله ملائكة فى قبره يتمان لــــه ذلك العلم، كما قال رسول الله ﷺ .

معنى الخلود للإنسان

ولا يزال الإنسان يرتقى بعلمه يوم القيامة وفى الجنة، حيث إن حال المؤمنين هو التشوّف إلى مزيد من الوضوح والاستنارة، حيث يقول القرآن عن ذلك الموقف:

﴿ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[١]

إتمام النور يعنى طلب المزيد من وضوح الرؤية والتصور الاعتقادى.

التصاعد فى العلم والمعرفة والاستنارة ووضوح التصور الاعتقادى مستمرة بعد ذلك بلا توقف وبلا نهاية للعلم به ومنه وعنه، وهذا هو معنى الخلود. ويلفت الحق -تبارك وتعالى - النظر إلى هذه الحقيقة، بصورة ذهنية من واقع الطبيعة فى الدنيا، حيث يقول:

﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَـٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَـٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴾[٢]،

ويقول أيضًا:

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَـٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَـٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[٣].

هذا هو معنى الخلود، ومفهوم الأبدية، فرحلة الإنسان التكاملية فى المعرفة لا نهاية لها؛ لأنه لا نهاية لكمالات الله وعلمه، وبذلك لا تكون الجنة حسية فقط، هى

---

(١) الآية (٨) سورة التحريم.

(٢) الآية (١٠٩) سورة الكهف.

(٣) الآية (٢٧) سورة لقمان.

ليست فقط أنهارا من لبن وعسل وخمر وحور عين، وفاكهة ولحم طير، وقطوف دانية، بل هى أيضا معرفة وعلم وارتقاء واستنارة، فيقول الله – تعالى –:

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾[١]،

ويقول الرسول ﷺ «**إذا دخل أهل الجنة الجنة، فيقول الله تعالى: أتريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟ فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم**»[٢]. لذلك تقول د. نعمات فؤاد فى الحديث عن الجنة: «هل تستشرف مناهج التعليم ما وراء ظاهر الآيات؟ هل تفعل ذلك خطبة الجمعة المغرمة بالجنة والنار؟ ومادرت أن (الإيحاء) غير (المطابقة) ... فعندما يوصف إنسان بالكمال المنشود يقال إنه شجرة .. ولا يعنى هذا المشابهة، أو المطابقة فى اللحاء والورق والشجر، ولكن يقصد به أنه كالشجرة ظل وثمر ورىً ... والشجرة لا تؤذى حتى أعداءها ... والشجرة متجددة دائمًا. وهكذا الدين حين يصف الجنة للمحرومين أو المؤلفة قلوبهم، أو محبى المتعة الغارقين فيها، بأنها نخل ورمان وحور وولدان ... فى عملية تحبيب وحماس، مثل هذه الأوصاف كالشوكة الرنانة لها فى نفوسهم اهتزاز ورنين خاص ... وتبقى الجنة بعد هذه الأوصاف أكبر وأكمل وأجمل»[٣] .... ولا ننسى أنه قد قيل فى وصف الجنة «ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»[٤]، ما يعنى أن الجنة خارج نطاق الإدراك الحسى، وخارج نطاق ما ورائه من الإدراك الداخلى كالخيال والتصور، الجنة خارج ذلك كله.

تزاوج العقل والنقل (الوحى)

يجب ألا ننسى أيضا أن الترقى بالتصور الاعتقادى، فى مدارج الكمال إلى ما بعد اللانهاية، وإلى أبد الآبدين، وفى معارج الخلود، أن كل ذلك يبدأ من المحسوس، ومن الكون المحيط ومن الطبيعة الحاضنة، يبدأ حتى من البعوضة

---

(١) الآية (٢٢، ٢٣) سورة القيامة.

(٢) [صحيح] مسلم فى الإيمان [١٨١].

(٣) من عبقرية الإسلام، د. نعمات فؤاد، مرجع سابق، صـ٧١.

(٤) [صحيح] البخارى فى التوحيد [٧٤٩٨]، ومسلم فى الإيمان [١٨٩].

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ ﴾[1]

وهنا يظهر الفرق بين المؤمن وغير المؤمن، فما هو موقف كليهما؟ يقول القرآن:

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾[2]

الحرية للإنسان داخل الطبيعة، والحواس مداخل الفكر تتعامل مع مظاهر الطبيعة ولا تحس إلا بها، والعقل المدرك الوازع الحكيم يفهم من خلال الطبيعة وبها، ويبحث عن عللها؛ لذلك فالطريق يبدأ من الليل والنهار، والشمس وضحاها، والقمر والنجوم والكواكب، والشجر والدواب، والخيل والحمير والبغال، والزمن والوقت والعصر والفجر، والرجل والمرأة، والمرض والحيض والنفاس، والجنس والإخراج، والحب والعواطف والكره، والصحة والقوة والطغيان والاستغناء والضعف، والشباب والفتوه، والكهولة والتنكيس فى الأرض، وتداول الأيام والمناصب، والجبال والتمر والفاكهة، والنظافة والقذارة، والبول والغائط، والتعلق والتملق والنفاق، والاستشهاد والمبدأ والعدل والظلم، والطهور والنجاسة الحسية والمعنوية، صعودًا إلى الإيمان والإحسان، والكشف، والصبر، والرجاء، والخوف، والهيبة والأنس والصدق والتوكل والاطمئنان واليقين والمشاهدة ... فى رحلة الخلود. البداية من المحسوس للوصول إلى غير المحسوس. كيف يمكن أن تتعرف إلى غير المحسوس (فى حالة إيمانك بوجوده) ما لم تكن على دراية ما بالمحسوس أولًا. وكيف يمكن أن تنتقل إلى ما وراء الطبيعة، ما لم تكن على علم بالطبيعة. بعد أن تقدم العلم الطبيعى، وتقدمت علوم الفيزياء والكيمياء، وزادت معرفتنا بخواص المادة، بدأنا نعرف «المادة المضادة أو ضديد المادة»، وبدأنا نحس بوجود «المادة المظلمة»، ونستشعر وجود «المادة الغريبة»، وهذا فى كوننا الذى نعيش فيه. وبعد أن تقدمت علوم الرياضة مع الفيزياء وبدأنا نعرف الكون بأبعاده الثلاثة (الطول

(١، ٢) الآية (٢٦) سورة البقرة.

والعرض والارتفاع) ثم تقدمنا خطوة وجاءت نظرية أينشتين بالبعد الرابع الذى أضيف إلى الأبعاد الثلاثة السابقة وهو الزمن، وأصبحنا نعرف ما يسمى بالزمكان الرباعى الأبعاد، أو متصل الزمان والمكان الملتوى ذى الأبعاد الأربعة، وتقدمنا خطوة أخرى أو خطوات وأصبح الآن هناك من النظريات القريبة الاعتماد التى تقول إن للكون عشرة أبعاد (نظرية الأوتار الفائقة)!!. البدء دائمًا من الحس للوصول إلى الروحانى ومعرفته، ويشير على عزت بيــچوفيتش لتلك الحقيقة الرائعة قائلاً «الصلاة ليست مجرد تعبير عن موقف الإسلام من العالم، وإنما هى أيضًا انعكاس للطريقة التى يريد بها الإسلام تنظيم هذا العالم. فالصلاة تعلن أمرين: أولهما، أنه يوجد هدفان إنسانيان أساسيان [الهدفان هما ضرورة الجهود المادية والحسية (ممثلة فى الطهارة والوضوء وحركات الجسم)، بالإضافة إلى ضرورة الجهود الروحية (إقامة الصلاة والخشوع والحضور فيها)]، وثانيهما، أن هذين الهدفين – رغم انفصالهما منطقيًا يمكن توحيدهما فى الحياة الإنسانية، حيث إنه لا صلاة بدون طهارة، ولا جهود روحية بدون جهود مادية واجتماعية تصاحبها. إن الصلاة أكمل تصوير لما نطلق عليه (الوحدة ثنائية القطب) فى الإسلام. ونظرًا لما فى الصلاة من بساطة، فإنها قد اختزلت هذه الخاصية إلى تعبير تجريدى، وأصبحت بذلك المعادلة أو (الشفرة) الإسلامية»[١].

يتحرك العقل داخل الطبيعة إلى أقصى مداه؛ لأنها مجال عمله، ومرتع حريته، وعندما يصل العقل إلى حدوده القصوى، ويتكلف الإنسان ما فى وسعه، ويبذل أقصى ما فى طاقته، هنا يتدخل الحق – تبارك وتعالى – بالوحى، الذى ينقل إلى الإنسان ما وراء الطبيعة، أو يدخل بالإنسان إلى ما وراء الطبيعة، ويلتقى الوحى بالعقل، أو العقل بالنقل، أو جبريل وإبراهيم ونوح وموسى وعيسى ومحمد.

﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ ﴾[٢]

يلتقى العقل والوحى، وتبدأ رسالة الإنسان فى النضال من أجل إدخال قضاء الله فى مسيرة التاريخ على الأرض. يقول الله – تعالى –:

---

(١) الإسلام بين الشرق والغرب، بيجوفيتش، مؤسسة بافاريا، مجلة النور الكويتية ط١، ١٩٩٤، صـ٢٩٣

(٢) الآية (١٥) سورة المائدة.

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ......﴾

إلى قولــــه:

﴿ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ۝ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴾[1]

فى الآيات السابقة من سورة الإسراء، وصف الله - تعالى - قضاءه بإفراد العبادة لـــه وحده والإحسان إلى الوالدين والأقربين والمساكين ... مجموعة من القيم الأخلاقية واجبة على الإنسان المكلف - تبدأ بالتوحيد وتنتهى به - وعليه أن يعمل على التمكين لها فى الأرض خلال إقامته فيها، وأن يوقف عليها حياته، عن طريق النضال الفردى، والنضال الاجتماعى، والعمل الدءوب، وإرادة التغيير، والتزكية الذاتية، وضمان الحرية، ونشر العدل ومنع الظلم، والمساواة والإخاء، تحقيقًا لخلافته فى الأرض وسعيًا للترقى فى معارج الكمال فى رحلة الخلود. تبدأ هذه الرحلة بالعقل مع الطبيعة، وإعمال العقل إلى أقصى مداه، ثم يلتقى العقل بالوحى؛ ليتسلح بما هو خارج قواه، ويعود مرة أخرى إلى داخل نفسه لمعرفتها وتزكيتها، ثم يخرج إلى الطبيعة مرة ثانية حاملاً معه أمانة الوحى؛ ليعمل بما علم داخل الطبيعة وعلى الأرض، إعلاءً لكلمة الله وتمريرًا لقضائه، مرتقيًا بمعونته؛ ليرتفع إلى ما لا نهاية لـــه من الكمالات، وبذلك يكتب للإنسان الخلود. توصف هذه الرحلة فى القرآن بالقول:

﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾[2]

---

(١) الآيات (٢٣ - ٣٩) سورة الإسراء.

(٢) الآيات (١ - ٤) سورة الملك.

النظر بالعقل داخل الكون ومن خلال مظاهر الطبيعة، ثم النزول إلى داخل النفس بعد التقاء الوحى، ثم يهب حياته للعمل على إدخال قضاء الله إلى حركة الحياة، وفى ذلك يقول الله – تعالى –:

﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾[1]،

والتأييد فى ذلك للإنسان مضمون، حيث يقول جل وعلا:

﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾[2].

ونلاحظ أن العلم التجريبى يسير بنفس هذه الخطوات تقريبًا، عندما يبدأ فى الطبيعة عن طريق الحواس، ويجمع الأدلة بالملاحظة، ثم يرتفع من الجزئيات إلى الكليات؛ ليعود مرة أخرى إلى الطبيعة للتأكد من صحة الفرضيات «وفى ذلك يشبه العالم (   ) العلم التجريبى بالطائرة التى تقلع من أرض الملاحظة الصلبة؛ لتطير فى هواء التعميمات والنظريات الرقيق، ثم تهبط ثانية فى أرض الملاحظة والتدبر بالحواس»[3].

رحلة التصور الاعتقادى لأبى الأنبياء

كان سيدنا إبراهيم أبو الأنبياء، عقلية فذة، حرة ناقدة، وتتبع ما رواه عنه القرآن، يوضح بجلاء ما نقصد من ضرورة استخدام العقل إلى أقصى مداه، والارتقاء بالتصور الاعتقادى فى مدارج الفكر والإدراك، ثم الاستعانة بالوحى الإلهى فى إكمال المسيرة من التراب إلى الخلود. ولا توضح لنا الآيات الترتيب الزمنى فى هذا التصاعد، ولا يرجع ذلك فقط إلى أن هذا هو الأسلوب القرآنى فى معظم القصص، وإنما أيضا لأن العبرة ليست بترتيب الحوادث وإنما بالعظة والاعتبار والدرس المستفاد. يبدأ الفكر داخل الفطرة السليمة، والعقل الحر الناقد والانتقائى لسيدنا إبراهيم عندما يخاطب أباه:

---

(١) الآية (٤١) سورة الحج.

(٢) الآية (٤٠) سورة الحج.

(٣) التفكر من المشاهدة للشهود ، المعهد العالى للفكر الإسلامى ، سلسلة أبحاث علمية (٣)، د. مالك بدرى، ط١، ١٩٩١، صـ٩٤.

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴾(1).

الفطرة السليمة، والعقل الناقد يرفض هذا التصور الاعتقادى، وتأتى يد العون الإلهية بأن تدفع داخل الفطرة، ومن خلال الحواس مسارب للنظر فى مملكة السماء والأرض؛ ليبدأ الجدل الداخلى الحر فى التصاعد سعيًا وراء وضوح الرؤية. ويصور القرآن بشكل بليغ الانتقال فى مراتب التصور الاعتقادى داخل إبراهيم فى صور متتابعة لا يدرك مغزاها إلا من خبر طرق المعاناة الفكرية حين يقول:

﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ ۝ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ۝ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾(2)

ارتقاء فى الفهم وزيادة فى الاستنارة، ووضوح للتصور الاعتقادى، يؤدى إلى الرفض التام للتصور الاعتقادى السائد، وإعلان البراءة من الانتساب إليه، ثم توجيه الوجه والوجهة إلى آفاق أخرى طلبًا لمزيد من النور.

فى وصف ذلك يقول سيد قطب: «إنها صورة لنفس إبراهيم وقد ساورها الشك – بل الإنكار الجازم – لما يعبده أبوه وقومه من الأصنام، وقد باتت قضية العقيدة هى التى تشغل باله، وتزحم عالمه .. صورة يزيدها التعبير شخوصًا بقوله:

﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ ﴾

(1) الآيتين (74، 75) سورة الأنعام.

(2) الآيات (76-79) سورة الأنعام.

كأنما الليل يحتويه وحده، وكأنما يعزله عن الناس حوله»[1]. ويقول تعقيبا بعد رفض إبراهيم للشمس بعد الأفول: «هنا يقع التماس، وتنطلق الشرارة، ويتم الاتصال بين الفطرة الصادقة والله الحق، ويغمر النور القلب، ويقبض على الكون الظاهر، وعلى العقل الواعى، هنا يجد إبراهيم إلهه، يجده فى وعيه وإدراكه كما هو فى فطرته وضميره .. هنا يقع التطابق بين الإحساس الفطرى المكنون، والتصور العقلى الواضح»[2].

العقل الحر وحرية النقاش والجدل

الإنسان الحر الملتزم، ذو عقلية حرة باحثة عن الحقيقة، تقبل الاختلاف والجدل والنقاش، وتقيم الميزان، وتدفع بالحجة، فيقول القرآن:

﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَـٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ﴾[3].

وهنا يلجأ المجتمع التقليدى، والعقل الجمعى لسلاح التخويف، وإثارة الرعب فى قلب صاحب الفكر الحر، فقال إبراهيم:

﴿ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَـٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[4]

العقل الحر والفكر السليم والحجة السديدة هى المحك وهى السلطان (   )، إذن يكون السؤال المنطقى: أى الفريقين أحق بالأمن؟ ويعلق القرآن بعد ذلك قائلاً:

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم

---

(١) فى ظلال القرآن، جـ٢، صـ١١٣٩.

(٢) فى ظلال القرآن، جـ٢، صـ ١٤١١.

(٣) الآية (٨٠) سورة الأنعام.

(٤) الآيتين (٨٠، ٨١) سورة الأنعام.

مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾[1]

الفكر الثاقب، يرفع الإنسان درجات على مرقى التصور الاعتقادى، وصولاً للحكمة والعلم. ويقول:

﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ ﴾[2]

تكرار النقاش ومحاولات إثارة الفكر لدى الآخر

النفوس الكبار، ذات الالتزام والانتماء، والتى تقدر مسئوليتها عن نفسها، وعن قومها، وعن مجتمعها، لا تمل من المحاولة، فى الدعوة بالحسنى لإيقاظ مجتمعاتها من عوامل الركود والانحطاط، وتحاول أن تنقل إلى وعى أهلها الإحساس بأسباب التخلف من إهمال العقل، والانقياد للتقليد والتبعية، واستبدال العبودية بالحرية، فيقترب إبراهيم من أبيه وقومه مرة أخرى قائلاً:

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴾[3]،

ويحاول مرة ثالثة ورابعة

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾[4]

---

(١) الآيتين (٨٢، ٨٣) سورة الأنعام.

(٢) الآية (٢٨٢) سورة البقرة.

(٣) الآيات (٦٩ - ٧٣) سورة الشعراء.

(٤) الآيات (٥١ - ٥٦) سورة الأنبياء.

ويحتاج العقل الإنساني أحيانًا إلى صدمة، تشبه الصدمة الكهربائية التى تعطى لبعض المرضى للتأثير على النشاط العقلى والعمل على إخماد الأعراض المرضية، صدمة قد توقظ العقل من سبات الكسل والركون إلى العادة واقتفاء أثر السلف، والخضوع للعقل الجمعى، ومؤثرات القطيع، وعندئذ قرر إبراهيم:

﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ۝ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ۝ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ۝ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ۝ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ۝ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ۝ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ۝ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾[1].

خرجت كلمة: ﴿ أُفٍّ ﴾ من صدره كصرخة من الأعماق، تحاول انتشالهم من عقم التصور الاعتقادى، الذى ينخر قواعد بنيانهم الاجتماعى.

ثم توجه الرجل (سيدنا إبراهيم)، استكمالاً لرسالة الإنسان الواعى الملتزم بقضايا أهله وجماعته ومجتمعه إلى الحاكم، فى محاولة لاستمالته إلى جانب العقل الراشد، وفى ذلك يحكى القرآن:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ

---

(١) الآيات (٥٧ – ٦٧) سورة الأنبياء.

فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾(١).

أعطاه الحجة الأولى لرحلة الحياة على الأرض من حياة وموت، فانقض الحاكم عليها مفندًا بأن سلطانه يشمل ذلك، فأعطاه الثانية من الطبيعة التى حوله، والتى لا تصل إليها يداه، فسكت مبهوتًا.

خلق الآلهة وتزييف الوعى واعوجاج التصور الاعتقادى

وقد حاول إبراهيم مرارًا أن ينبه قومه، على أن خطورة الأمر لا تقتصر فقط على ضحالة وقصور التصور الاعتقادى، بل يمتد الأمر إلى خطورة تزييف الوعى، واعوجاج الفطرة السليمة فقال:

﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ ﴾(٢)

الإفك هو الكذب، و«خلق الإفك» هو إلباس الكذب صورة الحقيقة، وهو من أعمال الإعلام السائدة حتى الآن فى تزييف وعى الجموع.

وقد فطن إبراهيم بعقليته الفذة، وفكره الثاقب، إلى أن الأمر فى الحفاظ على هذا التصور الاعتقادى، وتغذية قواعده لدى جماعته، وتزييف الوعى عن طريق إكساب هذا الإفك صورة الحقائق المقدسة لدى العامة، ليس هو الاعتقاد أو الإيمان الحقيقى بهذا الأسلوب فى العبادة، فقد يكون الإنسان مؤمنًا بقضية ما وإن كانت خاطئه، ولكن السر وراء تغذية هذا التصور هو مصلحة لبعض الجماعات دعمًا لنفوذ وجاه، وتحريكا لمنافع ومصالح، وفى ذلك يقول القرآن:

﴿ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ

---

(١) الآية (٢٥٨) سورة البقرة.

(٢) الآيتين (١٦، ١٧) سورة العنكبوت.

يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴾[1].

البنية التحتية لهذا التصور الاعتقادى ليس إيمانًا ما، وإنما مصالح نفعية، وعلاقات اقتصادية، وطبقية عنصرية، ولذلك وصفها بأنها «مودة» والقرآن لا يطلق كلمة «مودة» إلا على أخص وأكثر العلاقات الإنسانية حميمية وهو الزواج[2]، وعلاقات القرابة[3]. المودة القائمة على أساس قيمى وعاطفى وتاريخ وإرث مشترك ورحم تبقى حتى بعد الممات، أما التى على أساس من مصالح اقتصادية، ومنافع دنيوية وطبقية بغيضة واستغلال بشع للعامة، وامتصاص للكادحين فإن مصيرها يوم القيامة كما أوضحها إبراهيم فى إخباره لهم بالتكفير والتلاعن يوم القيامة. والغريب أن صناعة الأوثان والآلهة لاتزال قائمة حتى يومنا هذا، فالشركات المتعددة الجنسيات، والاقتصاديات العالمية، لا تزال تعتمد فى تحريك الأنشطة الاستهلاكية اللازمة لضخ الحياة فى شرايين اقتصاديات الإنتاج الفلكى على تحريك وتحفيز الطلب على المنتجات الاستهلاكية بالتأثير على قرارات المستهلكين بالدعاية والإعلان والإعلام، وخلق النجوم فى الفن والرياضة والموسيقى والسينما والتليفزيون، وفى معظم الأنشطة الإنسانية، تخلق من أبطال هذه المجالات أوثانًا يعبدها الناس فى كل أنحاء العالم، ثم يقلدونهم فى الملبس والمأكل والمشرب والعطور وتسريحة الشعر، ومن الغريب أنهم يطلقون عليهم لفظ الآلهة، فمثلاً چيمى هندريكس وإريك كلابتون هما آلهة العزف على آلـة الجيتار (   )، بل إن الإعلان عن ظهور نجم جديد أو إله جديد يأتى بالقول: «إن الآلة قد صنع إصدارًا جديدًا» «   ». الأمر هنا جد خطير؛ لأن اللعبة تكمن فى سلب حرية الإنسان، والتغول عليه، عن طريق تزييف الوعى بخلق الإفك، والاستيلاء على ملكات الإنسان ومقدراته، وتحريكه

---

(١) الآية (٢٥) سورة العنكبوت.

(٢) ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ الآية (٢١) سورة الروم.

(٣) ﴿ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ الآية (٢٣) سورة الشورى.

كالحيوان داخل دائرة التصاعد الاستهلاكى التى تشبه أن يشرب الظمآن من بحر مالح، كلما عب من مائه ازداد عطشًا، وتبدأ مداخل ومنابع الحرية التى هى الأصل فى خلقه، وهى البناء الداخلى لفطرته فى الجفاف، فيسقط عن مكانته، ويتدنى ما دون الحيوان والجماد، ويسلب الوعى منه، وهو يحسب ويظن ويعتقد أنه يمارس تمام حريته.

التوقف عن الجدل والمناقشة إذا تحول الأمر إلى الغوغائية

الإنسان الذى تحررت ذاته من سجن الهوى، وانعتقت من قيد التبعية والتقليد الأعمى، وارتفعت فوق الاستكانة لحتمية أو نهاية للتاريخ، ولم تركن للراحة والكسل العقلى بدعوى إلف العادة والتقاليد، وبعد أن يمضى فى طريق العقل إلى منتهاه، ثم يلتحق بالوحى المنزل من الإله الواحد الأحد، يقفل عائدًا إلى مجتمعه المرة بعد المرة محاولاً أن يشعل فى قلب مجتمعه فتيل العشق للحق والحقيقة، وأن يأتيهم بقبس من النار المقدسة التى تحرق عوامل الركود والتخلف والانحطاط، وهو فى سعيه هذا – كدأب الأحرار – قد يجد نفسه فى كثير من الأحيان واقفًا وحيدًا، لا يستطيع الانضمام إلى اللافتات الكثيرة المرفوعة داخل مجتمعه، وتلك وحدة باردة قاتلة، وعزلة مميتة، عزلة مزدوجة، عزلة المفكر المتفرد الغير مستعد للتنازل عن أساس وجوده، وقاعدة بنائه الفكرى، عزلة ووحدة رغم وجوده وسط الملايين من الناس، وحدة وعزلة قد تعصفان بكيانه، وتلقيان به إلى المرض والهلاك، إن لم يكن لــه رصيد من قواه الذاتية يكفيه للمقاومة، وإذا ازدادت المعارضة وتصاعدت إلى حد الإيذاء البدنى أو محاولات إزهاق الحياة، فليس عليه سوى أن يبتعد عائدًا مرة أخرى إلى ربه، طالبًا منه الحماية والهداية، وحتى يقضى الله أمرًا كان مفعولاً، يقول القرآن:

﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا

تَنحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُواْ ٱبْنُواْ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴾(١).

بالله عليكم انظروا إلى التعبير عن الوحدة والعزلة للمفكر وسط محيط الجهل ﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴾.

يقول الرسول ﷺ: «**لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، حتى إذا رأيتم: هوىً متبعًا، وشحًا مطاعًا، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذى رأى برأيه، فعليكم بخويصة أنفسكم، لا يضركم من ضل إذا اهتديتم**».

وعن سعيد بن المسيب: أن عمر وأبى بن كعب، وأبا هريرة - رضى الله عنهم- دخلوا على رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله من أعلم الناس؟ فقال صلى الله عليه وسلم: العاقل. قالوا: فمن أعبد الناس؟ قال الرسول: العاقل، قالوا: فمن أفضل الناس؟ فقال: العاقل، قالوا: أليس العاقل من تمت مروءته، وظهرت فصاحته، وجادت كفه، وعظمت منزلته، فقال صلى الله عليه وسلم: وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا، والآخرة عند ربك للمتقين، إن العاقل هو المتقى وإن كان فى الدنيا خسيسًا ذليلاً»(٢).

الحرية هى أساس الاعتقاد، والحرية هى التى ترقى بالتصور الاعتقادى، والتصور الاعتقادى هو الذى يحدد مسيرة الإنسان فى رحلته إلى الخلود، لذلك لا صلاة إلا بالفاتحة، والفاتحة يتوسطها الدعاء بالهداية إلى «الصراط المستقيم» الذى يهتدى إليه الإنسان ويقترب منه كلما ازداد تصوره الاعتقادى وضوحًا، وإلا فقد تختلف به السبل، ويتخبط فى متاهات الحيرة والظلمة:

﴿ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾(٣).

---

(١) الآيات (٨٣ - ١٠١) سورة الصافات.

(٢) إحياء علوم الدين، جـ١، بيان شرف العقل، صـ٩٣، بدون ناشر ولا تاريخ.

(٣) الآية (٢٢) سورة الملك.

الفصل الثالث

بناء الذات الحرة

التزكيـــة

الحرية مثلها مثل كل قيمة أو نشاط إنسانى، تحتاج إلى الخروج إلى الواقع الحى المُعاش – الممارسة – وذلك لتنمو وتتجذر وتكتسب المناعة اللازمة لاستمرار الحياة عند التعرض لكل المؤثرات التى يتعرض لها كل من يدب بقدمه تحت الشمس الحارقة أو المطر الغزير أو الرياح العاتية أو الأعاصير، وفى الحر وفى الزمهرير، وفى الأمكنة المرتفع منها والمنخفض، وفى التلوث والبيئة الصالحة، وفى الكدورة والصفاء، كما تتعرض للرفض والقبول، والصد والترحاب، وللخطأ فى التطبيق وفى الصواب، وتغيير الوجهة وتعديل المسار، وهكذا فى جدلية المدافعة اللازمة لتقدم وتطور الحياة، وتطور كل الفضائل والرذائل المصاحبة لها ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾[1].

والحرية بالمعنى الذى يتطلبه الدين وهو كما أسلفنا، حرية الاعتقاد وعدم الإكراه فى الدين، وحرية الاختلاف وقبول التناقض الذى لا مجال لتجاوزه، وحرية المناقشة والجدل والسؤال والرأى، وحرية الاجتهاد وإبداء الرأى والشورى ... أو بشكل عام هو قبول الآخر المختلف، وذلك لأنه مختلف.

هل يمكن لإنسان لا يملك حريته، أو لا يعرف عن الحرية شيئًا، أن يسمح بحرية الآخر؟ بمعنى هل يمكن لفاقد الشىء أن يعطى هذا الشىء أو أن يتمتع هو به؟ وإذا كان الرق أو العبودية قد اختفيا بمعناهما الفج منذ اختفاء الرقيق (الذى لايزال موجودًا بأشكال أخرى فى أماكن متفرقة من عالمنا فى القرن الواحد والعشرين)، فإن معنى أن إنسانًا لا يملك حريته، هو أنه تنازل عنها أو باعها لجهة

(١) الآية (٢٥١) سورة البقرة.

ما، وأصبح عبدا لتلك الجهة. فمثلاً إذا لم يملك **الإنسان نفسه، أصبح عبدا لشهواتها ورغباتها ونزواتها وهواها؛ لذلك يقول القرآن:**

﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾[1]،

وقد يصبح الإنسان عبدًا للمال، أو عبدًا للجاه، وقد تتضخم ذاته حتى تحجب عنه الآخر بالكلية، فإذا نظر لا يرى، وإذا أصاغ أذنه لا يسمع، **والإنسان عندما يضع طرف إصبعه بالقرب من عينه فإنه يحجب عنها قرص الشمس.**

وقصة فرعون موسى خير شاهد على أن من صار عبدًا لذاته المتضخمة، تسلبه ذاته حريته، فلا يملك إلا أن يسلب حريات الآخرين. المصريون المحبون للسلام، والعاشقون للحرية والحياة، والذين يعيشون على ضفة النيل، كان عليهم أن يختاروا سلطة أعلى للتحكم فى مياه النيل، وتقسيمها بينهم بالعدل، فالقريب من الماء يجب أن يسمح بمروره للبعيد عنه، وصاحب الأرض المنخفضة يسمح للأرض العالية بنصيبها من الماء، وعندما يرتفع الفيضان يجب تنظيم العمل وتقسيمه؛ لدفع غوائل الماء العالى عن اجتياح القرى، وفى أيام انخفاض الماء يلزم التخطيط لتقوية الجسور وأجناب النهر، كل ذلك أدى بالمصريين إلى اختراع الحكومة قبل التاريخ لتنظيم النهر وضبطه؛ لأن البديل هو النزاع والاقتتال والحرب الأهلية فالماء هو الحياة، لذلك قال قائل: «إن النيل خيّر المصريين بين الدم والحكومة، فاختار المصريون الحكومة»، وأصبح الحاكم هو الذى يتحكم فى المياه أى يتحكم فى الحياة، وكان فرعون موسى يفطن لمدى قوة مصدر الشرعية لحكمه لمصر حين قال:

﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَـٰذِهِ ٱلْأَنْهَـٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾[2]

ضبط النهر وتوزيع المياه والتحكم فى مصدر الحياة، هو مصدر شرعية حكمه، ومع تضخم ذاته لم يأبه لشعبه، وقال عنه القرآن:

---

(١) الآية (٢٣) سورة الجاثية.

(٢) الآية (٥١) سورة الزخرف.

﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ﴾[1]،

ثم تضخمت ذاته مع طاعة قومه لـــه حتى سحقته إلى أن نادى:

﴿ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ۝ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾[2]

لقد بلغ من عبادته لهواه، وعبادته لذاته، أن فرضهما ربًا أعلى للناس، هنا هل يمكن أن تستمع مثل هذه الشخصية للآخر، بله أن تناقشه أو تجادله، أو تنزل على رأيه إذا أصاب، أو هل يمكن لها أن ترى الآخر وهى فى عليائها، وعندها لابد أن يكون قوله عند الحديث إلى الآخرين:

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾[3]

الإيماءة إلهام، والكلمة فصل، والرأى هدى ورشاد فلا مكان لتلاقح أفكار، ولا مكان لمناقشة، ولا وجود للآخر، وعلى الحرية السلام.

والآخر الذى نجحت تجارته، ونمت أمواله، وتوسعت استثماراته، فازداد إعجابه بنفسه، وتملكه العجب، وبخل بماله على قومه، وتعالى بذكائه وثروته عليهم، وأصبح عبدًا لثروته، وعبدًا لعجبه وتعاليه، يقول القرآن:

﴿ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ۝ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾[4]،

الثروة وعبادة المال، قادتاه إلى العجب، وإلى الفرح بنفسه، والإفساد فى الأرض، والاعتداء على حرية الآخرين بالبغى، وكانت السنة (الحتمية التاريخية):

---

(١) الآية (٥٤) سورة الزخرف.

(٢) الآيتين (٢٣، ٢٤) سورة النازعات.

(٣) الآية (٢٩) سورة غافر.

(٤) الآيات (٧٦ – ٧٨) سورة القصص.

﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴾[1].

والعابد الذى لا توصله عبادته إلى الارتقاء والتسامى عن هوى النفس، بل يظل عبدًا لشهواته رغم غزارة علمه، فقد أوجز الله قصته فى قوله:

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ۝ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[2]،

ويقال إن هذه الآية نزلت فى أحد عباد بنى إسرائيل، قد غضب أن الرسالة ذهبت إلى سيدنا موسى وأخطأته، فحسده وحقد عليه، ودعا عليه بسوء، إن اتباعه للهوى جعله يزكى نفسه على الله، ويرى أنه أفضل من الآخرين.

لكى يحوز الإنسان الحرية، ويتمتع بها، ويسمح بها للآخر، لابد أن يصبح هو حرًا، أى يحرر نفسه من تأثير أى سلطان عليه، من سلطان النفس، وسلطان الهوى، وسلطان الشيطان، أى لابد أن يعتق رقبته من الرق والعبودية لأى إله سوى الله :

﴿ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ۝ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴾[3].

الطريق الوحيد للنجاة، والمسلك الوحيد للفلاح، هو تحرير الإنسان من كل سلطان، إلا سلطان الله، وأنا أعنى الإنسان المؤمن، الذى وقع عقد حمل الأمانة، ويسمى هذا المسلك، أو هذا الأسلوب، باسم التزكية، حيث يقول القرآن:

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾[4].

التزكية هى عملية ومنهج وأسلوب بناء الذات الحرة الواعية المختارة، التى

---

(١) الآية (٨١) سورة القصص.
(٢) الآيتين (١٧٥، ١٧٦) سورة الأعراف.
(٣) الآيات (١١-١٣) سورة البلد.
(٤) الآيات (٧ - ١٠) سورة الشمس.

تحكمت فى نفسها، فيسهل عليها أن تحكم العالم، وتقبل الآخر، وتبنى دون أن تهدم، وتدفع بالتى هى أحسن، وتنشد الحكمة، وتخالف الهوى والشطط، وتقاوم الظلم، وهى فى النهاية التى تحب لأخيها ما تحبه لنفسها.

لذلك فليس بالمستغرب أن يبدأ الإسلام بكلمة «لا». الإسلام يبدأ بشهادة «لا إله إلا الله – محمد رسول الله»، ونلاحظ أنه يطلب شهادة «لا إله إلا الله»، ولا يطلب قول «لا إله إلا الله»، فالشهادة من الشهود، هى إقرار ما هو مؤكد داخل الوجدان عن رؤية وبصيرة. كما أنه بدأ «بلا» وهى عملية نفى لكل الآلهة التى فى حياة الإنسان، ثم إثباتها لله وحده «إلا الله». فالسبق بنفى الآلهة يعنى أن الإسلام يضع برنامجًا عمليًا واقعيًا عينيًا لهدم كل الآلهة التى تعبد من دون الله، داخل كيان الإنسان وحولـــه من حب للذات، والمنفعة الشخصية، والرياء والمداهنة والنفاق والغش والتملق ...، حتى يتسنى لك الادعاء بإثبات الألوهية لله وحده. كان يمكن أن يقول شهادة «الله لا إله إلا هو»، لكن المنهج هو منهج مجاهدة عملية، لهدم ونسف وطرد كل الآلهة، حتى يخلو القلب من الشركاء، وتصفو صفحته من الأغيار، وتجلو مرآته من أكدار السوى (ما سوى الله) فيحل الواحد الأحد فى عرشه داخل قلب الإنسان «ما وسعتنى أرضى ولا سمائى، ولكن وسعنى قلب عبدى المؤمن»[1].

التزكية عملية تنشئة ومجاهدة عملية، لابد أن تتم داخل الطبيعة، وبين الناس، فالأرض والسماء هى لله، والأرض كلها جعلت للإنسان مسجدًا، فلا تزكية بين أربعة جدران، أو داخل أسوار مغلقة أبوابها، وبمعزل عن الناس، ولكنها فى الهواء الطلق، وفى الفضاء المكشوف مع الشمس والقمر والليل والنهار، وبين الناس، لذلك يقول، وانصت معى لكل مظاهر الطبيعة المذكورة فى السورة – القرآن:

﴿ وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ۝ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾[2].

---

(١) [موضوع] تذكرة الموضوعات (٣٠) تصوير بيروت.

(٢) الآيات (١-١٠) سورة الشمس.

التزكية داخل الواقع، بدون أسوار ولا أسرار، مع الناس وبين الناس بدون اعتزال أو كهنوت، التزكية فى النهاية هى حياة بالمعنى الحرفى والمجازى. حياة كاملة مستمرة لا يعتريها موت، للارتقاء من التراب والطين، والحمأ المسنون «كريه الرائحة» إلى الإنسان الربانى خليفة الله فى أرضه، الذى وصفه القرآن على لسان المسيح

﴿ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾[1].

التزكية هى عملية بناء الذات الحرة للإنسان، وتقوم فى زعمى على ثلاثة أعمدة:

١ – العبادة.

٢ – العمل.

٣ – الحركة.

وللمفكر العظيم على شريعتى[2] بحث عن «بناء الذات الثورية» كما أسماه، يسمى ثلاث وسائل لبناء النفس هى:

١– العبادة.

٢– العمل.

٣– النضال الاجتماعى.

لكنى أرى أن النضال الاجتماعى هو جزء تابع للعمل غير منفصل عنه.

١ – العبادة

هى العمود الأول الذى يلى شهادة أن «لا إله إلا الله» وأول خطوة على مسار التزكية، حيث قال الرسول: «**بنى الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت، وصوم رمضان**»[3] لقد جاءت العبادات مباشرة بعد إعلان الشهادة.

---

(١) الآية (٧٩) سورة آل عمران.

(٢) يمكن الرجوع لهذا البحث القيم فى كتاب الثورة الإيرانية الجذور الايديولوجية، د. إبراهيم الدسوقى شتا، الزهراء للإعلام العربى.

(٣) [صحيح] البخارى فى: الإيمان [٨]، ومسلم فى: الإيمان [١٦].

العبادات

أ - العبادات البدنية والمالية:

هي أول ما أتي بعد إعلان بداية رحلة نفي جميع الآلهة "لا إله" تمهيدًا لإثباتها لخالق السماوات والأرض « إلا الله » وهذه العبادات هي الصلاة والزكاة والصوم والحج لمن استطاع إليه سبيلاً. العبادة ضرورة لكل دين، والقرآن يقول:

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[1]

والعبادة من الإنسان لا تضيف شيئًا إلى الحق - تبارك وتعالى - فهو القائل:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾[2]

ويقول:

﴿ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾[3]،

ويقول:

﴿ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[4]

لكن العبادة هي الضرورة للتزكية، وهي أولي وسائل مجاهدة النفس، وقد قال الرسول عن الصلاة: «الصلاة عماد الدين، ومن أقامها فقد أقام الدين، ومن أضاعها فقد هدم الدين»[5]، وقد حدث في أوائل الدعوة، وفيما رواه الإمام أحمد عن عثمان ابن أبي العاص[6]، أن وفد ثقيف قدموا على رسول الله ﷺ فأنزلهم المسجد ليكون أرق لقلوبهم، فاشترطوا ألا يحشروا ولا يعشروا ولا يحبوا - أي لا يخرجوا للجهاد ولا تؤخذ منهم الزكاة ولا يحبون للصلاة - ولا يستعمل عليهم غيرهم. فقال صلى الله عليه وسلم: «**لكم ألا تحشروا ولا تعشروا ولا يستعمل عليكم غيركم. ولا خير**

---

(١) الآية (٥٦) سورة الذاريات.
(٢) الآية (١٥) سورة فاطر.
(٣) الآية (٨) سورة إبراهيم.
(٤) الآية (٦) سورة العنكبوت.
(٥) [ضعيف] الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة، (١٠٤)، سيوطي، ط الحلبي.
(٦) عثمان بن أبي العاص الثقفي، استعمله النبي ﷺ على الطائف، ثم أقره أبو بكر وعمر. مات سنة (٥١). تهذيب الكمال. ج٥ صـ١١٨

في دين لا ركوع فيه»[١]. ويروى أبو داود عن جابر أنه سمع رسول الله يقول بعد ذلك (**سيصدقون ويجاهدون**)[٢]. الصلاة سوف تأخذ بهم إلى التصديق، ثم تحبب إليهم الجهاد ودفع الزكاة وبقية العبادات. العبادات وسائل لغايات. لذلك تقول كارين أرمسترونج: «لن يكون للمنطق الروحي والمذاهب العقائدية معني دون العبادات والصلوات والطقوس .... فالعقيدة الدينية، مهما تكن، لا تكتسب معناها إلا في سياق الشعائر، فإذا حرمت الناس من ذلك اللون الخاص من ألوان النشاط فسوف يفقدون إيمانهم»[٣].

العبادات إعلان عن الهوية، وبداية الولوج إلى معارج المجاهدة، فأعمال الجوارح في الصلاة من ركوع وسجود هي إعلان على التسليم لله رب العالمين، وهي في الوقت نفسه تدريب للإنسان على التحول من أداء الصلاة إلى إقامة الصلاة، فالإقامة هي المداومة، وتدريب للإنسان على الخضوع والتواضع لله، مما يدفع إلى التواضع لخلقه.

إدامة العبادات مع أيام العمر، تشبه الطرق المتكرر على باب غرفة لإيقاظ شخص نائم، وقد يستيقظ هذا الشخص بعد الطرقة الرابعة، ولا يعني ذلك أن الطرقة الرابعة، والتي سمعها هذا الشخص النائم، هي التي أيقظته، لأنه لا يمكن إنكار الدور الذى لعبته الطرقات الثلاث السابقة على التي سببت فعل الإيقاظ، الثلاث طرقات لها فعل تراكمي يسمي أو «ما تحت العتبة» وتعريف العتبة هو «الحد الجسماني أو العقلي، والذي دونه لا ينفعل الشخص تجاه مؤثر ما (صوت – شعور – تأثير)» .

الطرقات الثلاث أوصلت الشخص إلى قرب «عتبة الشعور»، بالطرقة الرابعة يحدث الاستيقاظ، كذلك فإدامة العبادات، والمحافظة على مواقيتها، والاجتهاد في الخشوع في حركاتها وسكناتها، وتحرى الإخلاص والخلوص في ممارستها، هو

---

(١) أبو داود في: الخراج [٣٠٢٦].

(٢) التفكير فريضة إسلامية العقاد ص ١٠٤

(٣) معارك في سبيل الآلهة. ترجمة د. فاطمة نصير ، د. محمد عناني كتاب سطور ط ١ عام ٢٠٠٠ ص ٣٦.

كالطرقات على قلب الإنسان حتى يستيقظ، ويحدث الخشوع الفعلي، والسجود الحقيقي، وتنقلب العبادة من أعمال جوارح، إلى مذاقات قلبية، ويقول الصوفية: «إذا سجد القلب ساعة ما قام إلى يوم الساعة». وقديما قالوا: «الصلاة في الصغر عادة، وفي الكبر عبادة». **تبدأ العبادات من أعمال الجوارح ومن الخارج، إلى أن تصل وتتصل بالداخل، ثم يبدأ إشراق الداخل ومذاقاته في الانعكاس على الجوارح**، كذلك فقد قال بعض الصحابة للرسول ﷺ : إن فلانا يصلى بالنهار ويسرق بالليل، فقال: «إن صلاته لتردعه»، وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: «من لم تأمره صلاته بالمعروف، وتنهه عن المنكر، لم يزدد بصلاته من الله إلا بعدا»[1] .

العبادات لغايات فالصلاة كما أسلفنا تنهي عن الفحشاء والمنكر

﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾[2]

أي أن الصلاة تبدأ بردع الإنسان عن الخطأ ثم بالمداومة تؤدي إلى تركيز وجود الله في ذاكرة الإنسان، وذلك أكبر في الأثر من مجرد الردع عن المعصية، كما أن الزكاة وهي عبادة مالية، تطهر الإنسان من عبادة المال والأثرة والبخل والشح

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾[3]

والزكاة كاسمها تزكية من دواعي الأنانية، والوقوع في فخ الذاتية المغلقة، والتحول للعمل من أجل ما هو خارج النطاق الفردي، وإعطاء المال الذي بذل الإنسان الجهد الشاق في تحصيله، وتحول هذا المال إلى جزء من تكوين الذات الفردية، فباقتطاع جزء من هذا المال وتوجيهه للغير، هو في الحقيقة اقتطاع من جزء من ذات الإنسان، وهي عملية من أكبر وأشق أعمال المجاهدة للنفس، وهي اختبار حقيقي لتغلب الإنسان على حب الذات وشهوة التملك، وهى من العقبات الكأداء التي تعوق الكثير في طريق التزكية، ويقول القرآن:

---

(١) [ضعيف] الطبراني في «المعجم الكبير» ج١١ صـ٥٤، وكشاف الزمخشري ص ٣٩٨.

(٢) الآية (٤٥) سورة العنكبوت.

(٣) الآية (١٠٣) من سورة التوبة.

﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ۝ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ۝ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾[1]

اقتحام العقبة هنا ينطوي على تصرفات مالية، وأعمال إنفاق، ويقول موضحاً مرة أخري:

﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[2]

والصوم يحارب شهوة البطن والفرج، ويحارب الفم المفتوح دومًا للاستهلاك، فم ظامئ لا يغلق تصب فيه ما لا نهاية لـه من المنتجات حتى تقتله التخمة معنويًا وحرفيًا، فمعظم أمراض العصر من سعار الاستهلاك. ثم كيف لمتخم أن يحس بشعور الجائع، وانظروا إلى إنسان العالم الأول والذي أسماه أحد المفكرين إنسان البعد الواحد وإنسان ما يسمي بالعالم الثالث.

الحج أيضًا خروج من الجاه والمال، والأهل والولد، تلبية لنداء الحق، واجتماعًا مع إخوة الخلق، بلا تميز ولا رتبة، ولامنصب ولاجاه، ولا ثياب ولا اختلاف، لا يجمع الناس إلا الوحدة والمساواة والتضرع والدعاء والتعارف والتعرف على عرفات. وتصف كارين أرمسترونج كيف أعاد المفكر الفذ على شريعتي تأويل شعيرة الحج فتقول: «إن شعائر الحج متاحة لكل مسلم رجلاً كان أم امرأة. ويمثل قرار الذهاب إلى الحج- وهو تجربه واحدة في عمر الإنسان بالنسبة لمعظم المسلمين- توجهًا جديدًا. فعلى الحجاج أن يتركوا خلفهم ذواتهم المشوشة المغتربة. ويبين شريعتي أنه في أثناء مرات الطواف السبع حول الكعبة، يتسبب الدفع في أن يشعر الحاج بأنه (مثل قناة صغيرة تندمج في نهر كبير. فيعتصرك ضغط الحشود بقوة لدرجة أنك تمنح حياة جديدة. إنك الآن جزء من الناس، إنك الآن إنسان حي وخالد، فبطوافك حول الكعبة سرعان ما تنسى نفسك). وخلال هذا التوحد مع الأمة يتسامى الفرد على الذاتية، ويصل إلى مركز جديد. ثم يعرّض الحجاج أنفسهم لنور المعرفة الإلهية أثناء أداء شعائر عرفات، وحينذاك يصبح عليهم أن يستعدوا لدخولهم إلى العالم من جديد، وللجهاد ضد أعداء الله الذي يمثله رمي الجمرات

---

(١) الآيات (١١- ١٦) سورة البلد.

(٢) الآية (٩٢) من سورة آل عمران.

بمني. ويصبح الحاج مستعدًا للرجوع بوعي روحاني لا غني له عنه في المعركة الاجتماعية من أجل خلق مجتمع عادل، الأمر الذي يعتبر فريضة على كل مسلم. ويعتمد العناء الذي يتضمنه هذا الجهاد على الروحانية التي تستدعيها هذه الشعيرة، وعلى التجربة الروحانية، ويستمد معناه منها»[١] وتقول نفس الكاتبة عن الكعبة: «ويتفق هيكل الكعبة مع الشكل الهندسي الذي اكتشف عالم النفس ك. ج. يونج (١٨٧٥-١٩٦١) أن لـه دلالة الأنماط الفطرية. إذ كان يقام في قلب معظم المدن القديمة مزار يقيم علاقة مع القداسة التي كان الناس يرون أن لها أهمية بالغة لبقاء تلك المدن، فهو يأتي بالحقيقة الإلهية الأولي والبالغة القوة، إلى داخل مجتمعات البشر الفانين في المدن الهشة وغير المطمئنة، وكان شكل مثل هذه المزارات إما مستديرًا أو مربعًا، على نحو ما ذكره المؤلفون القدامى مثل بلوتار غدس وأوقيد وديونيسيوس الهاليكارناس، وكان يظن أنه يمثل الشكل الأساسى لهيكل الكون، وصورة النظام الذي أخرج العالم من هيولى العماء، وهو يجعل لهذا الشكل وجودًا حيًّا يمنحه صفة الحقيقة الواقعية. ولم يكن يونج يرى من الضروري وقوع اختيار بين المربع والدائرة؛ إذ كان يعتقد أن الشكل الهندسي الذي يمثل ذلك النظام الكوني أي أساس الحقيقة كلها هو مربع داخل الدائرة. وكانت الشعائر عند ذلك المزار تذكر العابدين بواجب إدخال ذلك النظام الإلهي إلى عالمهم الذي قد تسوده الفوضي وتحل به الكوارث، وأن يسلموا أنفسهم إلى القوانين والمبادئ الأساسية للكون حتى تظل حضارتهم قائمة، وحتى يحولوا دون وقوعها فريسة للوهم. والكعبة في مكة تمثل ذلك النمط الفطري تمام التمثيل، فالحجاج يهرولون في طوافهم سبع مرات في دوائر شعائرية حول ذلك المكعب المبني من الجرانيت، والذي تمثل أركانه الأربعة أركان العالم، مثلما تدور الأرض حول الشمس. ولابد للفرد من أن يسلم كيانه أو وجوده كله للإيقاعات الأساسية للحياة، فالمسلم (أعني الذي يسلم نفسه لله) لا يستطيع بدون هذا الإسلام أن يعيش باعتباره إنسانا صحيحًا وأصيلاً في المجتمع»[٢].

العبادات وسائل لمحاربة أمراض النفس والهوى، تحارب خوف الفقر، وهم

---

(١) معارك في سبيل الآلة كارين ارمسترنج، مرجع سابق ٣٨٨ بتصرف

(٢) معارك في سبيل الآلة، كارين ارمسترنج، مرجع سابق، ص ٧٥.

الرزق، والجشع والشح والحسد والحقد والغيبة، وحب الجاه، والتكبر والاستعلاء، وحب المال وجمعه، والتكالب على الملذات وحريق الاستهلاك المسعور، ومنافسة قطع الرقاب، والعبور على جثث الآخرين، فالآخر هو العدو وهو العقبة التي تقف في الطريق للحصول على اللذة والمنفعة الذاتية، ولذلك يقول الرسول عن الصلاة: «مثل الصلوات الخمس، كمثل نهر عذب غمر بباب أحدكم، يقتحم فيه كل يوم خمس مرات، فما ترون ذلك يبقي من درنه»؟ قالوا: لا شيء، قال صلى الله عليه وسلم: «فإن الصلوات الخمس تذهب الذنوب كما يذهب الماء الدرن[١]»[٢]. الإنسان أثناء المدافعة بينه وبين الناس وقد استفزت حواسه واستنفرت قواه، واحمر وجهه، وهو يضرب يمينًا ويسارًا بلا هوادة، ويحاول في الوقت نفسه أن يتجنب الضربات، وطعنات الغدر والمكر، والنفاق والمداهنة والكذب والتدليس والغش، باختصار جحيم حقيقي مستعر من النيران، وهنا يأتي إليك الأذان الذي يدعوك خمس مرات، لإخراجك من لهيب التنافس المحموم لعدة دقائق في كل مرة، يذكرك بأن لحياتك كلها نهاية، وأن الأمر أعجل من ذلك، والغاية أكبر من ذلك، وكل ذلك وسيلة لغاية عليا، ويؤكد عليك، أن مآلك سوف يأتيك بالسعي الحسن، والحس الأخلاقي:

﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾[٣]

فيعود إليك رشدك، وتسترجع حكمتك، وتجدد طاقتك، وتتبدل خلاياك، وتنخفض حرارة حمي سعارك، وتسترد عافيتك، وتستجمع سكينتك، وتلم شعثك، وتصلح غايتك، وترتد إليك ألفتك، وترجع إلى الصواب، ولذلك كان أبو بكر ﷺ يقول إذ حضرت الصلاة: «قوموا إلى ناركم التي أوقدتموها فأطفئوها»[٤].

وتقول د.نعمات فؤاد: «العبادات في الإسلام، وإن كانت في ظاهرها علاقة العبد بربه، إلا أن الإسلام قصد بها فيما شرعت له (تربية الضمير الاجتماعي)

---

(١) [صحيح] البخارى فى: مواقيت الصلاة [٥٢٨]. مسلم فى: المساجد [٦٦٨].
(٢) إحياء علوم الدين ١٥٧.
(٣) الآية (٣٤) من سورة فصلت.
(٤) أحياء علوم الدين ح ١ ١٥٨.

الذي يحكم الميول والنزعات، قبل أن يحكمها القانون الوضعي الذي قد يوجد في النفس ما يبرر مخالفته. فإذا لم تحقق العبادات هذا الهدف البعيد، غدت قشورًا بلا جوهر وزيفًا خادعًا»[1].

إدامة الطرق على القلب، أي المحافظة على الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان وحج البيت عند الاستطاعة، تعمل كالدواء الناجع لشفاء القلب من تحكم هوى النفس، ومن أمراض النفوس، كالحرص والطمع والجشع والحسد والبغي، ومن الفحشاء والمنكر والغيبة والنميمة، ومن العدوان والاستقواء والتكبر ...... وبالتكرار والإصرار تبدأ غايات العبادة في الظهور

﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾

فيحدث للقلب الانتباه ويصبح مستحضرًا لذكر الله، وأصبح الله حاضرًا في ذاكرة الإنسان فلا يغيب عنه في ممارساته اليومية، ومراحل حياته المختلفة، وهنا لا يرى الإنسان شيئًا إلا ويرى الله فيه، وبعد أن كان الإنسان يستدل على الله بمخلوقاته، يتحول إلى رؤية الله في مخلوقاته، بل يصبح الله دليلاً للإنسان على مخلوقاته، وأينما يولي الإنسان وجهه لا يرى سوى الله:

﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾[2]

ويموت الإنسان عن شهواته وعن رغباته الحسية، ليس بمعنى الرهبنة والتبتل والانقطاع، ولكن يوظف كل ذلك في خدمة الله:

﴿ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾[3]

يعتق الإنسان من كل القيود، ويصبح حرًا لا يعبد إلا الله وحده:

﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾[4].

---

(١) من عبقرية الإسلام د. نعمات فؤاد مرجع سابق ٤٨.
(٢) الآية (١١٥) سورة البقرة.
(٣) الآية (٨٨) سورة القصص.
(٤) الآية (٦٣) سورة الفرقان.

ب: التفكير – العبادة العقلية في الآفاق وفي النفس

تعين العبادات البدنية والمالية على مجاهدة النفس وتزكيتها، وحضها على التخلي عن كل خلق مذموم، والتحلي بجميل الأخلاق، وتوصل الإنسان إلى حال الذكر الذي هو غاية العبادة. والذكر يؤدي بدوره إلى الفكر، كما يؤدى الفكر إلى الذكر يقول القرآن:

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۝ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾(١)

أولو الألباب أو أصحاب العقول الراشدة يذكرون الله في ممارساتهم اليومية، ثم يتبع ذلك إعمال الفكر توخيًا للوصول إلى اليقين. وقد تحدثنا عن حرية الحواس، وحرية الفكر فى فقرة سابقة، ولكن نركز هنا على أن القرآن يلفت الفكر إلى ضرورة مجاهدة النفس، والتحكم فى هواها، حين يصرح بأن خشية الله بمفردها ليست كافية للوصول إلى الجنة، ما لم يصاحبها مجاهدة النفس:

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾(٢)

لذلك يوضح القرآن للفكر في آيات متعددة أشكال ومظاهر وعواقب عيوب النفس وأمراضها؛ ليحضه على دخول ميدان الرياضة النفسية لتحييد هذه العيوب، والتخلص منها، فيقول:

﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ۝ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي

---

(١) الآيات (١٩٠ – ١٩١) سورة آل عمران.

(٢) الآيتين (٤٠، ٤١) سورة النازعات.

ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾[1].

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصبر والعزم هي صفات للتحلي، أما التكبر والخيلاء والفخر والتعالي والإسراف في المظهرية، وارتفاع الصوت فهي من الخلق المذموم الواجب تجنبه. وفي سورة الإسراء في الآيات (٢٣-٣٩) والتي تبدأ من:

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُواْ صَـٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَـٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُواْ

---

(١) الآيات (١٧-١٩) سورة لقمان.

بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولاً ۝ وَأَوْفُوا ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ۝ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولاً ۝ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولاً ۝ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ۝ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴾

يحدد القرآن ما يطلق عليه لفظ (الحكمة) في إيجاب إفراد العبادة لله وحده، وبر الوالدين وحسن معاملتهما والتذلل لهما، والأوبة عن الذنب وإيتاء ذى القربى حقه والمسكين وابن السبيل ، والوفاء بالعهد وفي الكيل والوزن، وفي النهي عن التبذير، والشح، وقتل الأولاد من خوف الفقر، والزنا، وقتل النفس إلا بالحق، وأكل مال اليتم، والتجسس ومحاولة كشف أسرار الآخرين، والخيلاء وفي ذلك دعوة للترقي بالعقل الوازع إلى العقل الحكيم الراشد، ولفت الانتباه إلى أمراض النفس الواجب مجاهدتها، والأخلاق الواجب التحلي بها.

ويوجز الرسول ﷺ الأمر في ذلك بما أوتي من جوامع الكلم حين يقول: «**لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به**»[1]. المطلوب ليس فقط نهي النفس عن هواها، بل أيضًا أن يعدل هذا الهوى؛ ليكون تابعا لما جاء به الرسول، فكم من المصائب التي جرت للناس حين يصبح الدين تابعًا لهوى بعض الأفراد.

إعمال الفكر، ومجاهدة النفس، يؤديان مع العبادات البدنية والمالية إلى الذكر كما أسلفنا، والمداومة تؤدي إلى ترسخ وجود الله في ذاكرة الإنسان وقد قال الرسول لابن عباس وهو يردفه خلفه: «**يا غلام أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك**......»[2] الحفظ من أدوات الذاكرة فإذا داومت على حفظ الله، «تجده تجاهك» وما معني تجده تجاهك ؟ أي يصبح حاضرا أمامك، لا يغيب عن عينيك، ولا يختفي من بالك وذاكرتك، وهنا يعيش الإنسان في حال يسميه

(١) [صحيح] شرح السنة ج١ صـ٢١٣، ط المكتب الإسلامي.

(٢) [صحيح] الترمذى فى: صفة القيامة [٢٥١٦]، والحاكم فى «المستدرك» [٥٤١/٣].

الصوفية «المراقبة» فالله تجاهك يراقبك، وأنت بالتالي تراقب الله في كل خطرات قلبك وما يرد عليه من واردات، وتراقب الله في كل ما تقع عليه عيناك، وما تسمعه أذنك، وتراقبه قبل أن ينطق لسانك، تراقبه في تعاملك مع أهلك ومع الآخر، ويصبح الله حاضرًا معك في كل شيء، هي حالة يمكن تقريبها إلى الذهن بحالة «الشك المنهجي» أي أنك لا تحرك ساكنًا حتى تعرضه على من يراقبك وتراقبه، هي حال من اليقظة الدائمة، والتنبه الكامل، والتذكر الفاعل، كأنما تقف على أطراف أصابعك على مدار الساعة، نفس قد صفت من الهوى، وقلب قد جليت مرآته، وانبعث النور من داخله؛ ليلتقي بنور الله فهو:

﴿ نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾(١)

وعندما يتحول الإنسان من إعمال الفكر في مظاهر الطبيعة، ويبدأ في تجربة تركيز النظر على نفسه وإلى داخلها:

﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾(٢)

ويقول:

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾(٣)

في هذه العملية الاستبطانية التي يرتد فيها طرف الفرد الواعي الحر إلى داخله هو، وحين يتوحد العلم والعالم والمتعلم، أو المطلوب والطالب والموضوع، في بؤرة تركيز هائلة، تؤدي مع المجاهدة وتجلية مرآة القلب، وتصفية النفس من الكدورات، إلى «الانفجار العظيم» انفجار معرفي حقيقي، يتولد منه الكون الوجودي الحقيقي لماهية الفرد الواعي، وذلك ليس هو الوجود المجازي الذي يشترك فيه الفرد مع المليارات من البشر الموجودين على السطح أو في باطن الكرة الأرضية، أى الوجود الذي تسبب فيه الوالدان بالتعاون بينهما، إنما أقصد الوجود الذي يستطيع

---

(١) الآية (٣٥) سورة النور.

(٢) الآية (٢٤) سورة الذاريات.

(٣) الآيتين (٣، ٤) سورة الملك.

الفرد بموجبه أن يقف أمام الأخر، ويقول: أنا الذات الحرة الواعية المختارة المتميزة عنك أيها الآخر، والتي تختلف أو تتفق معك، ولكنها تقبل بك وتحس تجاهك بأخوة ووحدة الأصل الواحد، وهذا هو الوجود الذي يستطيع أن يجادل عن نفسه أمام الحق - تبارك وتعالي - عندما يقول له الحق:

﴿ ٱقْرَأْ كِتَـٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾(١)

وأن يقدم البرهان على صدقه تلبية لسؤال المولى:

﴿ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾(٢)

* * *

«قال حنظلة الأسيدي يحدثنا عن نفسه: لقيني أبو بكر وقال: كيف أنت يا حنظلة؟ قلت: نافق حنظلة !! قال: سبحان الله ما تقول؟ قلت: نكون عند رسول الله ﷺ، يذكرنا بالنار والجنة حتى كأنا رأى عين، فإذا خرجنا من عند رسول الله ﷺ عافسنا (لاعبنا) الأزواج والأولاد والضيعات فنسينا كثيرًا!

قال أبو بكر: فوالله إنا لنلقى مثل هذا.

قال حنظلة: فانطلقت أنا وأبو بكر حتى دخلنا على رسول الله ﷺ: قلت: نافق حنظلة يا رسول الله .. قال رسول الله ﷺ: «وما ذاك؟ قلت: يا رسول الله .. نكون عندك تذكرنا بالجنة والنار حتى كأنا رأي عين، فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات، ونسينا كثيرا. قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسى بيده، إنكم لو تدومون على ما تكونون عندي وفي الذكر، لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة - وكرر هذه الكلمة: (ساعة وساعة) ثلاث مرات»(٣).

٢ - العمل

يأتي العمل في معظم الآيات القرآنية مقرونا بالإيمان. ولقد عرّف الرسول ﷺ

---

(١) الآية (١٤) سورة الإسراء.

(٢) الآية (١١١) سورة البقرة.

(٣) صحيح مسلم. الحلال والحرام في الإسلام د. القرضاوي مكتبة وهبه ط ١٦ ١٩٨٤ ص٢٧٩

الإيمان بأنه: «**ما وقر في القلب، وصدقة العمل**»[1]. «وما وقر في القلب» هو تشكيل يقوم به الإنسان في حرية كاملة، حرية «داخلية»، ويمكن أن نطلق عليه «النية»، أو الفقه القلبي، أو التصور الاعتقادي، الذي أسلفنا الحديث عنه. والعمل هو الفعل الخارجي في الطبيعة، أو البيئة المحيطة، وبين الناس، أي الفعل في الخارج . العمل يعني خروج الحرية الداخلية إلى أرض الواقع. ذلك يعني أن الإنسان أجرى الاختيار بين البدائل بالحرية المكفولة له، ثم اتخذ القرار بداخله، والعمل هو إخراج القرار، ووضعه في حيز التنفيذ في الواقع الخارجي، ومحاولة تشكيل مادة، هذا الواقع – إذا كان الواقع مازال غفلا – أو إعادة تشكيله، أو ترتيبه طبقًا للتصور الاعتقادي للإنسان.

إذا مارس الإنسان حريته الداخلية (النية – الفقه القلبي – التصور الاعتقادي)، واتخذ القرار، ولم يخرج بهذا القرار إلى أرض الواقع، فإن ذلك لا يعني إلا أن الإيمان لم يتحقق، أو تحقق بأضعف صوره، يقول الرسول ﷺ: «**من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**»[2] اتخاذ القرار طبقًا للتصور الاعتقادي وعدم تنفيذ القرار في الواقع الخارجي، والاحتفاظ بهذا القرار داخل الإنسان هو أضعف الإيمان.

الفعل أو العمل هو تجلي التصور الاعتقادى في الطبيعة، وبالعمل فقط يتضح للإنسان مدى صحة تصوره الاعتقادى، وهنا تتم عملية المراجعة لهذا التصور أو لهذه (النية)، فإن كان العمل صالحًا، فالتصور الاعتقادي سليم فبها ونعمت، وإن كان غير ذلك تتم عمليتا المراجعة والتصويب سواء للتصور أو للتطبيق العملي.

ولذلك يخلق الإنسان العمل، ويُخلق الإنسان في العمل، أو أن الإنسان يُصنع بينما هو يصنع، أي أن العمل هو عملية مستمرة لبناء الذات خلال مسيرة الإنسان التاريخية، وعملية ارتقاء تكاملية متبادلة بين النية والعمل على طريق التزكية.

العمل الصالح هو العمل المنبثق عن نية أو تصور اعتقادي صحيح، ومقولة إن العمل الصالح لا يعني العبادات فقط، تصبح مقولة تحتاج إلى مراجعة؛ لأنها تعني

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) [صحيح] مسلم ك: الإيمان [٤٩]، والترمذى ك: الفتن [٢١٧٣].

أن العبادات هي عمل صالح بالضرورة، وهذا مخالف للعقل والنقل، فليست العبادات بالعمل الصالح ما لم يتوافر لها صحة النية، وصحة الأداء، يقول القرآن الكريم:

﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[1]

ويقول أيضًا:

﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴾[2]

وحديث الرسول ﷺ المانع الجامع «**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها، أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه**»[3] وقوله صلى الله عليه وسلم «**رب صائم لم ينله من صيامه إلا الجوع والعطش**»[4]، وغير ذلك من الأحاديث في هذا المعنى كثير. إذن العمل الصالح، هو أي عمل يقوم به الإنسان، منبثقا عن نية صحيحة أو تصور اعتقادي سليم سواء أكان هذا العمل عبادة، أو صنعة، أو وظيفة، أو ترويحًا عن النفس، أو نومًا، أو ممارسة جنس مع الحليلة، وقد قال الرسول ﷺ: «**وفي بضع أحدكم صدقة. قالوا يا رسول الله: أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزر، فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر**»[5]

هذا هو مفهوم – في زعمي– ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾[6]

---

(١) الآية (١٤٢) سورة النساء.

(٢) الآية (٥٤) سورة التوبة.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) [صحيح] أحمد في «مسنده» ج٢ صـ٣٧٣.

(٥) [صحيح] مسلم في: الزكاة [١٠٠٦]، وأحمد في «مسنده» ج٥ صـ١٦٧.

(٦) الآية (٩٦) سورة مريم.

أو

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾[1]

فالإيمان يؤدي إلى العمل، والعمل يؤدي إلى الإيمان، هذا هو العمل الذي يبني الذات. العمل الذي يضيف القيمة إلى المادة مع الارتباط بالوازع الأخلاقي، والنفع المادي والمعنوي، والجمع بين الرغبة الطبيعية في السعادة والقوة والكمال الأخلاقي في تناغم تصاعدي من خلال مجاهدة النفس للترقي، فى مدارج النفس من النفس الأمارة بالسوء، إلى النفس الملهمة والنفس اللوامة فالنفس المطمئنة، والنفس الراضية، إلى النفس المرضية ، وهنا نسمع نداء الحق:

﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ۝ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴾[2]

هنا فقط تستحق لقب: عبد الله

النية بمفردها أو التصور الاعتقادي وحده لا يكفي في الإسلام، أي أن الوازع الأخلاقي - منفرداً - لا يحقق الإيمان، ولابد معه من العمل الذي يرفع تأثير كل الحتميات عن الذات الإنسانية، سواء كانت تأثيرات طبيعة أو مجتمعية أو تاريخية، أو هوى شخصيًا؛ لأن القرآن يقول:

﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾[3]

اقتران الإيمان بالعمل هو مزج بين الأسلوب والوظيفة «الأسلوب هو الإنسان»[4] و«الوظيفة هي الحقيقة الموضوعية»[5] أو «التشكيل الجمالي والكمال التقنى»[6] أنظر إلى القرآن حيث يصف الأنعام قائلا:

---

(١) الآية (٩٤) سورة للأنبياء.

(٢) الآيات٢٧ - ٣٠) سورة الفجر.

(٣) الآية (١٧) سورة الرعد.

(٤، ٥، ٦) الإسلام بين الشرق والغرب بجوفيتش مرجع سابق ص١٧.

﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ ﴾[١]

الوازع الأخلاقي أو الجمال لابد أن يمتزج بالتقنية أو المنفعة أو الناتج الذي ينفع الناس، إمتزاج النية أو التصور الاعتقادي أو الوازع الأخلاقي أو الجمال، بالعمل وإضافة القيمة أو المنفعة أو الكمال التقني هو ما يسميه الإسلام بالإتقان: «**إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا، أن يتقنه**».

الإنسان في التصور الاعتقادي الذي يشكله الإسلام هو خليفة الله في الأرض، وإن الطبيعة بكل مظاهرها من سماوات وأرض ومادة مسخرة لخدمة هذا الإنسان، وينشأ عن هذا التصور أن الطبيعة خادمة للإنسان، معاونة لـه، لذلك لا تعني عبارة «على الإنسان أن يقهر الطبيعة» أى مدلول صحيح للإنسان المسلم، فالعلاقة علاقة ألفة وحنان، وليست عداوة وقهر، ولذلك فالإسلام يجل الطبيعة، ويرفع من قدر المادة، وكان الرسول ﷺ يطلق أسماء على الجماد أو الأدوات المادية التي يستخدمها في حياته اليومية، تقول د. نعمات فؤاد: «بلغت به - صلى الله عليه وسلم - رقة الإحساس، وحنان القلب، أن شمل الجماد بتحببه وحنانه، فكان يسمي قصعته «الغراء»، وسيفه «ذا الفقار»، ودرعه «ذات الفضول»، وسرجه «الداج»، وبساطه «الكز»، وركوته «الصادر»، ومرآته «المدله»، ومقراضه «الجامع»، وكأنها أحياء مدللة بالأسماء والكنى والألقاب»[٢]. ويقول بيجوفيتش: «فالإسلام يبرز ما في المادة من جمال ونبل كما هو الحال بالنسبة للجسم في موقف الصلاة، والممتلكات في الزكاة»[٣]، كذلك فإن العمل الصالح الصادر عن النية الصادقة هو إبراز لما في مادة الطبيعة وعناصرها من جمال ونبل، وإضافة القيمة إليها باستخدام اليدين وما فيها أيضًا من جمال ونبل، والعمل باليدين هنا هو خلق على غرار - ولله المثل الأعلى - ما أشار إليه القرآن في موقف إبليس من آدم في القول:

---

(١) الآية (٦- ٧) سورة النحل.

(٢) من عبقرية الإسلام ص١٨٤.

(٣) الإسلام بين الشرق والغرب ص٣٠٨.

﴿ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّ ﴾[1]

العمل عملية خلق يعاد فيها ترتيب ذرات الإنسان وكأنه يخلق من جديد في أعماله، العمل هنا هو نبل من الإنسان لإبراز النبل في الطبيعة التي تخدم الإنسان بنبل وحنان.

الحنان بين المادة والإنسان في العمل، تمنع عن الإنسان المسلم احتمالات الاغتراب، فالتصور الاعتقادي أو النية أو الكمال الأخلاقي يلعب دور القلب في بنية العمل، فبدون التصور الاعتقادي يصبح العمل بلا قلب، ويحدث الشقاق والاغتراب الذي حدث نتيجة دخول الآلة إلى ميدان الإنتاج والعمل لأن «تطور العلم والتكنولوجيا و(تطور وسائل الإنتاج) لم يؤد إلى قوة الطبقة العاملة ولكن إلى تدهورها. لم يمنح هذا التطور قوة للعمل، بل على العكس نقل النقطة الحاسمة في الإنتاج وكذا الأهمية الاجتماعية إلى الذكاء التكنولوجي. وهكذا تلاشت آخر المثالية والرومانسية الثورية. وظهرت على المسرح (التكنوقراطية) أو القوة العقلانية التي لا قلب لها، وهي النتاج النموذجي للحضارة الراسخة»[2].

تطور وسائل الإنتاج والتكنوقراطية عملتا على زيادة معدلات التجريد في العمل لفصل الكمال الأخلاقي عن العمل أو الفعل، وهذا الأسلوب في العمل ليس هو أسلوب بناء الذات عن طريق العمل «وقد نجحت عمليات التجريد المتزايدة في جعل القيمة الأخلاقية شيئًا بعيدًا للغاية لا علاقة له بفعل الإنسان المباشر، ولنضرب مثلاً من صناعة الأسلحة الكيماوية الفتاكة: تقسم عملية إنتاج المبيد البشري إلى عدة وظائف صغيرة، كل وظيفة تشكل حلقة تؤدي إلى ما بعدها وحسب. ولأنها مجرد حلقة، فهي محايدة تمامًا ولا معنى لها؛ إذ لا يوجد أي مضمون خلقي لعملية إضافة محلول لآخر. ومن ثم تظل النهاية الأخلاقية (حرق البشر وإبادتهم) بعيدة للغاية. والعامل أو الموظف المسئول عن هذه الحلقة سيبذل قصارى جهده في أداء عمله الموكل إليه دون أية أعباء أخلاقية»[3].

---

(١) الآية (٧٥) سورة ص.

(٢) الإسلام بين الشرق والغرب بيجوفيتش مرجع سابق ص١١٤.

(٣) الصهيونية والنازية ونهاية التاريخ د. عبد الوهاب المسيري دار الشروق ط (٩٩٧) ص٣٣.

لابد من اقتران الإيمان بالعمل؛ ليؤدي العمل وظيفته في نفع البشر، وبناء الذات الفردية الحرة الواعية المختارة، والفصل بينهما يؤدي إلى: «أن ما تم إنجازه في الحضارة الغربية الحديثة هو القضاء على الشخصية التقليدية ذات الولاء لمطلق خلقي ثابت يتجاوز عالم المادة والتاريخ (ومن ثم فهي شخصيات تعيش في تعددية وثنائية)، وحلت محلها الشخصية الحركية المتغيرة والمتقلبة مع حركة المادة، التي لا ولاء عندها لأية ثوابت أو مطلقات، والتي تحررت من أية قيم أو غائية ...... شخصية تتبدى من خلال إذعان أداتي، فتصبح شخصية نمطية تعاقدية برجماتية ذات بعد واحد... وهي نسبية وهزيلة مهتزة.......»[(١)] الفصل بين الكمال الأخلاقي والكمال التقنى يوصل إلى الإنسان ذى البعد الواحد، بما يحمله ذلك من كل النقائص من الشره والسعار الاستهلاكى، إلى الأنانية والشذوذ، وهى «شخصية ذات عقل أداتى لا يفكر فى الغايات، وإنما فى الوسائل والإجراءات فحسب، وفى أحسن السبل لإنجاز ما أوكل إليها من مهام دون تساؤل عن مضمونها الأخلاقى أو هدفها الإنسانى»[(٢)]. والتصور الاعتقادي الذي يتشكل على قاعدة التوحيد، يدفع العمل في بناء الذات في اتجاه توحيد كل ثنائياتها (الذات) عن طريق ربط الكمال الأخلاقي بالعمل، فيصل إلى الذات التي تصل إلى السلام بين عناصر الثنائية لديها، والتي لا تتشظى ولا تنشطر بالفصل بين التصور الاعتقادى والعمل، أو بين ما هو مادي وما هو روحي، فالتوحيد تناغم ووحدة وسلام وجمال.

وعندما يوضع العمل مقترنًا بالإيمان، فإن ذلك يعني عقلاً أن الكسل أو النكوص عن العمل أو التقاعس أو فقدان الإتقان هو نوع من الكفران. والكفر لغة يعنى: جحود النعمة، والكفر بالفتح : التغطية، والكافر: الليل المظلم؛ لأنه ستر بظلمته كل شيء. وكل شيء غطي شيئًا فقد كفره. أي أن الكفر هو ستر الشيء وتغطيته، ولذلك يقول أحد الفضلاء في شرح الآيات:

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ

---

(١) المرجع السابق ص٣٣.
(٢) المرجع السابق ص٣٤.

وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾[1]

«وعليه فإن المشكلة الاقتصادية في الإسلام إنما تعود إلى أمرين أساسيين: أحدهما (هو ما يعنينا هنا) : هو عدم استغلال الإنسان للموارد الطبيعة التي سخرها الله لخدمته ومنفعته، إما لتكاسله عن الإنتاج وتقاعسه عن العمل، أو لجريه وراء الشهوات والنزوات، أو لتبديده للمال والوقت والعافية، وتخاذله عن تنمية قدراته الذهنية والعضلية لدفع عجلة الإنتاج، وهذا هو جانب الكفران بالنعم»[2] انتهي. عندما لا تعمل تبقى الموارد والثروات وماديات الطبيعة مطمورة، فكأنك حجبتها بتكاسلك وتقاعسك عن العمل عن استخدامها، فقد كفرتها من ناحيتين أنك سترتها وغطيتها وحجبتها عن المنفعة كما أنك جحدتها بعدم استغلالها، فأصبح هذا الإنسان «كفار» وهو نقيض الإيمان فعلاً. بهذا المعنى فإن عدم العمل هو كفر بالنعمة بالمعنى اللغوي والمعنى الحرفي كنقيض للإيمان. وهنا يمكننا أن نفهم الآية التي تقول :

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴾[3]

الأمر هنا واضح وببساطة، هذه القرية كان الناس فيها يعملون، فكانت على درجة عالية من الثراء، ولما توقفوا عن العمل (فكفرت بأنعم الله) كانت النتيجة ضعفاً اقتصاديًا وإفلاسًا، أى جوعًا وخوفًا نتيجة التقاعس عن العمل.

العمل نفي للجوع والخوف، وتأثير الجوع والخوف على شخصية الإنسان لا يحتاج إلى مزيد القول، وقد قرن الرسول الكفر بالفقر فى التعوذ عند الدعاء «**أعوذ**

---

(١) الآيات (٣٢- ٣٤) سورة إبراهيم.

(٢) تدخل الدولة في النشاط الاقتصادي د/ محمد فتحي ص٤٥ في إطار الاقتصاد الإسلامي

(٣) الآية (١١٢) سورة النحل.

بك من الكفر والفقر، ومن عذاب القبر» فالكفر بالمعنى الذي سقناه يؤدي إلى الفقر، الذي يؤدي إلى الجوع وعدم الأمن وتأثيرهما في انحطاط الشخصية لا يقارن به تأثير.

يقول القرآن:

﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[١].

وسلم رجل على رسول الله ﷺ، فتحسس يده وكانت خشنة من تأثير العمل فرفعها الرسول قائلاً: **«هذه يد يحبها الله ورسوله»**

ومن مأثور الحديث أنه صلى الله عليه وسلم مر برجل يغرس نخلة، ووجده شديد الاحتفاء بها: يزرع فينخل التراب ويصفيه، ويضعه في حفرة شيئا بعد شيء، ويسقيه بالماء. ثم يضع فسيل النخلة ويسوي عليه التراب بيده، ثم يكمل الحفرة إلى حافتها ويرويها بالماء، فقال صلى الله عليه وسلم: **«هذه يد يبارك الله ما تصنع»**[٢].

٣ – الحركة

الحركة هي العمود الثالث من أعمدة التزكية. الكون كله قائم على الحركة. الأرض تدور حول الشمس، والشمس تدور حول مركز المجرة، والمجرة تتحرك بسرعة تقرب من سرعة الضوء، والكون يتمدد بنفس السرعة. لا يوجد توقف أو وقوف في الطبيعة:

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَـٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾[٣]

---

(١) الآية (١٠٥) سورة التوبة.

(٢) دراسات في السيرة النبوية د. حسين مؤنس ط ١٩٨٥ ص٥٢.

(٣) الآيات (٣٧-٤٠) سورة يس.

الزمن أيضًا يجري ويتحرك ، وكذلك التاريخ، فالوقوف ضد سنة الطبيعة.

لذلك فالحركة مطلوبة أيضًا من الإنسان، فالمدافعة حركة لولاها لفسدت الأرض كما ينبه القرآن الكريم، والباحث عن الحكمة المطارد لها، والذي يلتمسها في مظانها؛ ليظفر بها لابد لــه من الحركة، والتعارف لتبادل وتلاقح الأفكار يستلزم أيضا الحركة. الحركة مطلوبة وأيضًا الانتقال للمعرفة والاعتبار:

﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ﴾[1]

﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ﴾[2]،

﴿ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾[3]،

ويقول الرسول ﷺ «**اطلبوا العلم ولو في الصين**»[4] السير حركة، والسفر والانتقال حركة، بل إن الأفكار أيضا تحتاج إلى الحركة عن طريق السؤال والمناقشة والجدل، فالتوقف يعني الركود، وتجول الأفكار داخل دائرة مغلقة يحولها إلى ماء آسن، ويقع الإنسان فريسة للجمود الفكري « ».

أعمار الكائنات تتفاوت من لحظات وأجزاء من الثانية لبعض مكونات المادة على المستوى تحت الذرى، صعودًا إلى مئات السنين لبعض الأشجار والحيوانات كالسلحفاة، وصولاً إلى المليارات من الأعوام للكواكب والنجوم، وعمر الإنسان يصل في أقصاه إلى بضع عشرات من السنين، فلا بد أن ينتهز الإنسان الفرصة المحدودة المتاحة لــه بالحركة خلال الشريحة العمرية لجنسه، للترقي والتصاعد في مدارج الكمال

﴿ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَـٰفِسُونَ ﴾[5]

امتثالاً للأمر الإلهي:

﴿ ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ﴾[6].

---

(١) الآية (٢٠) سورة العنكبوت.
(٢) الآية (٤٢) سورة الروم.
(٣) الآية (٣٦) سورة النحل.
(٤) [موضوع] جامع بيان العلم، ابن عبد البر، ج١ [٨٢٧]، ط المطبعة المنيرية.
(٥) الآية (٢٦) سورة المطففين.
(٦) الآية (٤١) سورة التوبة.

الوقوف والجمود ضد طبيعة الأشياء، ولذلك تحدث الرسول عن التجديد في أمر الدين قائلاً «**يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة عام من يجدد أمر دينها**»[١]، فالحوادث والمواقف التي تقابل الإنسان في حياته لا تتناهى، بينما النصوص متناهية، والمطلوب إعمال الفكر في فهم النصوص لإنزال أحكامها منازلها، ويقول د. كمال أبو المجد: «لهذا فإن حديثنا عن التجديد فى الإسلام ليس بحال من الأحوال – دعوة إلى التغيير في الإسلام، وإنما هو حديث موجه إلى فكر المسلمين وسلوكهم .. ولعل هذا المعنى الدقيق هو القائم وراء عبارة الحديث النبوي الشريف الذي يقرر أن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها .. فالتجديد – إذن – تجديد لأمر الدين ومكانته وسلطانه، وليس تجديدًا للدين نفسه»[٢]. وهنا فإن الوقوف بالاجتهاد هو عمل ضد الحركة وضد طبيعة الأشياء، بل إن الذي قال بذلك قد استخدم حريته في الاجتهاد في العدوان على حرية الآخرين في المجال نفسه، وهو الاجتهاد، عندما طالب بالوقوف عند الذي تم، وأفتى بأنه لا حاجة لمزيد. يقول الأستاذ العقاد: «التفكير في أمور الدين أصل من الأصول المقررة. أما التقليد فهو حالة من حالات الضرورة التي تعفي من الاجتهاد بالفهم من يعجز عنه ولا يستطيعه. وقد يكون المستطيعون للاجتهاد أقل عددًا من المستطيعين للصلاة .. ولكن الفرق في الاستطاعة لا يجعل العجز عن الفريضة واجبًا محتومًا يلتزمه العاجز ولا يعمل على الخلاص منه كلما استطاع .. فلا إيجاب للتقليد ولا تحريم للاجتهاد بالفكر، وشر الناس في الإسلام من يحرم على خلق الله أن يفكروا ويتدبروا بعد أن أمرهم الله بالتفكير والتدبر وأنبأهم بعاقبة الذين لا يفكرون ولا يتدبرون، ومثله شرًا من يحرم الاجتهاد على الناس جميعًا؛ لأنه قضى على خلق الله إلى آخر الزمان بالحرمان من نعمة العقل والعلم والصلاح. ومن أباح لنفسه أن يحرم على الناس نعمة العقل والعلم إلى آخر الزمان فقد اجتهد برأيه اجتهادًا أبعد في الدعوى من كل ما يدعيه المجتهدون على حق أو على باطل. فإنه يلغي أوامر الله لعباده، حيث يتحرى المجتهدون أن يبتغوا الوسيلة إليها. فهو ينهى الناس برأيه

---

(١) [صحيح] أبو داود في: الملاحم [٤٢٩١].

(٢) حوار لا مواجهة د. كمال أبو المجد طبعة جديدة ١٩٨٨ دار الشروق ص ٤٤ – ٤٥

عما أمرهم به الله واجتهدوا قادرين أو عاجزين أن يطيعوه». ويستطرد الأستاذ الفاضل فيقول: «ومن الفهم المعكوس أن يقال إن الاجتهاد لازم في عصر الدعوة النبوية والنصوص من الكتاب تتوارد والسنة من أحاديث النبي حاضرة، وصاحب الدعوة أمام الناس يسألونه ويجيبهم، ثم ينقضي ذلك العهد فيحرم الاجتهاد... فهذا من الفهم المعكوس ولا مراء؛ لأنه يقضي بالاستغناء عن الاجتهاد عند الحاجة إليه، والفهم الصحيح في هذه المسألة الجليلة أن ما صنعه النبي وتابعه فيه الراشدون من خلفائه وأصحابه وجب على المسلمين أن يصنعوا مثله، ولهم قدوة من أولى الناس أن يقتدوا بسيرته وعمله. وشبيه بهذا الفهم المعكوس أن يقال إن الاجتهاد يصح حين تصح الذمم وتطهر الضمائر .. ولكنه يبطل ولا يصح إذا عم الفساد وزاغت الضمائر ... فالواقع أن عهد الفساد عهد تكثر فيه الشبهات التي ينبغي للحاكم أن يدرأها عند إقامة الحدود، وتكثر فيه الضرورات التي يجب أن يقدرها بأقدارها عند توقيع العقاب ..»[1].

الحركة تقتضي أن يعيش الإنسان في الوقت الحقيقي، وكل الأجهزة الحديثة الآن العسكرية منها والمدنية، تتنافس على توفير الغرض الذي صممت من أجله فيما يسمى بالوقت الحقيقي ؛ لأن التأخير في اتخاذ القرار عن الوقت الحقيقي أصبح في زمننا هذا أقصر الطرق إلى الخراب والدمار والتخلف في أي ميدان من ميادين الحياة على المستوى السياسي أو الاقتصادي أو الاجتماعي أو العسكري. ضبط الإيقاع مع الوقت الحقيقي أصبح من ضرورات البقاء؛ لذلك فإن أهم واجبات الإنسان المكلف الحر الواعي، أن يزج بنفسه في مسيرته التكاملية إلى داخل الوقت الحقيقي أولا، ثم العمل على نقل توقيت مجتمعه من الزمن الذي يعيش فيه هذا المجتمع إلى الزمن الحقيقي، وذلك ميدان من أهم ميادين جهاد النفس والجهاد من أجل الجماعة فقد قال صلى الله عليه وسلم: «**لا هجرة بعد الفتح، وإنما جهاد ونية وإذا استنفرتم فانفروا**»[2]. الجهاد على المستوى الشخصي هو جهاد النفس ومتابعة التزكية، وهو أيضا نقل تناقضات المجتمع إلى وعي أفراده؛ لأن

---

(١) التفكير فريضة إسلامية، العقاد مرجع سابق ص ١٠٢ - ١٠٧

(٢) [صحيح] البخارى فى : الجزية والموادعة [٣١٨٩]، ومسلم فى: الحج [١٣٥٣].

الإحساس بعوامل الركود هو المحرك الذي يؤدي إلى مقاومتها، وأهم عوامل الركود أن الناس لا تعيش في الزمن الحقيقي، فالاهتمام مثلاً بالخلاف بين السنة والشيعة والتركيز عليه دون غيره يعني أن المهتم يعيش في القرن الأول الهجري، والقائلون بوقف الاجتهاد بعد الأئمة الأربعة يريدون من الناس أن تعيش معهم في حدود القرن الرابع الهجري، أو يريدون استدعاء هذه القرون السابقة إلى الوقت الحقيقي أو وقتنا الحالي وهو القرن الخامس عشر الهجري، والذين يدبون بأقدامهم ويتحركون بأجسادهم في وقتنا الحالي ويعملون جاهدين، ويحلمون باستدعاء قرون سابقة هم في الحقيقة ليسوا فقط واقفين في أماكنهم، بل إنهم يتحركون عكس مسيرة التاريخ، الإنسان لا ينفصل عن تاريخه، والتاريخ يعني التراكم المعرفي، والعبرة والاعتبار يعنيان معرفة السابق ودراسة أحواله، ونقاط القوة والاستفادة من الأخطاء، ثم إنزال ذلك على الوقت الحقيقي بمتطلباته المستجدة، دون الإخلال بالثوابت، أو التلاعب بالنصوص، وبذلك يتزكى الناس.

الوقت الحقيقي من أهم الأبعاد التي يستدعيها الفرد الواعي الحر؛ ليمارس من خلالها عملية التزكية لنفسه، وضبط الإيقاع هو أحد أهم العناصر التي ينبغي لهذه الذات المختارة أن تحصل عليها في حركتها خلال مسيرتها التاريخية، فلا هو يبطئ فتصرعه أقدام الزمن لفارق السرعة، ولا هو يسبق فيرمى بنفسه إلى المجهول، ويسقط خائر القوى وقد أنهكه التعب قبل إتمام رحلة التزكية؛ لذلك يقول الرسول ﷺ: «**إن المنبت لا أرضا قطع، ولا ظهرا أبقى**»[1]. الإسراع وعدم ضبط الإيقاع الحركي يجهد دابة الجسد بحثها والتحميل عليها بما يفوق الطاقة، فتنفق منه في الطريق، ولا يقدر على الحركة فلا يدرك الغاية التي ينبغي الوصول إليها، ويفقد القوة اللازمة لإعانته على إكمال المسيرة، وقد ينتهي أمره في صحراء الوحدة. ضبط الحركة والإيقاع مطلوب سواء أكانت الحركة من أجل القوة والمنفعة والسعادة في الدنيا، أو كانت في معراج مجاهدة النفس والترقي ومسار التزكية، فالرسول ﷺ يقول: «**إن هذا الدين لمتين. فأوغلوا فيه برفق، ولن يُشاد الدين أحدًا**

---

(١) [ضعيف] البيهقي في: «السنن الكبرى» ٣/١٨-١٩، مصدر سابق.

إلا غلبه»[1]. التزكية وإصلاح «النية» أو «تصويب التصور الاعتقادي» والجهاد أو الفعل أو العمل على أساس من الوعي والحرية، يأخذ بالكيس الفطن إلى الحصول على النغمة السليمة، والإيقاع المطلوب للحركة، فالحركة الزائدة في اتجاه الروح قد تطيح بالنفس في ردة عكسية للغرق في محيط الشهوات، والحركة الزائدة في اتجاه المادة والتكالب على اللذة قد تدفع بالنفس إلى عالم من الحيرة والخواء والاغتراب والقنوط المقيم؛ لذلك فعندما طلب ابن الخليفة عمر بن عبد العزيز من أبيه المزيد من الشدة على الرعية- ويا للعجب عمر بن عبد العزيز يحتاج إلى النصح في هذا الاتجاه – قال ابن عبد العزيز لابنه: «يابني أخشى إن حملتهم على الحق جملة، أن يتركوه جملة».

الخفة من أهم العوامل التي تساعد على الحركة، ورحلة الحياة التي تقتضى الحركة والتزكية والتخلق بأخلاق الله الذي لانهاية لكمالاته، تستلزم أن يخفف الإنسان من الأثقال التي يحملها معه في رحلته هذه، والتكالب الشديد على أية ضرورة – أو هكذا تبدو – من ضرورات الحياة، وتعلق النفس بها، يعنى أن النفس تمد جذورًا مثل جذور الأشجار تربطها بهذا الشيء لكي تتعلق به، وامتداد هذه الجذور، وتجذرها داخل مادة الشيء المتعلق به، قد يصل إلى أن يمنع الإنسان من الحركة تمامًا، ويصبح عاجزًا عن اقتلاع نفسه وقطع جذورها لإكمال المسيرة، والتوقف هنا يعني أن يقع الإنسان صريعًا تحت أقدام الحشود المتحركة، أو في أحسن الفروض يتخلف عن الركب بمسافة طويلة. كم رأينا في حياتنا أناسًا قد ارتبطوا في حياتهم – على سبيل المثال- بوظيفة ما، وأصبحت هذه الوظيفة وما توفره من نفوذ أو جاه وسلطة ومكاسب وخدمات، كالأرض التي أفسحت بداخلها مجالاً لجذور أنفسهم في أن تغوص فيها بعيدًا في أعماق الأرض، وعندما أتى الوقت، وطالبت سنة الحركة (التداول) باستحقاقها، ووجب ترك الوظيفة لآخر، لم يستطع هذا الإنسان التحرك لقوة الارتباط، وعندما جفت منابع الإمداد لجذور نفسه، بدأت الحياة تذوى في نفسه، وانتهى بالمعنى الحرفي للكلمة، ولذلك عندما كان الرسول ﷺ يبني المسجد، كان يبنيه من الطوب اللبن، وعندما قيل لـه أن يستخدم

---

(١) [حسن] أحمد في «مسنده» ج٣ صـ١٩٩، مصدر سابق.

الحجر قال: «الأمر أعجل من ذلك»، ونحن نعي دور المسجد الذي هو عماد الحياة ومحور الحركة في التصور الاعتقادي للمسلمين. ومن نافلة القول أن نقول إننا لا ندعو لبناء بيوتنا وأماكن عبادتنا ومصانعنا من اللبن، لكننا نتكلم هنا، ونوجه القول إلى أناس يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

الإنسان الواعي الحر المختار، الخائض بقواه في معركة تزكية النفس، لا يرتبط بشيء إلى الدرجة التي تسلبه حريته التي تعاقد مع الله عليها، وهو ليس على أدنى استعداد للتضحية بأي قدر من حريته في سبيل أي هدف إلا هدف الترقي في الكمالات وزيادة الحرية، يفرح دون أن يدفعه الفرح للتنكب عن الطريق، ويحزن دون أن يقعده الحزن ويهد كيانه ويمنعه من مواصلة الحركة تنفيذاً للتوجيه القرآني:

﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾[1]

ورحم الله الذي قال: إن هذه الآية دستور «للصحة النفسية» للإنسان[2].

الإنسان الحر الواعي خفيف ليس لـــه من الزاد، إلا الحد الذي يعينه على الحركة بالإيقاع المضبوط لمعايشة الوقت الحقيقي دون إفراط أو تفريط

﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴾[3].

تستلزم الحركة المستمرة للطبيعة سريان سنة التداول، فالأيام دول بين الأفراد والجماعات والأمم، وكل هؤلاء بين الرفع والخفض، والصعود والهبوط، والتقدم والتخلف، والقيادة والانقياد، فالتداول سنة من سنن الحياة، لذا فإن «الاستبداد» وهو الانفراد بالشيء، ورفض تداوله مع الآخر، يصبح من مضادات التقدم، وكوابح الحركة، ويعارض السنة الكونية التي قال بها القرآن

﴿ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾[4]

لذلك فالاستبداد وأثره في الحكام والمحكومين لا يحتاج إلى برهان أو مزيد إيضاح. أنظر كيف فعل الاستبداد بالناس أثناء حياة المستبد، وحتى بعد وفاته بوقت

---

(١) الآية (٢٣) سورة الحديد.

(٢) د. جمال ماضي أبو العزائم في جلسة مع الكاتب.

(٣) الآية (١٩٧) سورة البقرة.

(٤) الآية (١٤٠) سورة آل عمران.

طويل. انظر كيف يقتل الاستبداد روح الشعوب والأفراد، فالحركة هي إحدى عوامل تنمية الذات، أما الاستبداد حيث هو مانع للحركة، فيعمل على قتل الحرية، وانحطاط الذات، وتحطيم الشخصية الإنسانية، وركود المجتمعات.

الحركة في الطبيعة هي تناغم وانسياب، وتحليق بخفة مع عناصرها المتحركة، والحركة داخل النفس هى في الارتفاع بها، واقتلاعها من أن تُدس تحت تراب الشهوة والفجور، إلى التحليق فوق الطبيعة والكون والمخلوقات، في عالم الأنوار، للتعرف على نور السماوات والأرض.

يقول أحد الصوفية: إن الحياة توهب للإنسان في نبضات تتجدد مع كل شهيق ومع كل زفير، فانظر لمدى دقه وأسلوب سريان حركة الحياة مع أنفاس البشر، والدنيا تتغير لحظيًا في تيار مستمر يخرج من العدم إلى الوجود، ويعبر من الوجود إلى الموت دون ما توقف.

يقول جلال الدين الرومي في المثنوى:

ففي كل لحظة – يارب – قافلة وراءها قافلة، تسير من العدم إلى الوجود.

وفي الخريف تذهب آلاف الأغصان والأوراق منهزمة إلى بحار الموت! بينما الغراب يرتدي السواد كالحزين، وينوح على الخضرة في البستان

وثانية يجئ الأمر من سيد الأرض (فيقول) للعدم «رد ما أكلت»!

أيها الموت الأسود ! رد ما أكلت من زرع وأعشاب وورق وحشائش!!

فيا أخي! اجعل عقلك معك لحظة واحدة! إن بك في كل لحظة خريفًا وربيعًا[1].

ويقول الشاعر والروائي نعيم صبري في قصيدة بعنوان «إيقاع»[2]:

إن الميلاد بداية رحلة إيقاع

نتعلم نطق الحرف برحلة إيقاع

يشتد العود على السيقان ويخطو في ترنيمة إيقاع

إيقاع يتلو إيقاع

ليل ونهار

زمن يتدفق في ساعات التوقيت

---

(١) المثنوي جلال الدين الرومي د. محمد كفافي جـ ١ المكتبة العصرية بيروت ١٩٦٦ ص ٢٥٠

(٢) ديوان يوميات طابع بريد. نعيم صبري .

نبض القلب
قطرات الدمع من الهدب
أنفاس الصدر
إنشاد الشعر
شيطان الرقص
لا يخرج شيء عن ناموس الإيقاع
: : : :
: : : :
فالبحث عن الإيقاع يقين
والبحث عن الإيقاع حنين
:
:

إذا وقفت يا سيدي على ضفة نهر، ومددت يدك واغترفت شربة ماء، ثم مددت يدك لتناول شربة ثانية، فأنت في الشربة الثانية لاتشرب من نفس النهر.

الشخصية الإنسانية ما بين استلاب الحرية وممارستها مع التزكية

موسى وبني إسرائيل، وفرعون

إذا كانت الأمانة التي حملها الإنسان هي الحرية – حسب زعمي – وإذا كانت الحرية هي الأساس الذي قام عليه استحقاق الإنسان للاستخلاف عن الحق -تبارك وتعالي – في أرضه، وأن استخلاف الإنسان في الأرض هو أساس الإعمار والتنمية والتقدم، فيكون استلاب حرية الإنسان، أو العدوان عليها، أو انتقاصها، وهو أقصر الطرق إلى سلب الإنسان أساس وجوده، وإلى الهبوط بالشخصية الإنسانية، والشخصية الاجتماعية إلى حضيض الركود والانحطاط، ويدفع بالبنيان الكوني بأسره إلى هاوية الفساد. لا جرم إذن أن نجد في ثنايا القصص القرآني العظيم الذي هو أحسن القصص، وفي الأمثال التي يضربها القرآن للناس للاعتبار – الكثير عن عاقبة كل من سولت لـــه نفسه أن يعتدي على حرية الإنسان على المستوى الفردي أو على الجماعة. وإذا كان الاستبداد- كما أسلفنا – هو الانفراد

بالأمر سواء أكان رأيًا أم قرارًا أم حكمًا، والذي ينتج عنه خنق الحريات؛ لكونه إيقافًا لحركة الناس والتاريخ والتطور، ومعاندة لسنة التداول وسنة الكون في الحركة، وأيضًا فإن الطغيان - وهو قرين الاستبداد - هو مجاوزة الحد في الأمر، وهو ما يعني تضخم ذات فردية إلى الحد الذي تسحق به الآخر فردًا كان أم جماعة، وتلغيه وتتعالى عليه فلا تنظر إليه أو تراه، ومن الطغيان جاء اسم (الطاغية) (والطاغوت)، وهاجم القرآن المستبدين والطواغيت، وتوعدهم وشرح التأثير الذي يخلفونه على الذات والشخصية الإنسانية، ومدى التخريب الذي يلحق بالإنسان من جراء عدوانهم، ومدى عمق الجرح الغائر في النفس البشرية الذي يتولد عن ممارسة الطواغيت، والزمن الطويل الذي يستغرقه هذا الجرح حتى الالتئام.

ينعى القرآن على الذين يلتفون حول الطاغوت، ويلتحقون به، ويشايعونه، ويزينون لـــه العمل، ويداهنونه بالقول، ويدافعون عن تصرفه، ويعيشون في كنفه، حيث يقول:

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ ﴾[1]

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ ﴾[2]

﴿ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ ﴾[3]

وعن حاشية فرعون يقول:

﴿ فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴾[4]

ويطلب القرآن من الأحرار

﴿ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾[5]

ويعد من يحافظ على الابتعاد عنه بالحسنى قائلا:

---

(١) الآية (٢٥٧) سورة البقرة.

(٢) الآية (٧٦) سورة النساء.

(٣) الآية (٦٠) سورة النساء.

(٤) الآية (٥٤) سورة الزخرف.

(٥) الآية (٣٦) سورة النحل.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾[1]، بل إن من يفعل ذلك فليعلم أنه على الحق المبين

﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾[2].

فرعون مصر هو الشخصية العلم على الاستبداد والطغيان في القرآن الكريم، وهو الطاغوت الذي استعبد الآخر، وقتل حريته، وحطم شخصيته على أساس عنصري بغيض، بل إنه أيضًا قد قاد حملة تطهير عرقي منذ بواكير التاريخ. يقول الحق - تبارك وتعالى - في ذلك:

﴿نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[3]

الآيتان تتحدثان بوضوح عن استبداد وطغيان (علا في الأرض) وتقسيم عنصري كريه (جعل أهلها شيعا)، وعن ظلم واستقواء ناتج عن دونية الآخر طبقًا لهذا التقسيم العنصري (يستضعف طائفة منهم)، وعن عملية تطهير عرقي واستغلال مبرمجين (يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم)، وأما تأثير جماع ما سبق على الفرد والجماعة والأرض فإن القرآن يسمي ذلك (إفسادًا).

الحرية هي المحرك لتسامي وتكامل شخصية الإنسان في مسيرته من التراب إلى الكمالات الإلهية، عن طريق بناء الذات المستمر من خلال التزكية والطاغوت (فرعون) سوف يدمر كل ذلك، وقوته عاتية تستعصى على المقاومة؛ لذلك كان لابد من التدخل الإلهي، فيقول القرآن مستطردًا:

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾[4]

---

(١) الآية (١٧) سورة الزمر.
(٢) الآية (٢٥٦) سورة البقرة.
(٣) الآيتين (٣، ٤) سورة القصص.
(٤) الآية (٥، ٦) سورة القصص.

وتمضي القصة بعد ذلك، ويضرب الله - جل وعلا - فرعون وجيشه بجدار من مياه البحر الأحمر، يعلم الله مدى ارتفاعه، ولكنها بلا شك ضربة هائلة يعجز التصور عن فداحة تأثيرها.

ما أود أن أوضحه هنا هو مدى تأثير فقدان الإنسان للحرية تحت عبء الطاغوت، على الشخصية والماهية وعلى تصوره الاعتقادي، وعلى العمل أو الفعل الصادر عن هذا الإنسان المسحوق. من تتحدث عنهم الآية، نتاج أجيال رزحوا عشرات السنين تحت تأثير الظلم والتمييز العنصري والاستعباد والاستبداد والطغيان والتهديد والعنف الجسدي والمعنوي، ثم انتقل بهم سيدنا موسى - عليه السلام - بشكل سريع إلى ساحة الحرية الواسعة، فماذا كان أمرهم؟ بمجرد النجاة. وعقب مشاهدة مصرع فرعون وجنوده، وهي آية واضحة دالة على وحدانية الله، وأنه القادر ومسبب الأسباب، يتحدث القرآن عن تصرفهم قائلا:

﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ۝ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ۝ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾(١)

بدأ موسى طبقا للآيات السابقة في عملية تعديل التصور الاعتقادي لبني إسرائيل، لتخليصهم من العبودية للطاغوت، والتي تجذرت داخل نفوسهم لطول سنوات الاستعباد. مسئولية الحرية والقيام بها، وتغلغلها في نسيج النفس تحتاج إلى وقت وجهد ومجاهدة، لذلك فمجرد أن تركهم موسى ليذهب للقاء ربه، فماذا فعلوا ؟

﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴾(٢)

---

(١) الآيات (١٣٧-١٤٠) الأعراف.

(٢) الآية (١٤٨) سورة الأعراف.

لقد اتخذوا إلهًا صنعوه من الذهب والحلي الذي سرقوه من المصريين، أي أن الإله الذي يعبدونه مصنوع من ذهب مسروق!!، هذه أخلاق وتصرفات أناس قتلت الحرية داخلهم بقسوة ولزمن طويل. ما سمات هذه الشخصية التي استعبدت وسحقت وضعفت حتى ذوت؟ أن تستأسد على من يتواضع معها حين تنال قدرًا من الحرية، فالمقاييس بالنسبة لــه مختلة، حيث كانت في الكفة الضعيفة من الميزان لوقت طويل، يقول القرآن:

﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[1]

أيضًا من سمات هذه الشخصية عندما يهب عليها نسيم الحرية، أن تغالي وتبالغ في الطلب، فالاستعباد قد حبس هذه النفوس في قالبه البغيض، ومنعها من النمو بالممارسة في رحاب الطبيعة، فتصبح الشخصية جنينية أو طفولية ساذجة، تفتقد الحكمة، ولا تعى المقاييس،

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾[2]،

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ﴾[3].

وعندما أمرهم موسى بالاستعداد لدخول الأرض المقدسة، وقد يستلزم الأمــر القتال، ظهر الضعف الكامن داخل ذواتهم التي خربها الاستبداد والطغيان واغتيـــال الشخصية، فماذا كان جوابهم؟

(١) الآية (١٥٠) الأعراف.
(٢) الآية (٥٥) سورة البقرة.
(٣) الآية (٦١) سورة البقرة.

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝ يَـٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَـٰسِرِينَ ۝ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴾[1]

يريدون أن يزرع الله لهم ويحصد وهم يأكلون، ويريدون من الله أن يخرج لهم القوم من الأرض المقدسة، حتى يتفضلوا بالدخول. ولن يعدم الأمر استثناء بوجود بعض الشخصيات الواعية التي قد نجت من الذل المقيم، ولكنه الاستثناء الذي يؤكد القاعدة: إن الاستبداد والطغيان ووأد الحرية، يهوى بالماهية الإنسانية إلى حضيض الهوان

﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَـٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[2]

ودقق في عبارة:

﴿ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ﴾

فالحرية واستقلال الشخصية هي نعمة كبيرة. ماذا أجابوا؟

﴿ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴾[3]

الدخول إلى عالم الحرية يحتاج إلى إعداد وممارسة، ويحتاج إلى تزكية، وكل ذلك يحتاج إلى زمن، لذلك كانت النتيجة التي أدى إليها حصول بني إسرائيل على الحرية، دون الحافز والرغبة في دفع ثمنها، أن موسى - عليه السلام - وصل إلى القرار الذي لا يمكن تجنبه

---

(١) الآيات (٢٠ - ٢٢) سورة المائدة.

(٢) الآية (٢٣) سورة المائدة.

(٣) الآية (٢٤) سورة المائدة.

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ۝ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾[1].

الحرية تحتاج إلى تيقظ وانتباه وتضحية ومجاهدة وتزكية، وتصور اعتقادي سليم وعمل وفعل وتغيير في الطبيعة وفي الناس وإلا قادتك إلى التيه .

مئات السنين بعد التيه، قد فعل فعله في بني إسرائيل، فالحياة هي وعاء الممارسة، والحياة بعيدًا عن الاستعباد والطغيان توقظ الحرية داخل النفوس، خاصة في الأجيال التي نشأت بعيدًا عن قضبان الطغيان القاسية فيحكي القرآن عن بني إسرائيل أنهم عادوا إلى نبي لهم، طالبين العودة إلى المدينة المقدسة ولو بالقتال، وراودهم النبي عن طلبهم هذا فأصروا، وتعلموا النقاش عندما رشح لهم النبي الشخص المناسب لتلك المهمة، واستنكروا لفقر هذا الشخص، فأخبرهم النبي أن المقاييس تختلف باختلاف المهام، فالقتال والقيادة يلزمهما العلم والقوة لا المال. ثم قام الرجل بعملية تزكية للجنود، بأن سار بهم في الصحراء المحرقة حتى نالهم الجهد والعطش، وسمح لمن طلب الرجوع بالعودة، ثم مرَّ بالباقين خلال نهر وهم من العطش في غاية، فأعاد من شرب من النهر أثناء عبوره، فلم يبق إلا الصفوة. حتى بعض هؤلاء الصفوة عندما رأوا الأعداء هالتهم قوتهم، فشجعتهم صفوة الصفوة، وبهؤلاء القليلين تحقق الانتصار. **الحرية طريق صعب وشاق، والتزكية لا يستطيعها إلا الصفوة، وهؤلاء هم صناع التاريخ**، يقول القرآن:

﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰٓ إِذۡ قَالُواْ لِنَبِيّٖ لَّهُمُ ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ قَالَ هَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْۖ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ۝ وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ بَعَثَ لَكُمۡ طَالُوتَ مَلِكٗاۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ عَلَيۡنَا وَنَحۡنُ

---

(١) الآيات (٢٥ – ٢٦) سورة المائدة.

أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[1].

هؤلاء هم الذين صنعوا مملكة داود ومن بعده سليمان، هؤلاء هم الذين يُدخلون قضاء الله في مسيرة التاريخ، وهم أيضاً صناع الحضارة والممالك.

لذلك فقد استغرق الأمر من الرسول ﷺ ثلاثة عشر عامًا في مكة، وهو يرسي في نفوس الذين أسلموا العقيدة، والتصور الاعتقادي الصحيح، والتزكية من خلال التضحية ونكران الذات، وتحمل العذاب الجسدي والأذى النفسي، بدون إعطاء الإذن بالقتال. ثلاثة عشر عامًا من الصمود، وتحمل الأذى، وقد داس أحدهم على رقبة الرسول ﷺ وهو ساجد حتى جحظت عيناه، والضرب والإهانة والحرب النفسية وإلقاء القاذورات، والحصار الاقتصادي الخانق والكامل، والحصار في شعب أبي طالب لأكثر من عامين ونصف كان المسلمون فيها يأكلون أوراق الشجر حتى نفدت، والهجرة إلى الحبشة مرتان، وترك الأصحاب والوطن والأموال، ثم

(١) الآيات (٢٤٦ – ٢٥١) سورة البقرة.

الهجرة إلى المدينة، ولذلك عندما جاء الإذن بالقتال، لم يتقاعس فرد واحد من المهاجرين، وعندما نظر الرسول إلى الأنصار قال أحدهم: والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لنبيهم : « فأذهب أنت وربك فقاتلا إنّا ها هنا قاعدون ».

وقال آخر: «فامض يا نبي الله، فوالذي بعثك بالحق، لو استعرضت هذا البحر فخضته لخضناه معك»[1].

كانت مجاهدة النفس حقيقة عملية، وواقعية عينية، تحدث في وضح النهار، فحين قال أبو ذر[2] ذات مرة لبلال[3] «يا ابن السوداء»، فقال له الرسول: «**أنت امرؤ فيك جاهلية**»، لم يبرح أبو ذر إلا أن وضع خده على التراب، راجيا أن يطأ بلال بقدمه على خده الآخر، ولم يرفع رأسه عن التراب حتى يفعل بلال ذلك[4].

الحرية لا تتأتى إلا بمحاربة الهوى، ونوازع الشر والشهوة والتعصب داخل النفس البشرية، بشكل صارم، ومنهجي وفوري، وإلا فهو الضياع.

بعد فتح مكة قال الرسول ﷺ: «**رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر» قالوا: وما الجهاد الأكبر يا رسول الله؟ قال: «جهاد النفس**».

* * *

---

(١) دراسات في السيرة النبوية د. حسين مؤنس الزهراء للإعلام العربي ط٢ ١٩٨٥ ص ١٦٠.

(٢) أبو ذر: صاحب رسول الله ﷺ اختلف في اسمه، أسلم بمكة، ثم رجع إلى قومه، ثم قدم المدينة على رسول الله ﷺ. مات سنة (٣٢هـ) تهذيب الكمال ج٨ صـ٣٠٣-٣٠٤.

(٣) بلال: ابن أبي رباح، مولى أبي بكر الصديق. قديم الإسلام والهجرة، شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وكان مؤذنه. مات بالشام زمن عمر. تهذيب الكمال ج١ صـ٣٨٩.

(٤) [صحيح] مسلم في : الإيمان [١٦٦١]، وأحمد في «مسنده» ج٥ صـ١٨١.

الفصل الرابع
طواف حول الحرية

١ - أينما يوجهه لا يأت بخير

هناك عشرات من الأسئلة تتوارد على خاطر الإنسان منا، عندما ينظر إلى أحوال المسلمين، ويقارنها بالآخرين، وقد مر من العمر معظمه، ولم يجد بعد الإجابة الشافية .

لماذا دائمًا وأبدًا على مستوى الفرد والجماعة، ينطبق علينا القول القرآني (أينما يوجهه لا يأت بخير)

لماذا أهمل الأفراد منا في النظافة الخاصة والعامة؟ ولماذا أصبحت النظافة للبعض مقصورة على حدود المسكن الذي يعيش فيه الفرد؟ أما خارج المسكن سواء أكان سلم المبنى الذي يحتوي المسكن، أو الشارع، أو مكان العمل، أو مكان الترويح، فهو مجال ومكان إلقاء القمامة والتخلص من المخلفات الشخصية.

لماذا ترى سيدة – بعضهن يرتدى الحجاب – وهي تسير حاملة كيسًا من القمامة ثم تضعه بسرعة خاطفة بجوار سيارة، أو سور منزل لآخرين، وتمضي ناظرة للأمام كأنها لم تفعل شيئًا؟ كذلك الذي يركب سيارة فاخرة، ويلقي بالقمامة من نافذتها وهي مسرعة في عرض الطريق. كيف يتأتى ذلك؟.

لماذا لا يحترم المتعلم هو والجاهل إشارة المرور؟ ولماذا لا تجد في العالم بأجمعه – إلا لدينا من يسير في الاتجاه المعاكس ولا أحد يحاسبه؟

لماذا أضافت السيارات لدينا إلى وظيفتها، كمصدر متحرك للتلوث الجوي، وظائف أخرى كمصدر للتلوث السمعي والبصري؟ ولا يقتصر الصوت الزاعق على الأغاني الهابطة والموسيقى الصاخبة، ولكن أيضا شرائط القرآن الكريم، والمواعظ الدينية، بينما تسير السيارة بسرعة كبيرة في الاتجاه العكسي؟.

وكيف أصبح الرصيف – إن وجد الرصيف – مصيدة للبشر، وكمين

للقتل بالسيارات التي تحصد الآمنين الذين ظنوا النجاة في الصعود على الرصيف؟

لماذا يصبح الفرد مذعورًا لا ينام الليل، عندما يكون عليه مغادرة المنزل في الصباح لقضاء مصلحة له في جهاز حكومي، أو حتى لدى القطاع الخاص؟ ولماذا لا تُقضى المصلحة – إذا قضيت – إلا بعد عذاب ومعاناة؟ ولماذا لا يكفي دائمًا ما تحمله من أوراق وأختام لقضاء المصلحة – أكرر – دائمًا أبدًا ؟ ولماذا تشعر بالسرور والفخر الذي يخرجك عن وقارك، إذا نجحت في الحصول على ما هو أصلاً حق لك، وتمشي في الطريق عائدًا إلى أهلك وكأنك حصلت على صيد ثمين.

لماذا يتخطى البعض دورهم في الصف – إن كان هناك صف – وإذا تكلمت تهجم عليك الشخص الخارج عن النظام، ثم يبدأ الآخرون في توجيه الكلام إليك عن أن ما حدث هو خير!! ولا عليك إذا تركته يسرق دورك ودورهم، وكلنا سوف نصل إلى المراد بإذن الله ، فكل التأخير خير بلا كلام ، وينتهى الأمر بأن ينجز هذا السارق ما يريد ، وتقعد أنت ملومًا مذمومًا مدحورًا ؟

لماذا لا يعمل الناس ؟

لماذا لا ينجزون العمل الذي يذهبون لأدائه كل صباح؟ ولماذا ينظرون إليك وهم لا يرونك؟ ويعيرونك سمعهم وهم لا يسمعون؟ وإذا استمعوا لا يركِّزون، وإذا ركزوا لا يفهمون، وإذا فهموا لا ينفذون، وإذا ضغطت عليهم للتنفيذ تبرموا واشتكوا ثم لا يكملون؟

لماذا لا يعمل الناس؟ وإذا عملوا لماذا يعملون في اتجاه معاكس لبعضهم البعض، بالضبط كما يسيرون بسياراتهم في الطرقات، فلا تصبح النتيجة أبدًا موجبة، بل هي دائماً ذات حصيلة صفرية أو سالبة ... لماذا؟

أنا هنا أتحدث عن أفراد وجماعات وشعوب، لها أياد بيضاء على مسيرة البشرية، فهم الشعوب التي اخترعت الزراعة، واخترعت الفخار الذي مكن البشرية من حفظ القوت، واخترعت الصفر في الأرقام، وابتدعت المنهج التجريبي في العلوم – وكل واحدة مما سبق هي ثورة بالمعنى الحرفي والمجازي في مسيرة البشرية، تفوق وتعلو على كل ما يحدث الآن.

لماذا زاد عدد المدارس، وتلاشى في الوقت نفسه دور المدرسة؟ وارتفع رقم الدروس الخصوصية إلى عدة بلايين من الجنيهات، ورغم ذلك ما زالت الأمية الأبجدية تطول نصف التعداد؟ وازداد معدل التسرب من المراحل المختلفة وبالأخص في مرحلة التعليم الابتدائي؟ لماذا ضاع التعليم واختفت التربية؟

لماذا تحولت الجامعات والمعاهد ومراكز البحث إلى مزارع لتفريخ أشباه المتعلمين، واقترن النجاح بنسبة الحضور، والرسائل الجامعية مملاة أو منقولة أو مستبدلة أو مسروقة؟ ولابد لطالب الرسالة من العمل لدى الأستاذ، وقضاء حوائج زوجته، وتوصيل الأولاد وإحضارهم من المدارس، وأن يحل محل الأستاذ في عيادته أو مكتبه عند إجازته أو سفره إلى الخارج، ثم يرسب عددًا من المرات طبقًا للاحتياج إليه في هذه المهمات، وحسب قراءات حجم المنافسة التي سيشكلها عند حصوله على الشهادة في السوق، وبالطبع عندما يحصل هذا الإنسان على شهادته، يبدأ في عملية الثأر وإذلال الآخر، والحصول على حقوقه التي اغتصبت خلال حصوله على الشهادة من الذي يليه. وهكذا تستمر الدائرة الجهنمية، ولا عجب إذن أن يستخدم أساتذة «أجلاء» سلطتهم في تعديل النتائج لسنوات من أجل أبنائهم .. ما هذا؟

لماذا لدينا هيئات من كل نوع، وبكل الأسماء والنعوت، هيئات عليا، وقومية، ومحلية، وقابضة، واستشارية وليس لها تأثير، ولدينا مراكز بحوث لا تبحث ولا تطور، ولدينا مصانع تتبع وزارة الصناعة، ووزارة الإنتاج الحربي، والإسكان والتعمير، ولا مصنوعات ولا تصدير، لدينا تنظيمات وهياكل وناتج قومي ضعيف؟ ولماذا هي إطارات خارجية ولكن خالية من المضمون؟ إطار خارجي جميل ومجوف من الداخل، إذا طرقت عليه أصدر صوتًا ضخمًا عاليًا، ولدينا خطط خمسية وثلاثية، وطويلة المدى وقصيرته، ولا توضع موضع التنفيذ، ولكن توضع على الأرفف وفي الأدراج لماذا؟

لماذا لا ننتج؟ ولا نستطيع إضافة قيمة؟ وقد بدأنا قبل الآخرين، وبدأنا من حيث انتهى الآخرون- والأخير هو أحد الشعارات والأكلاشيهات التي ترفع عند افتتاح أي مشروع كبير - ثم يبدأ المشروع في الضمور، والتصنيع يتحول إلى تجميع

ضامر وهزيل، ويأخذ النظام في الانفراط، والهدف إلى غياب، والجودة في الاندثار، والعمالة في التضخم، والإدارة في الترهل، ونعود إلى نقطة الصفر والابتداء، وتدور الدائرة وتلتقى نقطة النهاية مع نقطة البداية مشكلة دائرة تعني صفرًا كبيرًا؟!!

يقول علي شريعتي: «يقول هايدجر: إن لكل إنسان وجودين، أحدهما الأنا كموجود حي في المجتمع، وبهذا الوجود يحسب من بين المجتمع، فكل فرد له قدر من الاستهلاك والوزن والقوام والذوق وأشياء أخرى، وهذا هو الوجود المجازي للإنسان. أما الوجود الآخر فهو – على حد قول هايدجر – الوجود الأصلي أو الحقيقي، وهذا الوجود لا يوجد عند بعضهم أصلاً، وعلى درجات فيمن يوجد عندهم، هذا الوجود الثاني وجود تصنعه الثقافة وتخلقه عبر التاريخ، وهذا هو الوجود الحقيقي والواقعي والإنساني عند الإنسان، الوجود الأول تكوّن في فترة العمر المكتوب في بطاقة الهوية، لكن الوجود الحقيقي هو الذي تبلور في طول التاريخ وتكوين الثقافة وإبداع الفن وصناعة الحضارة، ذلك الشيء الذي عندما أضعه أمام الثقافات الأخرى، أمام الغرب أو الشرق يعطيني هوية ثقافية، ومعنى يشير إلى وجود واقعي وعيني، ومميزات وقيم محددة، هو الوجود الذي خلق على مر التاريخ، وليس التربية والتعليم إلا تدعيم الوجود الحقيقي وتنميته في الوجود المجازي، الوجود الحقيقي هو ماهيتي وهويتي الإنسانية وشخصيتي الثقافية، وكل من يملك شخصيته الثقافية الخاصة إنسان مستقل ومنتج.

والإنسان المنتج هو الذي يصنع الفكر والإيمان والحركة، كما يصنع العربة، لذلك ما لم تصل الأمة إلى مستوى الإنتاج المعنوي والفكري والثقافي، فإنها لن تستطيع أن تصل إلى مستوي الإنتاج الاقتصادي، وإذا وصلت إليه ففي مستوى ما يفرضه الغرب، وفي صورة خادعة، أي صورة استعمار جديد، المجتمع المنتج هو المجتمع الذي يفكر بنفسه، ويخلق مُثُلَه وذهنه وقيمه وفنونه وإيمانه ووعيه الديني، هذا هو المجتمع الذي يصل إلى الإنتاج الصناعي والاستقلال السياسي، ويصل إلى إنتاج رأس المال، وإنتاج الحضارة المادية، ومن هنا لا يوجد مجتمع قط يراد به ألا يصل إلى الإنتاج الاقتصادي الصناعي، إلا وسلبت من أجياله في البداية إمكانية

الإنتاج الفكري والذهني، ودمرت فيه كل قواعده الأساسية الإنسانية والثقافية التي تمنحه شخصية مستقلة للأنا الإنسانية الحقيقية"[1]

يعطي ما سلف جزءًا من الإجابة، ولكن يبقى هناك لماذا؟ لماذا استطاع الآخر سلب ذواتنا؟ ولماذا دائمًا هناك آخر في وعينا يحركنا كقطع الشطرنج منذ التآمر مثلاً على: «محمد على» وتدمير الأسطول المصري في معركة نافارين، ومعاهدة لندن ١٨٤٠، وعملية (اصطياد الديك الرومي) وهو الاسم الذي أطلق على الخطة الأمريكية للقضاء على الجيش المصري عام ١٩٦٧؟ لماذا نبدو خلال ذلك مسلوبي الإرادة بحيث لا نحرك ساكناً والمؤامرة تفعل فينا فعلها؟......... لماذا......... ؟

ذهبت أتتبع الآية التي تحتوي على «أينما يوجهه لا يأت بخير» والنص هو كالتالي:

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[2]

الرجل الذي لا يقدر على شيء، وهو عالة على صاحبه، ويعتمد عليه في كل شيء، وأينما يوجهه فالناتج سالب أو صفري، وهو دائمًا وأبدًا مصاحب للفشل في كل أحواله ومشروعاته وأعماله وهيئاته وتنظيماته، هو رجل (أبكم)، ولا يعقل أن يقصد المثل القرآني الشخص الأخرس، والذي غالبًا ما يكون فاقدًا للسمع أيضًا، لا يقصد الأخرس بالمعنى الحرفي للكلمة أي لا يستطيع النطق لعاهة فيه، ولكن قد يكون المقصود أنه الشخص الذي لا يستطيع السؤال، والمناقشة والجدل، وإبداء الرأي وحرية التعبير عن هذا الرأي، كما أنه (لا يسمع) أي أنه محروم بالتبعية وفي الغالب من التفكير. هل تكون الإجابة، أو نستطيع القول إن الشخص المحروم من حرية السؤال والمناقشة والجدل والتفكير، ومن حرية إبداء الرأي أو التعبير،

(١) العودة إلي الذات د. على شريعتي ترجمة د. إبراهيم الدسوقي شتا – الزهراء للإعلام العربي – ط ١٩٨٦ص ٣٩-٤١ بتصرف.

(٢) الآية (٧٦) من سورة النحل.

هو الذي أينما توجهه لا يأت بخير، وإن المقابل لـــه، أي الذي يملك تلك الحريات هو بالضرورة

﴿ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

أي يخطط وينفذ، وينجح، ومؤسساته عملية وإنتاجية وليست شكلية....

هل في غياب حرية الرأي والتعبير والمناقشة والجدل والتفكير إجابة ولو جزئية على الأسئلة التي عرضت لي، وعلى ما لم أذكره من أسئلة وهو كثير.....

أما الآية التي تسبق التي ذكرناها لتونا، وهي الآية (٧٥) من سورة النحل فيقول

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُونَ ۚ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

هنا تجد الفرد (مملوكًا) أي سلبت منه كل الحريات المكفولة له بحكـــم حملــه للأمانة، وهي الحريات التي وهب على أساس تحمله لمسئوليتها خلافـــة الله فـــي أرضه - والتي ذكرنا أصنافها سلفًا - يصفه القرآن بأنه (لا يقدر على شيء)، أي أن القدرة على أي فعل معدومة، فما هو توصيف الوضع المعاكس لذلك؟ هو الرجل الذي رزق الرزق الوفير، فهو ينفق منه في السر والعلن. فهل يكـــون القصـــد أن النتيجة الحتمية للسلب الكامل لحرية الفـــرد وبالتـــالي الجماعـــة، هـــي الانهيـــار الاقتصادي وما يعقبه من انتشار الفقر، وانخفاض الـــدخل القـــومي والفـــردي، أي انخفاض الإنتاج، وانخفاض القيمة المضافة الناتجة عن عمل الأفراد والجماعـــات، واختلال الموازنات والميزانيات، وما يترتب على ذلك من ارتفاع الدين الخـــارجي والداخلي، وانهيار الخدمات، والوقوع في فخ العجز عن دفع أصل الدين ناهيك عن فوائده، ثم استجداء إلغاء أو جدولة الديون، وبعد ذلك رهن الموارد القومية، ورهن استقلال القرار السياسي لدى أصحاب الديون

﴿ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ﴾

هل تقصد الآية ما سبق ؟

هل للحرية كل ذلك التأثير ؟

هل يستوي الفرد الحر والجماعة الحرة، مع الفرد والجماعة مسلوبى الحرية ؟

﴿ هَلْ يَسْتَوِيَانِ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

صدق الله العظيم

٢- عمليات زرع النفس

الرسول ﷺ هو الإنسان الكامل. كان إنسانا حرًا بكل ما تحمل الكلمة من معان. كان عبدًا لله وحده، وكانت حركاته وسكناته وأفعاله وانفعالاته لله وبالله وفي الله. كان مبرأ من هوى النفس، ولذلك قال القرآن:

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴾[١].

كان متحررًا تمام الحرية من كل النقائص النفسية والأخلاق المذمومة، متحليا بكل صفات الكمال الأخلاقي لذلك وصفه القرآن:

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[٢]

وأوجز هو رسالته في القول «**إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق**»[٣].

كان حرًا لا يأسره شيء إلا الحق، ولا يقيده شيء إلا العهد والأمانة واتسعت أخلاق نفسه الكريمة اتساعًا لا تضيق عن شيء. حين كسرت رباعيته وشج وجهه يوم أحد حتى صار الدم يسيل على وجهه الشريف، شق ذلك على أصحابه شديدًا وقالوا: لو دعوت عليهم، فقال: «**إني لم أبعث لعانًا ولكن بعثت داعيًا ورحمة، اللهم اغفر لقومي فهم لا يعلمون**»[٤]. وروي البخاري عن أنس[٥] قال: كنت أمشي مع

---

(١) الآية (٣) من سورة النجم.

(٢) الآية (٤) من سورة القلم.

(٣) [صحيح] أحمد فى «مسنده» ج٢ صـ ٣٨١.

(٤) [صحيح] روى بعضه الإمام مسلم فى «صحيحه» ، كتاب البر [٢٥٩٩].

(٥) أنس: ابن مالك، خادم رسول الله ﷺ وكان عابدًا زاهدًا. مات سنة (٩١) صفة الصفوة ج١ صـ ٢٣٣-٢٣٤.

رسول الله ﷺ ، وعليه بُرْد نجراني غليظ الحاشية (رداء) فأدركه أعرابي فجبذه بردائه جبذة شديدة (جذبه بشدة)، فنظرت إلى صفحة عاتقه وقد أثرت فيه حاشية البُرد من شدة جبذته، ثم قال: يا محمد مر لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه فضحك ثم أمر له بعطاء[1]. عن عائشة - رضي الله عنها - لم يكن النبي ﷺ فاحشًا ولا متفحشا ولا يجزي بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح[2]. وعن عائشة أيضا أن رجلا[3] استأذن على النبى ﷺ ، فلما رآه قال «**بئس أخو العشيرة، وبئس ابن العشيرة، فلما جلس تطلق النبي ﷺ في وجهه وانبسط إليه، فلما انطلق قالت له عائشة: يا رسول الله حين رأيت الرجل قلت له كذا وكذا ثم تطلقت في وجهه وانبسطت إليه، فقال: يا عائشة متي عهدتينى فحاشًا، إن شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة من تركه الناس اتقاء لشره**» رواه البخاري[4]. وقال عليه الصلاة والسلام: «**إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله**»[5]. وكان لا ينهر خادمًا، قال أنس ؓ: خدمت النبي ﷺ عشر سنين فما قال لي: أف قط، ولا قال لشيء صنعته لم صنعته؟ ولا لشيء تركته لم تركته؟[6]. وقالت عائشة - رضى الله عنها-: ما ضرب صلى الله عليه وسلم شيئا قط بيده، ولا امرأة، ولا خادمًا، إلا أن يجاهد في سبيل الله[7]. وسئلت عائشة - رضي الله عنها - «كيف كان الرسول ﷺ إذا خلا في بيته؟ قالت: ألين الناس. بسامًا ضحاكًا، لم ير قط مادًا رجليه بين أصحابه. وعنها: ما كان أحد أحسن خلقًا من رسول الله ﷺ، ما دعاه أحد من

---

(١) [صحيح] البخارى ف : اللباس [٥٨٠٩]. ومسلم فى : الزكاة [١٠٥٧].
(٢) [صحيح] الشمائل (١٨٥).
(٣) قيل أن هذا الرجل عُيَيْنَةَ بن حصن الفزاري وكان يقال له الأحمق المطاع. وكان زعيم قبيلة غطفان وكان محالفا لخيبر، وفتح الرسول خيبر وفشل عُيينة في إغاثة خيبر فبعد أن كان يلقب بالأحمق المطاع أصبح الأحمق فحسب. دراسات في السيرة النبوية ص٨٦.
(٤) [صحيح] البخارى ف: الأدب [٦٠٣٢].
(٥) [صحيح] البخارى ف: أحاديث الأنبياء [٣٤٤٥].
(٦) [صحيح] البخارى ف: الأدب [٦٠٣٨]، ومسلم ف : الفضائل [٢٣٠٩].
(٧) [صحيح] مسلم ف: الفضائل [٢٣٢٨].

الأصحاب إلا قال لبيك. وذكر الطبري في مختصر السيرة النبوية[1] أنه صلى الله عليه وسلم ركب حمارًا عُرْيًا إلى قباء وأبو هريرة معه قال: يا أبا هريرة أأحملك؟ فقال: ما شئت يا رسول الله قال: اركب، فوثب أبو هريرة ليركب فلم يقدر، فاستمسك برسول الله ﷺ فوقعا معًا. ثم ركب رسول الله ﷺ ثم قال: يا أبا هريرة أأحملك؟ فقال: ما شئت يا رسول الله فقال: اركب، فلم يقدر أبو هريرة على ذلك، فتعلق برسول الله ﷺ، فوقعا جميعًا، ثم قال: يا أبا هريرة أأحملك؟ فقال: لا، والذي بعثك بالحق لا رميتك ثالثًا. وجاءته - صلي الله عليه وسلم - امرأة كان في عقلها شيء فقالت: إني لي إليك حاجة فقال: اجلسي في أي سكك المدينة شئت أجلس إليك حتى أقضي حاجتك، فخلا معها في بعض الطريق حتى فرغت من حاجتها[2]. وقال عبد الله بن أبي الحمساء: بايعت النبي ﷺ قبل أن يبعث، وبقيت لـه بقية فوعدته أن آتية بها في مكانه، فنسيت فذكرت بعد ثلاث، وإذا هو في مكانه فقال: «لقد شققت عليَّ، أنا هاهنا منذ ثلاث انتظرك»[3]. وقال ابن أبي أوفى: كان عليه الصلاة والسلام لا يأنف أن يمشي مع الأرملة والمسكين فيقضي لـه الحاجة[4]. رواه النسائي، وفي رواية البخاري إن كانت الأمة لتأخذ بيد رسول الله ﷺ فتنطلق به حيث شاءت[5]. وفي رواية أحمد فتنطلق به في حاجتها[6]. ودخل الحسن وهو صلى الله عليه وسلم يصلي، قد سجد فركب على ظهره، فأبطأ في سجوده حتى نزل الحسن، فلما فرغ قال لـه بعض أصحابه: يا رسول الله لقد أطلت سجودك،

---

(١) الأنوار المحمدية من المواهب اللدنية - النبهاني في الفصل الثاني الأخلاق النبوية ص٢٢٠ ومابعدها.

(٢) [صحيح] مسلم فى: الفضائل [٢٣٢٦]، وأبو داود فى: الأدب [٤٨١٨-٤٨١٩]، وأحمد فى «مسنده» ج٣ صـ٢١٤.

(٣) البيهقى فى «السنن الكبرى» ج١٠ صـ١٩٨، ط تصوير بيروت.

(٤) [صحيح] النسائى فى: الجمعة ج٣ صـ١٠٩، والدارمى فى: المقدمة ج١ صـ٤٨-٤٩ ح (٧٤)

(٥) [صحيح] البخارى فى : الأدب [٦٠٧٢].

(٦) [صحيح] احمد فى «مسنده» ج٣ صـ٢١٦

قال: إن ابني ارتحلني فكرهت أن أعجله[١]. وكانت حجراته - صـــلي الله عليـــه وسلم- آية في النظافة. وكان يكره من الرجل أن يكون زري الهيئة، ودخل عليـــه أنس بن قتادة مرة ليكلمه في شيء، فرأى على ملابسه وسخًا، ورأى لحيته شعثاء، فلم يترك الرجل يتكلم وقال لـــه: أما لك امرأة تنظر في أمرك، قال: بلى يا رسول الله، قال: إذن فامض إليها واجعلها تأخذ من شعرك واغسل نفسك وغيّـــر ثوبـــك وانظر في أمر نفسك، فإنك سيد في قومك يا أنس، وهذا الذي أراه لا يحسن بك[٢].

يقول على عزت بيجوفيتش عن الرسول ﷺ: «لا شك أن محمدًا ﷺ قـــد دمـــغ التطرف، وقد نسب إليه والد إمرسون حديثًا بهذا المعني: (أنا خصيم تقي جاهـــل، وعالم كافر)[*]. لا شك أن الرسول ﷺ كان خصيمًا لكثير من الأضداد المتطرفـــة: المؤمنون الضعفاء، والحكام الذين لا يؤمنون بالله، والنفس النقية في بـــدن قـــذر، والنفس الفاسدة في جسم مهندم، كان محمد خصيمًا للعدالة التي لا قوة تساندها، كما كان خصيمًا للقوة الباغية. لم يكن محمد ﷺ ليعترض على الغنى والوفرة، ولكنـــه كان يصر على الفضيلة مع الغنى، وكان بالتأكيد ضد الفضيلة العريانة العاجزة التي ليس لها من يحميها. وقد سوى الرسول ﷺ النضال من أجل حياة أفضل، والجهـــاد ضد الطغيان والجهل والمرض والفقر والقذارة- بالفضيلة الأخلاقية»[٣].

لا يوجد أعداء أخطر على الحرية من تقي جاهل، وعالم فاجر، فأي نفس حرة نفس محمد ﷺ هذه.

التزكية هي مجاهدة النفس والهوى، وتبديل الهوى؛ ليصبح تبعًا للحـــق، لا أن يكون الحق تبعًا للهوى. العبادة والعمل والحركة هي مكونـــات مشـــروع التزكيـــة لترقي بالنفس؛ لتصبح مثل نفس محمد ﷺ اتباعًا للتوجيه القرآني:

---

(١) البيهقي ف «السنن الكبرى» ج٢ صـــ٢٦٣، مرجع سابق.

(٢) دراسات في السيرة النبوية د. حسن مؤنس مرجع سابق ص٥٣.

( ) انظـــر «رالـــف والدوإمرســـون» ، «

، الإسلام بين الشرق والغرب، بيجوفيتش صـــ٣١٧.

(٣) الإسلام بين الشرق والغرب بيجوفيتش ص٣١٧.

﴿ لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ﴾[1]

هل نستطيع أن نقول إن التزكية، وقياسًا على عمليات زرع الأعضاء مثل القلب والكلي والكبد، هي عملية زرع نفس؟. أن استبدل بنفسي المعوجة، نفسًا حرة زكية كنفس الرسول ﷺ، ولله ولرسوله المثل الأعلى.

وهذه العملية هي مصداق للتوجيه القرآني

﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ ﴾[2]

وفي هذه العملية لن يحتاج الإنسان إلي تثبيط المناعة، ولن تستثار أجهزة حماية الجسم من جراء التغيير، فنفس الرسول من نسيج أنفسنا.

﴿ لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ ﴾[3]

وهي نفس هينة لينة سمحة، تتناغم مع كل إنسان برقة ورحمة وانسجام لأنه

﴿ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴾[4]

عملية الزرع هذه لا يعقبها طرد ولا عنت، ولا غربة ولا اغتراب، ولا حمى واضطراب، بل رحمة ورأفة وسمو وترقٍ وتزكية وسكينة وسلام..... وحرية.

ليس الأمر بالتمني، فلكي تكون حرًا كالرسول، لابد من الجهاد والمجاهدة، وهذا هو سر النزول إلى الأرض من الجنة للإنسان، النفس هي المهر الذي يقدم للحرية. والاستثمار الناجح لحياة الإنسان - وهي رأس المال الحقيقي له في هذه الدنيا - هو في الترقي في الكمالات الأخلاقية للحصول على الحرية، وتبقى الحرية بعد ذلك، ورغم ذلك، أهلاً لذلك.

---

(١) الآية (٢١) سورة الأحزاب.
(٢) الآية (٦) سورة الأحزاب.
(٣) الآية (١٢٨) سورة التوبة.
(٤) الآية (١٢٨) سورة التوبة.

الحرية هي رابطة بين الأحرار، وصلة قربى وترقي إلى القرابة، يقول الرسول ﷺ «**أنا جد كل تقي**»[1].

٣- اعتقال الحرية

هل يمكن حبس الحرية واعتقالها وخنقها ؟

الإنسان هو حامل الحرية وهو موضوعها، والمسئول عنها وهو الذي يمارسها وينشرها ويقاسمها الآخرين، فإذا حبسنا الإنسان، أو اعتقلناه نكون قد حبسنا الحرية.

وعند تدقيق النظر، يظهر أن الإجابة ليست بهذه السهولة؛ إذ كيف نفسر أن الآلاف من البشر، والذين تسنى معرفة القليل منهم، قد حبسوا أو اعتقلوا وعذبوا، لسبب أو لآخر، ولكن حريتهم لم تمس على الإطلاق، بل استمرت مطلقة السراح لا قيد عليها، بل إنها ساعدتهم على التحمل والحياة والاستمرار، بل إنَّ الحرية أيضًا – في بعض الأحيان – هي التي أخذت بأيديهم إلى النهاية المحتومة في هدوء وكرامة وعزة وشموخ.

النصارى الذين لاقوا من العذاب ما يشيب لـه الولدان، وكان المنشار يوضع على مفرق أحدهم؛ ليشقه نصفين ببطء مريض، ويموت ولم يتزحزح قيد أنملة في اتجاه مضاد لاعتقاده. وقد صورت وسجلت سورة البروج، أفظع أنواع الاعتداء على الحياة الإنسانية بالحرق، في آياتها الاثنتين والعشرين، حيث تقول:

﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ۝ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ۝ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾[2]

وفي التفسير «والموضوع المباشر الذي تتحدث عنه السورة هو حادث أصحاب الأخدود..... والموضوع هو أن فئة من المؤمنين السابقين على الإسلام- قيل إنهم

---

(١) [موضوع] أورده العجلوني في «كشف الخفاء» ١/ ٢٣٤.

(٢) الآيات من (١-٨) من سورة البروج.

من النصارى الموحدين- ابتلوا بأعداء لهم طغاة قساة شريرين، أرادوهم على ترك عقيدتهم والارتداد عن دينهم، فأبوا وتمنعوا بعقيدتهم. فشق الطغاة لهم شقًا في الأرض، وأوقدوا فيه النار، وكبوا فيه جماعة المؤمنين فماتوا حرقًا، على مرأى من الجموع التي حشدها المتسلطون؛ لتشهد مصرع الفئة المؤمنة....[1]

بلال بن رباح الذي شهد من العذاب أفظعه، ولم يفقد حريته، ولم يتنازل عن معتقده، ومازال يردد خلال جرعات العذاب الطويلة المتصاعدة : أحد أحد، مازال حتى انهزم المعتدي وخرج من التاريخ، وبقي بلال. بلال واحد من كثير يزخر بهم تاريخ الإسلام.

الحرية هي القرار الذي يتخذه الإنسان الحر الواعي المكلف، والذي لا تستطيع قوى العالم مجتمعة أن تسلب هذا الإنسان هذا القرار، مهما كانت الإغراءات أو مهما توحش العدوان أو مهما كانت الظروف، والحرية هي التي تحمي صاحبها في الوقت نفسه، يقول القائل: «السلع الفكرية هي وحدها التي تبقى لنا حين نكون قد جردنا من كل ما عداها. ويمثل ماي (أحد المفكرين) على ذلك بإيراد حالة عجيبة في بابها (كريستوفر بيرنى)، وهو شاب بريطاني كان ضابطًا في هيئة الجاسوسية، أُنزل بمظلة وراء خطوط العدو في الحرب العالمية الثانية، وقبض عليه الألمان. وقد وضع في حبس انفرادى بلا كتاب ولا قلم ولا ورق للكتابة طوال ثمانية عشر شهرًا. على أن بيرنى، وهو فى زنزانته البالغة مساحتها ستة أقدام فى ستة أقدام، قرر أن يراجع كل يوم في ذهنه الدروس التي تعلمها في المدرسة وفي الكلية، الواحد تلو الآخر. فأخذ يراجع النظريات الهندسية، وفكر سبينوزا وغيره من الفلاسفة، ويستعرض في ذهنه الملامح العامة للآثار الأدبية التي قرأها، وهكذا دواليك. وهو في كتابه (الحبس الانفرادي) يبين كيف أن «حرية العقل» - كما يسميها - أبقته سليم العقل خلال عزلة دامت ثمانية عشر شهرًا»[2].

---

(١) في ظلال القرآن – سيد قطب جزء ٦ ص٣٨٧٣ مرجع سابق.

(٢) العلم في منظوره الجديد روبرت م. اجروس جورج ستاينو ترجمة د. كمال خلايلي عالم المعرفة ١٣٤ مرجع سابق ص ٩٢

الأحرار أقوى من سجَانيهم ومن السجن ومن المسجونين، لذلك يقول أحد الذين كانوا في معسكر أوشـــفيتس «الأشخاص ذوو الشعور المرهف الذين كانوا متعودين على حياة فكرية خصبة ربما قاسوا كثيراً من الآلام (كانوا في الغالـــب ضـــعيفي البنية) غير أن الضرر الذي أصاب كيانهم الروحي والعقلي كان أخف وطأة. فقـــد كان في مقدورهم أن ينسحبوا بأنفسهم من وسطهم الرهيب، إلى حياة تتسم بـــالغنى الداخلي والحرية الروحية، وبهذه الطريقة وحدها يستطيع المرء أن يفسر التنـــاقض الظاهري المتمثل في أن بعض الأسرى من ذوي البنية الأقل متانـــة، كـــانوا فـــي الغالب أقدر على تحمل حياة المعسكر من الأسرى ذوي البنية القوية"[١]

«ويصف (الكساندر ســولجنتن فـــي كتـــاب (أرخبيل جولاج معسكرًا سوفيتيًا لأسرى الحرب جردت فيه طائفة من العلماء والمفكرين من جميع الأمتعة البدنية والخارجيـــة وفرضـــت عليها أشغال شاقة. وكانت تُعطى ما لا يزيد على بضع أونصات (أرطـــال) مـــن الخبز يوميًا، فيقول: (في معكسر سماركا كانت طائفة من رجال الفكر فـــي عـــام ١٩٤٦ قد وصلت إلي شفا الهلاك. فقد أنهكهم الجوع والبرد والشغل الـــذي يفـــوق طاقتهم. بل لقد حرموا حتى من النوم. ولم يكن لديهم مكان يستلقون فيه؛ إذ لم تكن قد بنيت ثكنات المخابئ . فهل لجأوا إلى السرقة؟ هل اشتكوا؟ هـــل تـــذمروا مـــن حياتهم المتلفة؟ كلا. ولما كانوا يتوقعون اقتراب الموت منهم في غضـــون أيـــام لا أسابيع، فانظر إلى الطريقة التي قضوا بها أوقات الفراغ التي اتسمت بالأرق وهـــم يجلسون متكئين على الحائط. لقد جمعهم تيموفييف ريسوفسكي على شـــكل نـــدوة دراسية، وبادروا إلى تشاطر ما كان يعرفه أحدهم ويجهله الآخر. وهكذا ألقى كـــل منهم محاضرته الأخيرة على الآخرين. الأب سافلي تحدث عـــن (المـــوت غيـــر المشين)، وتكلم قس جامعى عن كتابات وتعاليم آباء الكنيسة، وتحدث أحـــد آبـــاء الكنيسة الشرقية التي تعترف بسلطة البابا عن شيء ما في مجال العقيدة والكتابـــات التي تعترف الكنيسة بصحبة إلهامها، وتحدث مهندس كهربائي عما سيكون عليـــه علم الطاقة في المستقبل، وتكلم عالم اقتصادي من لينجراد عمـــا لاقتـــه الجهـــود

(١) المرجع السابق ص ٩٢.

الرامية إلى وضع علم الاقتصاد السوفييتي من فشل بسبب الافتقار إلى أفكار جديدة. وتحدث تيموفييف نفسه عن مبادئ علم فيزياء الجسيمات الدقيقة. ومن جلسة إلى أخرى أخذ عدد المشتركين يتناقص، فقد صاروا فعلا في مستودع الجثث"[١] .

الحرية تعطي مساحات رحبة حتى داخل أضيق الأماكن، وهي لا تحمي فقط صاحبها، بل يمكنها أن تحمي الآخرين أيضًا عن طريق المشاطرة والاقتسام.

الرئيس نيلسون مانديلا، بعد السجن والتعذيب والاعتقال من أقسى النظم القمعية العنصرية التي يعرفها العالم الحديث، وبعد سبعة وعشرين عاماً من الاعتقال الانفرادي، خطا إلى خارج المعتقل في خريف العمر؛ ليدفن نظام الفصل العنصري (الأبارتهيد)، ويجمع بين السود والبيض في وحدة، ويتولى رئاسة جنوب إفريقيا، ويحل مشاكل البلدان المجاورة إضافة إلى مشاكل بلاده، ويشارك في الأنشطة العالمية، وكأنه كان منغمسًا في ذلك، ومحيطًا بكل الدقائق خلال عمره كله، وأصبح الشغل الشاغل للعالم، حتى أن رؤساء الدول العظمى يتسابقون لرؤيته، وأَخْذِ صورة إلى جواره. ما هذه المعجزة المسماة بالحرية.

الإنسان خليفة الله في أرضه، باختياره الحرية، اختاره الله لهذا المعنى الرفيع، اختاره الله لجدارة الإنسان، فالله أعلم أين يضع رسالته.

* * *

(١) المرجع السابق ص٩٤

تذييل

الأمانة هى الحرية .. محاولة اجتهادية

هناك آية توضح الصورة المهيبة للموقف الذى تم فيه طرح العرض الإلهى من قبل الحق - تبارك وتعالى - على الكائنات، للتعاقد بموجبه، حيث قال تعالى:

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾[1].

أنا أزعم أن الحرية هى المقصود بالأمانة فى هذه الآية الكريمة، وتعالوا معى نتقصى مدى صحة هذا الزعم.

الأمانة هى التكليف حسب أغلبية المفسرين

فى تفسير هذه الآية، قال الإمام الزمخشرى[2]: «وهو يريد بالأمانة الطاعة، فعظَّم أمرها وفخَّم شأنها .. وعرضها (أى الأمانة) على الجمادات وإبائها وإشفاقها مجاز ...»، ثم يقول: «إن ما كلفه الإنسان بلغ من عظمه وثقل محمله، أنه عُرض على أعظم ما خلق الله من الأجرام وأقواه وأشده أن يتحمله ويستقل به، فأبى حمله أو الاستقلال به، وأشفق منه، وحمله الإنسان على ضعفه ورخاوة قوته

﴿ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾

حيث حمل الأمانة ثم لم يف بها، وضمنها ثم خاس بضمانه فيها».

وقال الفخر الرازى:

« ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ ﴾ أى التكليف ...»[3].

وقال الإمام ابن كثير: «قال العوفى عن ابن عباس: يعنى بالأمانة (الطاعة)، عرضها الله - تعالى - عليهم (أى على السماوات والأرض والجبال)، قبل أن يعرضها على آدم، فلم يطقنها، فقال لآدم: إنى قد عرضت الأمانة على السماوات والأرض والجبال

---

(١) الآية (٧٢) سورة الأحزاب.

(٢) كشاف الزمخشرى، جـ٢، المطبعة الأميرية ١٣١٨هـ، صـ٤٤١

(٣) الإنسان فى القرآن، العقاد، مرجع سابق، صـ٤٦.

فلم يطقنها، فهل أنت آخذ بما فيها؟ قال: يا رب وما فيها؟ قال: إن أحسنت جزيت، وإن أسأت عوقبت. فأخذها آدم فتحملها فذلك قوله – تعالى-:

﴿ وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴾.

وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس: الأمانة (الفرائض)، عرضها الله على السماوات والأرض والجبال إن أدوها أثابهم، وإن ضيعوها عذبهم، فكرهوا ذلك، وأشفقوا عليه من غير معصية، ولكن تعظيمًا لدين الله أن لا يقوموا بها، ثم عرضها على آدم فقبلها بما فيها، وهو قوله تعالى:

﴿ وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴾

يعنى غرًا بأمر الله ... وهكذا قال مجاهد وسعيد بن جُبير والضحاك والحسن البصرى وغير واحد: إن الأمانة هى (الفرائض)، وقال آخرون: هى (الطاعة)»[1].

تتلخص أقوال المفسرين السابق بيانها، وغيرهم ممن لم نذكره فيما يلى:

- إن الأمانة هى التكليف أو الطاعات أو الفرائض أو قبول الأوامر والنواهى بشرطها.
- إن الإنسان قد ظلم نفسه بحمله لهذه الأمانة؛ لأنه تحمل ما لا يطيق جهلا منه بطاقته.

وبذلك يمكن القول إن إجماع المفسرين على أن الأمانة هى (التكليف)، ويؤكد ذلك الأستاذ العقاد فى قوله: «ولقد وضح معنى الأمانة وضوحا لا يقبل اللبس أو الانحراف بالفهم عن جوهره المقصود، وهو (التكليف)، فمن لم يذكره من المفسرين بنصه، ذكره بمقتضياته ومتعلقاته، وهى ملازمة له لا تنفك عنه»[2]. ونلاحظ أيضًا أن المفسرين قد خلطوا فى أقوالهم بين أساس التعاقد وهو (التكليف)، وبين شروط هذا التكليف مثل (الطاعة)، فأطلقوا اسم (الطاعات) على التكليف، فأصبح شرط التعاقد (الطاعة) اسمًا لأساس التعاقد (التكليف). كما أنهم لم يذكروا الشرط الآخر وهو (الحرية) صراحة، بل ألمحوا إليه بالقول: (إن أحسنت جزيت، وإن أسأت عوقبت)، فلم تذكر هنا الحرية صراحة، ولكن عوضًا عن ذلك أشير إليه بذكر القدرة على الاختيار بين البدائل.

---

(١) تفسير ابن كثير، المجلد الثالث، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، صـ ٨٣٠

(٢) الإنسان فى القرآن، العقاد، مرجع سابق، صـ ٤٥.

الحرية – وليس التكليف – هى الأمانة

وإذا صح لديك زعمى – فيما سلف – بأن التكليف ليس بالأمر القابل للعرض، ناهيك عن القبول أو الرفض من المخلوقات، حيث هو أساس خلق هذه الكائنات، فيمتنع لدينا قبول تفسير الأمانة بأنها التكليف. ويكون المقبول أن الأمانة التى عرضت على الكائنات فى هذه الآية هو قبول أو رفض شرطى التكليف وهما الطاعة والحرية، وليس التكليف ذاته. وحيث إن السماوات والأرض هى كائنات قد جبلت على الطاعة لقوله – تعالى –:

﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾[1]،

ما يعنى أنها مخلوقات لا تعرف إلا أن تكون طائعة، ولا تقدر إلا على فعل الطاعة؛ لأنها مفطورة عليها، فيصبح عرض الأمانة بمعنى (الطاعة) لا محل له، حيث لا محل لأن تعرض اختيار أمر على من لا يملك أن يرفضه، فلا يبقى لنا إلا شرط (الحرية)، ما يعنى أن الأمانة التى عرضت على الكائنات هى الحرية، حرية الاختيار بين البدائل، أن تملك القدرة على الفعل والترك، القدرة على أن تقوم بواجبات التكليف، والقدرة على ترك هذه الواجبات، بل أن تمنعها حتى من الحدوث، مع تمام المعرفة بثواب الفعل، والعقاب على الترك. ويصبح هنا من المفهوم أن السماوات والأرض والجبال قد رفضن تحمل هذه المسئولية الجسيمة، وخفن من التبعات الهائلة المترتبة على القدرة على الاختيار بين البدائل، وكان لها ما أرادت، وفى ذلك يقول الفخر الرازى فى تفسير هذه الآية نفسها عن رفض السماوات والأرض: «لم يكن إباؤهن كإباء إبليس فى قوله – تعالى –:

﴿ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾[2]

من وجهين: أحدهما أن هناك السجود كان فرضًا، وها هنا الأمانة كانت عرضًا، وثانيهما أن الإباء كان هناك استكبارًا، وها هنا استصغارًا: استصغرن أنفسهن بدليل قوله تعالى:

﴿ وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا ﴾[3]».

---

(١) الآية (١١) سورة فصلت.

(٢) آية (٣١) سورة الحجر.

(٣) الإنسان فى القرآن، العقاد، مرجع سابق، صـ٤٦.

المسئولية جسيمة فلم المغامرة؟

الإنسان ذلك الكائن المكلف الفريد هو الذى قبل بتحمل مسئولية الحرية والقدرة على الاختيار، وبذلك أصبح الكائن المكلف الحر المختار. ولو دققنا النظر فى هذه الآية:

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾

لوجدنا من سياق الآية أن الأمانة لم تعرض فى الأساس على الإنسان، وهى نقطة تثير الانتباه والدهشة، وكأن الحق - تبارك وتعالى - يخبرنا أن الإنسان، ذلك الكائن المتفرد، قد تقدم من تلقاء نفسه، من بين صفوف المخلوقات طالبًا لها دون أن تعرض عليه، ولذلك فقد استحقها وفاز بها؛ لأنه لا يستحق الحرية إلا من يتشوق إليها، ولا يفوز بها إلا من يعشقها ويرغب فيها ويطلبها. هل يمكن القول إن الإنسان قد مارس الحرية فى الحصول على الحرية؟

الحرية اكتمال للمعنى الإنسانى ونفى للجهالة

وإذا كان الأمر كذلك - وهو فى زعمى كذلك - فكيف يستقيم أن يوصف الإنسان، الذى حمل شعلة الحرية المقدسة، بأنه ظالم لنفسه جاهل لطاقته، بحمله لأمانة الحرية، أو أنه تحمل ما لا طاقة لـــه به، وقاده جهله إلى حمل ما يثقل كاهله. هل من المعقول أو المقبول أن الخالق العظيم، الرءوف الرحيم، الذى سبق حبه لخلقه حبهم إياه، والذى لا يقول لمن يدير إليه ظهره من خلقه، ناكرًا مستكبرًا موغلاً فى الخصومة، لا يقول لـــه إلا:

﴿ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾[١]

- أنظروا إلى رقة التعبير - فالعلاقة قائمة على المحبة، وبها فقط تستمر أو تنقطع، وهو الله الذى حرم الظلم على نفسه

﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾[٢]،

وجعله بين الناس محرما، أن يعرض على الإنسان شيئًا لا يطيقه، ثم يصف الإنسان بعد ذلك بأنه ظالم وجاهل؛ لأنه قبل وتحمل هذا الأمر. إن الله هو القائل:

---

(١) الآية (٥٤) سورة المائدة.

(٢) الآية (٤٦) سورة فصلت.

﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾[1]،

فمناط التكليف الوسع، وهو أحد شروط التعاقد، فلا يستقيم أن يترك الإنسان ليتحمل ما إن حمله فقد ظلم به نفسه، وساقه إلى الوقوع فى ذلك جهله، ولا سبيل إلى الطاعة إلا من خلال الاستطاعة «إن التكاليف التى تفرض على الناس لا يقصد بها قصم ظهورهم، ولا تسجيل العجز عليهم، ولا إرهاقهم، حتى يصبح الدين امتحانا، والعقيدة مصابًا، وإنما قصد بها إسعادهم، وتثبيت أقدامهم على طريق الخير، والأخذ بأيديهم فى طريق التقدم والتطور، وتحبيب الفضائل، وتقبيح الرذائل لديهم.

يقول - تعالى -:

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾[2]»[3]،

وعليه فهل هناك من تفسير آخر لوصف الإنسان بأنه كان ظلومًا جهولاً غير الذى ساقته التفاسير السابق ذكرها؟

الجماد لا يحرك نفسه، والنبات يحرك نفسه ولكنه لا يعرف إلى أين، والحيوان يتحرك، ويعرف إلى أين يتحرك، ولكنه لا يعرف لماذا يتحرك، والإنسان هو الذى يعرف لماذا يتحرك، وما تأتى لــه ذلك إلا عن طريق الحرية، والإرادة المختارة التى تحدد لــه المسير، وتوضح لــه الاتجاه، وتكشف لــه علة اتخاذ هذا الاتجاه. إذا سلبت الإرادة الحرة المختارة من الإنسان نزل عن مرتبته، وانحط إلى أسفل، واعترى النقص ماهيته التى تميزه عن سائر الكائنات فالحرية هى اكتمال النقص، وبدونها يصبح الإنسان ناقص المعنى، يقول الأستاذ العقاد: «إذا كانت الإرادة المطلقة هى إرادة الله، فخلق الناس مكلفون بغير إرادة لهم شيء غير معقول وغير مقبول؛ لأن سقوط التكليف لا معنى لــه فى هذه الحالة، إلا أن يخلق الناس جميعًا متشابهين متماثلين متساويين فى العمل الصالح الذى يساقون إليه، كما تساق الآلات، فلا فضل إذن للعاقل على غير العاقل، ولا تمييز للإنسان على الجماد المجرد من الحس، فضلاً عن الحيوان»[4]، الإرادة الحرة المختارة هى التى ميزت الإنسان عن بقية المخلوقات، وبدون هذه الإرادة يصبح الإنسان ناقصًا فى المعنى والماهية، وهنا يمكن أن نفسر كلمة (ظلوما) بأنها (ناقصا)، بدليل الآية:

---

(١) الآية (٢٨٦) سورة البقرة.

(٢) الآية (١٨٥) سورة البقرة

(٣) فلسفة التشريع الإسلامى، فتحى رضوان - ثقيف للنشر والتأليف، الرياض ط أولى ١٩٩٠، صـــ١٧٤ بتصرف.

(٤) الإنسان فى القرآن، العقاد، مرجع سابق، صـــ٥٢-٥٣

﴿ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ﴾[1]

أى لم تنقص منه شيئًا، فقبل أن يتحمل الإنسان أمانة الحرية (كان ظلومًا جهولاً)، أى كان ناقصًا فى ما هيته الإنسانية جاهلاً بالعلم اللازم لــه لممارسة هذه الحرية، وتحمل مسئوليتها، وبعد أن تحمل أمانة الحرية اكتمل نقصه، وأعطى العلم النافى للجهالة، وأصبح جديرًا بأن يكون سيد الكون.

بذلك التفسير لا يصبح التكليف عبئًا، والحرية كمينًا أريد به الإيقاع بالإنسان الظالم الجاهل، إنما يصبح التكليف تشريفًا، والحرية اكتمالاً ورفعة، والإنسان مرفوع الهامة خلقًا وخلقًا، والسيادة على الكون من حقه، والحياة زيادة لــه من كل خير، والموت راحة لــه من كل شر، والحب والشوق يدفعانه ويرفعانه فى مدارج الكمال والاكتمال.

ولقد استرعت هذه الآية (٧٢ – الأحزاب) انتباه حتى من هم من غير الناطقين باللغة العربية (كلغة أم) من خارج العالم الإسلامى، فكتبت السيدة أنا مارى شيمل «الإنسان هو الذى تحمل الأمانة الإلهية، بينما أبت السماء والأرض أن تحمل هــذه المهمة الكبيرة، مصداقًا للآية الكريمة (الأحزاب: ٧٢). وقد ذهب المفسرون مذاهب شتى فى حقيقة هذه الأمانة، فمنهم من قال إنها طاعة الله، ومنهم من قال إنها تشير إلى الإيمان بالله، ومنهم من رأى أنها تعبر عن الحب الإلهى، وفسرها آخرون باعتبارها تدل على المسئولية الفردية للإنسان فى إطار حرية الاختيار. والإنسان مطالب فى القرآن بالتفكير، واستكشاف الآيات الإلهية التى أودعها الله فى نفس الإنسان»[2]. وتقول السيدة كارين أرمسترونج: «ويصور موضع رائع من القرآن الله وهو يعرض الأمانة (الحرية)[*] على كل مخلوقاته الأخرى التى ترفضها، أما الإنسان فقد كان من التهور بدرجة جعلته يقبلها (الآية ٧٢ من سورة الأحزاب)، غير أن الله لم يترك البشر دون هداية، فقد أرسل رسلاً لا يحصون لكل الشعوب على وجه الأرض يعلمونهم ما أراده لهم. لكن ومنذ آدم، أول الأنبياء، رفض البشر الانصات إلى تجليات الإرادة الإلهية. فهم إما فشلوا فى استيعاب الرسالة، أو لم يطبقوها فى حياتهم اليومية، وبعد ذلك استغلوا العالم الطبيعى استغلالاً مشينًا»[4].

---

(١) الآية (٣٣) سورة الكهف.

(٢) الإسلام دين الإنسانية: أنا مارى شيمل، ترجمة وتعليق د. صلاح محجوب، مراجعة د. فهمى حجازى، سلسلة دراسات إسلامية. العدد ٦٠. أكتوبر ٢٠٠٠م. صـ٥٢-٥٣.

(*) هكذا فى النص.

(٤) سيرة النبى محمد: كارين أرمسترونج، ترجمة د. فاطمة نصر/ د. محمد عنانى – دار سطور، ط ٢، صـ٢٥١

وتثير مسألة الإرادة الحرة للإنسان بعض الأسئلة، حيث إن بالقرآن الآيات التى تقر حرية إرادة الإنسان فى الفعل والترك، وأنه مسئول أمام ربه عن ذلك، ولكن هناك آيات أخرى تتحدث عن أن الله هو خالق الخلق وخالق لأفعالهم. فهل الحرية فى التفسير السابق هى حرية مقيدة أم مطلقة؟ وهل تكون الحرية مقيدة؟ إن الحرية فى هذا السياق هى حرية مخلوقة حيث إن الله هو خالق كل شىء فكيف بالحرية المخلوقة: أهى حرية حقيقية؟

هناك الكثير من الآيات التى تتحدث عن إرادة الإنسان الحرة، وعن مسئوليته عن أعماله وأفعاله، وعن حسابه وثوابه على ما كسب من صالح الأعمال، وتوعده بالعقاب الشديد عما اكتسبه من آثام، وفى ذلك يقول الله - تعالى -:

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾[1]،

ويقول:

﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ ﴾[2].

ويقول:

﴿ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾[3]،

وأيضًا:

﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ ﴾[4]،

---

(١) الآيتان (٧، ٨) سورة الزلزلة.
(٢) الآية (١٢٤) سورة النساء.
(٣) الآية (١٢٣) سورة النساء.
(٤) الآيتان (١٧، ١٨) سورة النساء.

ويقول:

﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾[1].

وفى المقابل هناك الكثير من الآيات التى تسند الإرادة إلى الله، وأنه الخالق للعباد ولأفعالهم، وهو المقدر للهداية والضلال، يقول - تعالى -:

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾[2]

ويقول:

﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ﴾[3].

وأيضًا:

﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[4]

هل هناك تناقض؟ لنتحرك خطوة خطوة لمحاولة رفع الالتباس. وبغض النظر عن التصور الاعتقادى، أى سواء كان المنطلق إيمانى أو غير إيمانى، فكيف يتصور العقل إرادة الإنسان على كل احتمال[5]:

١- لا يتصور العقل أن تكون إرادة الإنسان مطلقة من كل القيود؛ لأن إرادة إنسان واحد تنطلق بغير قيد، هى قيد لكل إنسان سواه.

٢- وجود الناس جميعًا بإرادة مطلقة لكل منهم على السواء، مستحيلة فرضًا، ومستحيلة وجودًا.

ويقول فى ذلك چون ستيوارت مل: «فالإنسان غير مسئول أمام المجتمع عن شىء من تصرفاته، إلا ما كان منها ذو مساس بالغير»[6]، ويستطرد قائلاً: «إننى متنازل عن كل ما يمكن أن يستخلص لتأييد حجتى من فكرة الحق المجرد بوصفه شيئًا مستقلاً تمامًا

---

(١) الآية (٢٨٦) سورة البقرة.

(٢) الآية (٩٦) سورة الصافات.

(٣) الآية (٣٠) سورة الأعراف.

(٤) الآية (٦٨) سورة القصص.

(٥) الإنسان فى القرآن، عباس العقاد، مرجع سابق، صـ ٥٠-٥٦ بتصرف.

(٦) عن الحرية: جون ستيوارت مل - الهيئة المصرية للكتاب - القراءة للجميع - ترجمة عبد الكريم أحمد / د. محمد أنيس مراجعة، صـ ٧٢، ٧٤.

عن المنفعة؛ إذ أننى أعتبر المنفعة الهدف النهائى وراء جميع المسائل الأخلاقية ... ونحن نرى أن هذه المصالح لا تبيح إخضاع حرية الفرد تلقائيًا إلى أية سيطرة خارجية، إلا فيما يختص بتلك الأعمال التى يأتيها الفرد، وتتناول مصلحة الآخرين، فإذا ارتكب المرء فعلاً ضارًا بغيره، استحق الجزاء بلا منازع، إما بقوة القانون، أو بحكم الرأى العام، حينما لا يؤمن تدخل القانون»[1]. إذن الحرية المقيدة متصورة فى العقل، كما جاء بها النقل.

٣- كما سبق وذكرنا أنه إذا كانت الإرادة المطلقة هى إرادة الله، فخلق الناس بغير إرادة حرة، لا يقبله العقل أيضًا؛ لأنه يعنى أن يخلق الناس جميعًا متشابهين متماثلين متساويين فى العمل الصالح الذى يساقون إليه، فلا فضل إذن للعاقل على غير العاقل، ولا تمييز للإنسان على الجماد المجرد من الحس، فضلاً عن الحيوان.

٤- إن وجب تكليف الإنسان - وهو واجب - فالعقل الإنسانى لا يوجبه إذن، إلا على حالة واحدة، وهى حالة الإرادة الحرة التى يخلقها فيه الخالق كما بينها القرآن.

٥- الحرية المخلوقة حرية صحيحة فى التصور العقلى، فلا يقال إن الحرية التى تخلق ليست بحرية، فالحرية غير القيد عند التمييز بينهما، كما تتمايز قيمة المعدن نفيسًا وغير نفيس، وكليهما مخلوق أو مصنوع، فإن خَلَقنا أو صُنعنا للآنية الذهبية وللآنية النحاسية، لا ينفى نفاسة الأولى، ولا يجعلهما متساويتين. (انتهى).

هناك إرادة مطلقة للخالق، وهناك حرية مقيدة للإنسان، للقيام بواجب التكليف بالطاعة والتنفيذ والحصول على الثواب، أو بالعصيان وعدم القبول وتوقع العقاب.

الأمانة هى الحرية، والحرية أمانة، والله - جل وعلا - يقول:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا ﴾[2]

وقد وهب سبحانه الأمانة إلى الإنسان، وبذلك فالإنسان هو أهل لها، نسأله سبحانه وتعالى أن يجعلنا من :

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ﴾[3]

وهو خير مسئول.

* * *

(١) عن الحرية: جون ستيوارت مل - المرجع السابق.

(٢) الآية (٥٨) سورة النساء.

(٣) الآية (٨) سورة المؤمنون.

الفهرس

تقديم ٥

الفصل الأول: تمهيد وتنظير ١٢

التكليف هو أساس الحق – الإنسان المكلف – العهد والتعاقد – الحرية أحد شروط التكليف – تكريم الإنسان بالخلافة فى الأرض بقبوله الحرية – عواقب إسقاط التكليف أو التنازل عن الحرية.

الفصل الثانى : تصنيف الحرية ٢٤

تكليفات وليست حقوق – غياب مباحث الحرية فى فكر السلف – حرية العقيدة والاعتقاد – المعجزات لا تكفى لحمل بعض الناس على التصديق – الإيمان الاختيارى هو المطلوب – حرية الاعتقاد تعلو على خصوصية العلاقات – عقوبة الردة فى الإسلام – حرية الفكر – حرية الاختلاف – صحة النهى عن البحث فى الروح – السنة التشريعية والسنة غير التشريعية – العمل والإيمان – ضرورة الجماعة – الحرية والتصور الاعتقادى – معنى الخلود للإنسان – رحلة التصور الاعتقاد لأبى الأنبياء.

الفصل الثالث: بناء الذات الحرة ١٧١

التزكية – العبادات – الشخصية الإنسانية ما بين استلاب الحرية وممارستها مع التزكية.

الفصل الرابع: طواف حول الحرية ٢١٣

أينما يوجهه لا يأت بخير – عمليات زرع النفس – اعتقال الحرية.

تذييل: الأمانة هى الحرية .. محاولة اجتهادية ٢٢٩

هذا الكتاب

الحرية مثلها مثل كل قيمة أو نشاط إنسانى، تحتاج إلى الخروج إلى الواقع الحى المعاش –أى إلى الممارسة– وذلك لتنمو وتتجذر وتكتسب المناعة اللازمة لاستمرار الحياة... والذى لا يملك حريته أو لا يعرف عن الحرية شيئا، لا يسمح بحرية الآخر، لأن فاقد الشىء لا يعطيه... وإذا كان الرق أو العبودية قد اختفيا بمعناهما الفج، إلا أنهما لا يزالان موجودين بأشكال أخرى فى أماكن متفرقة من عالمنا فى القرن الواحد والعشرين، فمثلا إذا لم يملك الإنسان نفسه، أصبح عبداً لشهواتها ورغباتها ونزواتها وأسيراً لهواها، وقد تتضخم ذاته حتى تحجب عنه الآخر بالكلية، فإذا نظر لا يرى، وإذا أصاغ أذنه لا يسمع، والإنسان عندما يضع طرف إصبعه بالقرب من عينيه فإنه يحجب عنها قرص الشمس...

الحرية طريق صعب وشاق، والتزكية لا يستطيعها إلا الصفوة، وهؤلاء هم صناع التاريخ...

الحرية لا تأتى إلا بـــمحاربة الهوى ونوازع الشر والشهوة والتعصب، داخل النفس البشرية... الحرية تحتاج إلى تيقظ وانتباه وتضحية ومجاهدة وتزكية، وتصور اعتقادى سليم، وعمل وفعل وتغيير فى الطبيعة وفى الناس وإلا قادتك إلى التيه.